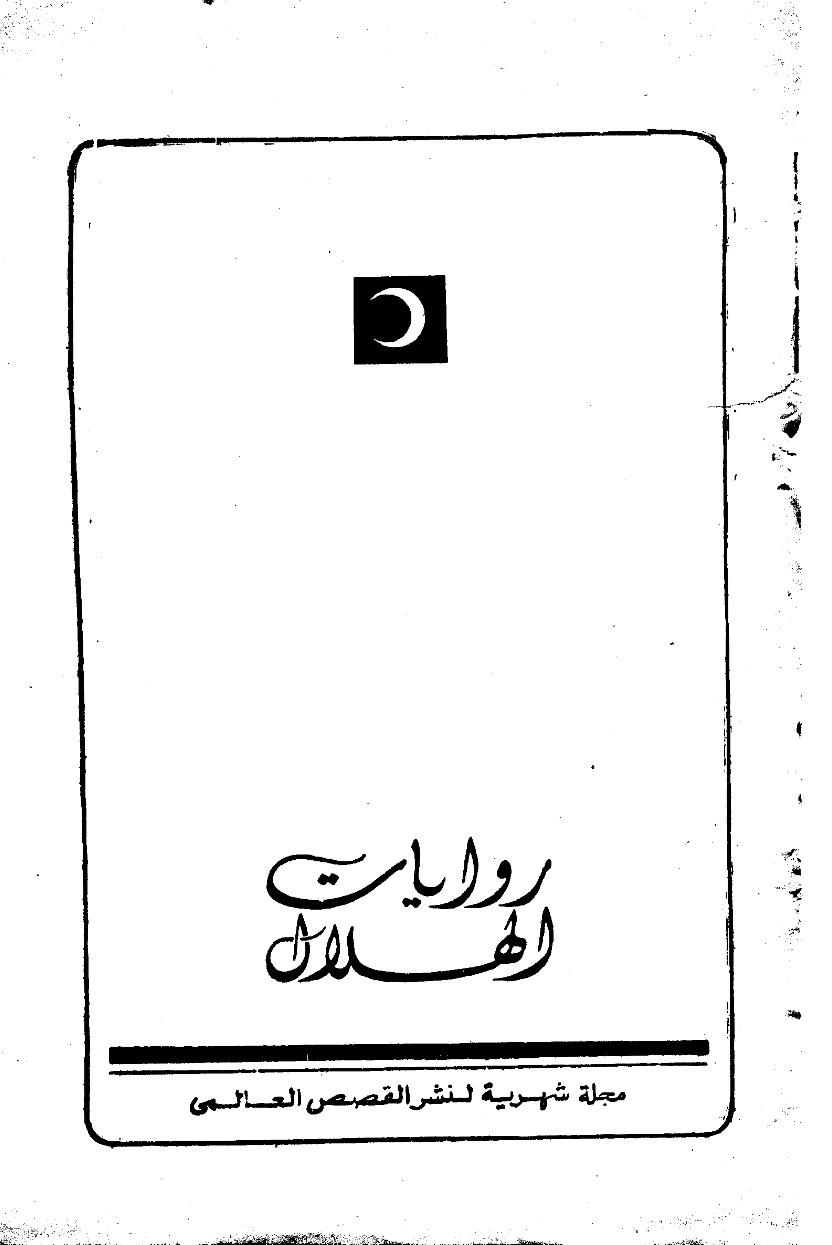
العام الأول للميلاد

بقلم

فتحي سلامة

دار الهلال



روايات
الهلال
مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنان
جمـــــــال قطب





١ ــ وقفة قصيرة أمام العام الأول :

فى خندق الشارع الرابع قالت لى :

ــ متى نتزوج ؟ ...

لم اجب ، ابتسمت ، اعتقــــد انها لم تر ابتسامتى ، كانت الظلمة تغطى المــكان ، وكان القصف شــديدا ، لمحت ذيل قذيفة يبرق فى السماء ، تذكرت اغنية السمان فى سبتمبر ، وضحكات « عيسوى » الرنانة على شاطىء البحيرة ...

ــ ها ... المساء قادم ...

اختفى عيسوى ، اخترقت رأســه قطعة صــلب ســـاخن ، تناثرت جمجمته وتطايرت رذاذا قطعة من مخه وكف الفم البــاسم عن الــكلام ، وضاع عيسوى ... مات ... ! !

ــ متى نتزوج ؟ ...

لم تــكن الفــارة قد توقفت بعد ، والموت يدق كل الابواب ، والناس قد رحلوا ولم يبق سوى « تيجر » كلبى الحزين ...

ــ لم تقل متى نتزوج ؟ ...

ــ حين يأتى القمر ؟ ...

ــ ومتى يأتى القمر ؟ ...

عيسوى كان يحب العزف على الجيتار ، وكان يغنى ، ويرقص فى ليالى القمر ، وكان يعيش ...

ــ ومتى يأتى القمر ؟ ...

فى الليــل كان يأتى ويدق على نافذتى ، وكنت اســبه ، وبعدها نخرج فى الثالثة صباحا نمشى بجوار البحيرة ، ويلمع القمر على سطح المــاء ، ويتراقص فى نشوة ، يهتــاج عيسوى ، يبحث عن قطعة حجر يقذفه بها ، تطمس ضربة الحجر صـــورته الشفافة

لحظات ولكنه يعود من جديد يتأرجح فى تحد على سطح الماء ، ويصيح عيسوى فى نشوة :

ـ يجب أن نصعد فوقه ...

ـ من ؟ ...

ـ القمر ...

يقولها ويجرى نحو القمر ، يا مجنون ... القمر فى السماء ... لايرد ... يبدأ فى خلع ملابسه ويقذفها واحدة تلو الاخرى ... حتى يتعرى بجوار الماء وهو يغنى ...

« يقول رع ، رب الارباب فى الاعالى ...

دعونى اقبلكم جميعا ، يا من تنامون فى الظهيرة وتأكلون لحم البقر فى استرخاء أبدى ...

ولأنكم جميعا ، بلا استثناء ، شجعان مثل الرب » ...

عد يا رجل ، عد ياعيسوى ... الماء بارد ، يجمد الاطراف ، سأعود أنا ، لا تكن مجنونا ، أسماك القرش كثيرة ...

ولم يكن يخاف أبدا ، ولم يرجع أبدا ، يعود حين يريد ... لايرهب الماء وكأنه ولد فيه ...

ساد الصمت ، يبدو ان الغارة هدات ، لمحت بعض النجوم ، ما زالت السماء رغم كل هذا اللهيب زرقاء ، وودت ان أصرخ ولكن « كاتى » جذبتنى بجوارها وهى تصيح :

ـ ارقد يا مجنون ...

ضحكت ... وسمعت صوت ضحكتى يرتفع خارج الخندق ، لم اكن أتصور ان كل هذا الضرب قد حدث وتركنا ، ولم تمض لحظات حتى ارتفع ضرب المدفعية بشدة مرة أخرى ، القنابل تزأر فى وحشية ، تقضم شارع العشاق ... آه ياعيسوى ... شارع العشاق أصبح كومة رماد محترق ، كنت تسير وضحكاتك تجلجل فى الشارع الهادىء والمظلم دائما ... آه يا بلد ... الحب عندك حرام ... يصرخ عيسوى ... ياسويس ... مهندس الاضاءة نائم ...

ـ ارقد ، قلت لك ...

ـ تخافين ؟ ...

ـ لا ...
ـ ولماذا تجذبيننى بشدة ؟
ـ اخشى عليك من الشظايا ...
ـ قلبى أصيب بشظية ...
ـ متى ؟
ـ عندما رأيتك لأول مرة ...
ـ ولكنك رأيتنى منذ أن كنت فى المهد ...
ـ ومن يومها ...
ـ ومن يومها وقلبك ينزف ...
ـ احبك ...
ـ انت تكذب !
ـ اقسم لك .
ـ ومتى نتزوج ؟ .

احيانا أجلس وحيدا وافكر ... هل انا مجنون ؟ ! مجنون ؟ أو على الاقل نصف مجنون ؟ واحيانا أعترف بينى وبين نفسى :

اننى اكذوبة كبيرة ، وربما يكون هذا تفسيرا لما حدث ...

يسألنى أبى ، فى خطاب وصلنى اخيرا مع أحد الجنود :

ـ لماذا لم تأت حتى الآن ؟ ...

ابى يخاف من الحرب ، ومن الكوليرا ، ومن وسوسة الشيطان ، ومن الحديث فى السياسة ، أبى يعشق النساء والبيع والشراء والحديث عن قصص شبابه ... كان يقول :

ـ لا مكان لنا الآن يابنى ، البلد لم يبق به أحد سوانا ، وانا اخاف ... اذهب يا أبى على بركة الله ...

تحطمت عربة النقل وهى تنقل اثاث المنزل ، بكت أمى لأن سرير جدتها المعدنى تهشم ولم يعديصلح لشىء ، بكى أخى الصغير لأن آلته الموسيقية تحطمت هى الاخرى ...

وابتلع ابى اساه ... وقال :

ـ لايهم ...

كفت أمى عن البكاء ، وكذلك فعل اخى ، واندسوا جميعا فى عربة خالى ... وذهبوا ، كانت أمى تحمل على حجرها جهاز التليفزيون فى حرص بالغ ...

— كاتى ؟
— نعم !
— فيم تفكرين ؟ ...
— لا شىء ...

أم كاتى ماتت ، كانوا يسكنون فوقنا فى نفس المنزل ، وقرر أبى هجرة أسرته واسر جيرانه ، طلب منهم فى أحد الايام ان يحزموا أمتعتهم ، اطاعوه جميعا وفعلوا ، ظل اسبوعا يرتب رحيل جيرانه ... عربات النقل ، الرجال مع عربات النقل ... والنساء والاطفال فى عربة خالى ، أجرة السويس ... سيارة قديمة ولكنها متينة ، أو كما يقول :

— عضامها متينة ، كانت تحمل السياح الى دير سانت كاترين عابرة جبال سيناء ...

حينما يبدأ الظلام ... تخرج العربات ... واحدة ... واحدة ... اذا اصيبت سيارة فلتكن واحدة ، لا داعى للمغامرة بكل بيض السلة ، وبدأ شارعنا يبكى فراق احبائه ، الهجرة الاجبارية ، نحن لا نخاف الحرب ، الاعمار بيد الله ، الموت مكتوب ، واذا حدث ... ففى ديارنا وبين تراب أرضنا نتوارى ، أبى يقول :

... ودمعة صغيرة تنحدر أسفل العين ... وما السويس سوى بقية أرض لنا ، كل أرض مصر أرضنا ...

لايهم ... النظام يجب ان يسود عمليات التهجير ... والقبطان آخر من يرحل ، أسرة كاتى قبل اسرتنا ، ركبت الاسرة عربة النقل ، كانت أم كاتى تخشى على أشيائها ... فركبت مع الرجال فى عربة النقل ، تعدت العربة حدود المدينة ومضت فى هدوء ، هبطت دانة مدفع زنة مائة رطل ، تناثرت قطع الاثاث مهشمة ومعها أشلاء الرجال وأم كاتى ، جاء الخبر سريعا الى أمى ، والقبطان ظل جامدا ... ليرحل الباقون ... الاعمار بيد الله ، الخالق يسترد ما فعله ، لا اعتراض ، تبقى كاتى مع ابنى لا احد يجبرها على شىء ، ولا احد يخبرها بشىء ، أبى مع أمى واخى الصغير فى عربة خالى ...

هربت منهم ومعى كاتى ، قررت البقاء هنا مهما كان الثمن ،

عيسوى قال ذلك ... ظل ابى يبحث عنى يوما كاملا قبل رحيله ... ملعون ، شاب طائش ، دعه ، سيموت من الجوع والبرد ، ان لم يمت برصاصهم ، ابى يخاف ، نظر الى خالى فى غيظ ومضى معهم ، آخبروا امى برحيلى مع عيسوى ...

ابى يقول فى خطابه :

ـ يجب ان تعود ، امك حزينة من اجلك ، لا اجـد ما أقوله لها ، الشركة نقلت مصانعها الى مكان آخر ، لابد أن تذهب الى هناك ، نحن نقيم فى قرية جميلة على النيل ، ولدينا مسكن ...

وضعت خطاب ابى فى جيبى ، رايت بعض الاشجار مفروسـة فى المـاء ، كاتى تقول :

ـ متى نتزوج ؟ ...

الضرب توقف الآن ، ظللنا برهة نتسمع فى قلق ، بعـد لحظة خرجت من الخندق ، لم احاول أن الاحظ شيئا ، ولم تعد الصورة تفرى بالمشاهدة . ثقوب الجدران سوداء مشوهة ، قطع الشظايا ما زالت تتدحرج ، سقطت احدى الحجرات ... جفل « تيجر » واسرع الى الخندق ، كنت اظن انه اصبح جبانا ، ولـكن بعـد التجربة وجدت انه يملك حاسـة غريبـة يعرف بها الفارة قبـل وقوعها ، جريت الى الخندق مرة اخرى ، الـكلب أسرع من صفارة الانذار ، ضـحكت عنـدما رايتـه يقف خلف كاتى واختبأ بين قدميها ... ولم تفلح ابدا فى ابعاده ... ها ياتيجر لم تعد شجاعا ، الآن تهرب خلف النساء وفقـدت ذلك التوهج الرائع الذى كنت تملـكه ، كنت اصفر لك صفيرا خافتا فتسرع فى تألق وتوثب ، والآن ... ملعونة تلك الحرب ، افقدتنى عيسوى وشجاعة كلبى ...

ـ تيجر ، اين انت ؟ ...

اسرعت ابحث عنه ، لابد ان اجده ، صعدت السلالم قفزا ... اصطدمت بفتاة تهبط مهرولة ، رمقتنى الفتـاة بنظرة سخيفة ، مضيت ... تيجر ... آه سجين غرفة السطوح ، امى تضيق بك ، تأكل مثل رجل ولا تعود علينا بالنفع فى شىء سـوى مشـاجرات الجيران ... لقد دللته كثيرا يابنى ، انه يرفض ان يفعل شيئا ، انه يخالف اوامرى ... ولهذا ابعدته ، سيموت جوعا فى الفرفة العليا ،

أمى دائما تصرخ من أجل تيجر ، ولـكن لا يهم ... انه يشم رائحتى ... لا تخف يا تيجر سأفتح الباب ، اصبر حتى اصعد كل هـذه السلالم المرتفعة . الباب موصد بالمفتاح ، والمفتاح مع امى ، لا تبك هكذا ... بعض القبلات ... انت جميلة اليوم يا أمى ... أحبك يا أمى ... يا افضل ام فى العالم ، يا أجمل ... تريد المفتاح للغرفة العليا ؟ يامكار ... لن أعطيه لك ... انت ولد نصاب ... لا تنكر انك فعـلا ولد نصاب ... لا يهمك أمر أمك فى شيء ... انت فقط تهتم بهما ، أنا لا أهتم بك ؟... من قال هذا ؟

كذاب من يقول انني لا أهتم بأمى العزيزة ... انظرى ماذا جئت به من أجلك ... ماذا ؟ ... وارد من الخارج ، اشتريته من سفينة فرنسية ويقولون ان هـذا العطر لايستعمله سوى الملـكات ... من بلد يسمى باريس ... لايهم الثمن ، لقد اكرمونى من أجلك ... رائع ... هات المفتاح اذن ... ياخبيث ... كلفتنى نصف ريال ... اخرج الآن ، واذهب فورا ومعك هذه الرسالة الى كاتى ...

لحظاتى الرائعة حقا تلك التى كنت أسير فيها مع كاتى وخلفنـا تيجر يجرى فى قفزات رشيـقة ، ويدفعه جريه الى بعيد فيتوقف لينظر خلفـه لحظات ليعود مرة أخرى الى وثباته خلفنا ، حتى نأتى الشاطىء ونجلس على حافة السور ، ويتقدم تيجر حتى حافة المـاء وينتظر ، فى انتباه شـديد ، حركة السنارة التى أغمسها فى المـاء ، وتفلت السمكة من الطعم ، ويقفز فى توثب ويهمهم فى ضيق ، ولـكن ها هى سمكة أخرى تداعب السنارة ، يسكت ، ينتبه ، السنارة غمزت يا تيجر ... اشـد السنارة بسرعة ، ها هى السمكة تتأرجح فى الهواء مدلاة من فمها تحاول الافلات ، تحاول فى يأس ان تعود الى المـاء ، تيجر يهب واقفا على قدميه رافعا يديه ، يصيح من الفرحة ... تصرخ كاتى ... حرام السمكة ، اقذفها ثانية الى المـاء ... تيجر يحس برغبة سيـدته ، ولـكن لا ... أمك فى المنزل وكاتى هنا ، ملعونة تلك الرحمة السقيمة ، ويقفز الى أعلى ... ها هى السمكة يا مولاى الرحيم ... واجذب طرف الخيط ، احترس يا تيجر ، السنارة فى فم السمكة ... اصبر قليلا ، سوف اخلص السمكة ، كاتى تثور ، ها هى السمكة خذها لك ... كاتى ... العالم

هكذا ، ملعونة كل الاشياء ، لا معنى لكل شيء ، لقد تسلينا بصيد السمك ، وأكل تيجر حتى شبع ، ان هذا الكلب الملعون يحب السمك ، كما ان امى لا تود ان تطعمه ، انها تقول ... اقذفوا به بعيدا عنى لأننى لا أطيقه ... أمى تصلى دائما وتحرص على تأدية كل الفرائض ، وتود ان تتخلص من الكلب ، وأبى يقول ... كلها كائنات الله خلقها ويرزقها ... فقط يقول هذا ولا يفعل شيئا

الاشياء المندثرة تحت الانقاض لا تبدو الآن ، الضرب يعلو فى موجات ، مدفعيتنا ترد فى عنف ، فى عصبية ، مكتوب يا أبى ... ان نولد فى عصر اللامعنى ونموت ... انتظرى يا كاتى ... الضرب لايزال على أشده ولا يمكننا ان نخرج الآن ... جوعى ، حبيبتى جوعى ، لو كنا فى الاحلام الآن لأتيت لك بمائدة ملك فرعونى ، يأتون اليه بمائدة حافلة ليأكل ، عليها اشهى المأكولات .

تيجر خائف الآن ، وجائع ايضا ، كما ان كاتى تشكو من الصداع والجوع ، والآلام تعرف طريقها جيدا ، بائع اللبن كان يصلى فى هذا المسجد الفجر حاضرا ، كنت احيانا المحه يدخل أو يخرج من الجامع ، واحيانا يؤذن ، ويدور بائع اللبن بعد ذلك على البيوت موزعا ابتسامته الطيبة مع كل مكيال لبن ، المسجد الكبير تهدم الآن ... قذفوه يوم الجمعة فى الظهيرة ، ظلوا يقذفونه ساعة او يزيد ، كنت احيانا ادخل هذاالمسجد لأصلى ، واحيانا لأنام بعيدا عن العالم ، وفى احيان قليلة استمعت الى درس الدين ، قالوا لى مرة ... ان بائع اللبن يخلطه بالماء ، يومها رأيته يدخل الى المسجد فى الظهيرة فيصلى ، كنت أود أن أسأله ... ولكنى لم استطع ، حاولت طرد هذه الفكرة السخيفة ولكن ... صورة الرجل وهو يصلى اختلطت بصورته وهو يضع الماء على اللبن

يقول شيخ المسجد : من يغش الناس فى طعامهم أو شرابهم أو فى عقائدهم ... مصيره النار ...

النار التهمت منبر المسجد ، رأيت ذلك بنفسى ، كنت أحاول ان احتمى فى المسجد أثناء الغارة ، حينما شاهدت النار تأكل منبر المسجد ...

لم يعد هناك اطفال ، هاجروا مع اسرهم ، حتى بائع اللبن ... هاجر الى قرية قريبة من اسيوط ، قالوا ان له أقارب هناك ... السنارة غمزت مرة اخرى ، انت محظوظ يا تيجر ، لا تخف ... كاتى هادئة الآن ، السمكة لك ، ولكن بعد الآن ، سنقتسم ياكلبى العزيز ... واحدة لك ... وواحدة لى ، اننى أود ان أتذوق السمك اليوم ...

الضرب لايزال ، لا وجود لطائرات العدو ، يبدو انه يمهد لمعركة كبيرة ، لا يهم ... سأحاول ان افعل شيئا ، انفجار مدو وقع بالقرب منا ، ما هذا ؟ لا أحد يقول لك ، كاتى ... انت شجاعة ... الضرب سيتوقف فيما يبدو ...

— عيسوى انت مجنون والله ...

عيسوى قذف بكل السمك الذى جمعناه ، مجنون ، ضحك عاليا ، ابتسمت كاتى فى سعادة ، شعرت بحنق شديد ، عوى تيجر فى ألم ، مجنون ياعيسوى ... ما الذى فعلته ؟ لقد ضيعت جهدنا هباء ... ضحك مرة اخرى فى نشوة ... اسكت يا ملعون ...

مسكين عيسوى ، ذهب ولم يعد ، خطفته شظية ساخنة ، لم يقل أين ومتى نلتقى ؟ وكان يؤكد لى فى كل مرة نفترق موعد اللقاء التالى ، ولم يكن ينتظر حتى يحين موعدنا الذى حددناه ... فقد كان يأتى دائما ... ثلاث دقات على النافذة ثم صفير رفيع خافت ، أمى تعرف هذا ، تدق على صدرها بيدها اليسرى... وتحاول أن تشدنى بيدها اليمنى ، كنت اضحك واضع ما فى يدى من طعام — سريعا — فى فمى ، أجرى نحو الباب ، ولكن أمى تشدنى ... انت لم تأكل بعد ! كل أولا ثم اذهب انت وهو فى داهية ، ثم تحشر فى فمى قطعة لحم ، جسدى ينتفض والصفير الرفيع يأتى ممدودا عبر النافذة ...

— لقد تأخرت يا أمى ...

يد أمى قوية ، يد تعمل طوال اليوم ، معروقة جافة خشنة ، يدها لا تدعنى أفلت منها ...

— كل هذا الطعام أولا ثم لا ترنى وجهك ، لا تذهب الى البحر...

الطعام كريه ومر ، احاول ان اتمرد ...

ـ كل يا مجنون ،الشارع افضل... اليس كذلك ؟ وحينما تمرض وترقد مثل الدجاجة المسلوقة من جلوسك على السور بجوار البحر طوال الليل ، هذا افضل ؟ كل ربما يمنع هذا الطعام المرض ، لاتقل شيئا ... دعه ينتظر ... اتمرد ، ابذل جهدى كله ...

ـ لا فائدة ، اذن اذهب وخذ هـذه معك كلها انت وهوه ، لا تعطها الى كلبك ، لقد اعطيته ما يوازى اقة سـمك ... احاول أن أفلت من يد أمى ، ولـكنها لم تـكمل نصائحها بعد ...

ـ برد البحر قارس ، انت مريض مثل أبيك ، وهذا الولد زميلك مثل البغل الصعيدى ، يبيت فى العراء ولا يمرض أبدا ، لم اره مرة واحدة قال : آه ...

صـــوت أمى يخرج حادا وفيعا ثرثارا اخشى على رفيقى من سماعه وخاصة وهى تسبه هكذا ، دعينى يا أمى أرجوك ... وأخيرا أتحرر من قبضتها ، وهى ما زالت تـكمل وصاياها ...

أخيرا ... تعال يا تيجر ، انت رابض خلف الباب تخشى أمى ، لا تصدر صوتا حتى لا تمسك بك وتعطيك بعض الوصايا ، قفزة واحدة تكون فى الشارع ... وبعدها الحرية لك ولى مع عيسوى ...

ـ أين انت ياعيسوى ...

يبـدو انه غضب ، ربما يكون قد سمع كلام أمى ، أبحث عنه ... يا تيجر ، ولـكن تيجر يتمطى فى استرخاء ، بعد كل هذا المجهود مع أمى ثم لا اجد عيسوى ... أعصابى ستنهار ، احضره يا تيجر قلت لك ، لمـاذا لا تتحرك ؟ يبدو ان فى الأمر خـدعة ما ، انتما تحاولان خداعى ، مدرس الحساب وبعد ان يمط شـفتيه بطريقة مقززة للغاية يقول : اننى غبى ... انا لا أثق فى مدرس الحساب ، انه يبدو مثل بهلوان الملك ، منتفخا مثل الديك ، حقيقة لا اجيب بسرعة وسهولة فى معظم الاحيان ولـكنى لست غبيا ...

عيسوى يجيب على كل الاسئلة بسهولة ويسر لدرجة مدهشة

لست غبيا ، سأحاول ان اعرف الخدعة التى يدبرها عيسوى... اننى اذاكر جيدا وأقوم بعمل كل واجبـاتى المدرسيـة ، بل ان

جميع كراساتي نظيفة ولامعة ، عيسوى لا يقوم بعمل الواجبات المدرسية ... كما انه لا يحمل كراسة واحدة ، والمدرس دائما يسأله :

ـ أين كراستك ياعيسوى ؟

أشعر انا بالخوف ... فالمدرس تبدو عليه الشراسة ، انه يتعرف على عيسوى لأول مرة ، وحتما سينهال عليه ضربا ، ولكن عيسوى يقف في برود لايتكلم ، ويكرر المدرس الجديد السؤال ... وعيسوى لا يجيب ، يعلو صوت المدرس بالسؤال مرات متكررة ، يسود الصمت حول الفصل ، واخيرا ينظر عيسوى الى المدرس الجديد ويقول :

ـ سأحضرها غدا ...

يشعر المدرس بالنصر ، يصرخ ، تخرج منه الكلمات برذاذ فمه ، تبدو جبهته معروقة ، يحاول ان يفسر سر اهتمامه بالسؤال ، يجلس عيسوى فى صمت ، تنتهى الحصة ، لتعود حصة اخرى ويصبح المدرس الجديد قديما ويتعرف على عيسوى ولا يعود الى سؤاله عن كراسته مرة أخرى ...

ـ اسمع ياعيسوى ... سأذهب الى السينما بمفردى ...

اذا لم تظهر الآن وتكف عن هذه الحركات ...

ـ ولكنك لا تستطيع الدخول بمفردك ...

صوته يأتى من مكان قريب ، لابد انه خلفى ، استدير بسرعة ، لا شيء ، ليس هنا ...

ـ معى نقودى واستطيع الدخول بمفردى ...

ـ طظ فى نقودك هذه ، لا تستطيع رغم نقودك ان تدخل السينما بمفردك ... وانت خائف ...

اننى خائف بالفعل ، الظلام يقف أمام عينى سدا من الخوف والرهبة ، ولكن ها هو الكلب ... اتحسس رقبته ، اشعر ببعض الأمان ، يبتعد الكلب ... الظلام حالك ...

ـ عيسوى ... لا تكن عنيدا ... أين انت ؟

اشعر بالبرودة ، اسمع اصواتا مختلطة وكأن شيئا يحوم حول وجهى ، صرخت :

ـ عيسوى ...

ـ أنا أستطيع دخول السينما دون نقودك ...

وكأن لسانا من نار يقترب من وجهى ، قفزت فى فزع ، انفجر عيسوى فى ضحك عنيف ، شعرت بالخوف منه ، والعار من نفسى، وقف تيجر بجوارى ، شعرت ببعض الالفة ، تشبثت بشعر رقبته...

الضرب توقف الآن ، يبـدو ان الليـل تقدم كثيرا ، كاتى أين انت ؟ تيجر أين انت ؟ ماذا ؟ لا أرى شيئا ، أين انتما الآن ؟ لقد توقف الضرب ويمكننا أن نذهب ، انى أشعر بالجوع ، لا احد يجيب ، الدنيـا ظلام ، ضرب المدفعية المتواصل كان يضىء السماء ، وكف الضرب الآن ، كاتى أين أنت ؟ ... لا أحد يرد !

ايضاحات جديدة للملمح الأول :

يطلقون على فى الشارع اسم عيد ، وينادوننى فى المدرسة باسم الفول ، ويصر عيسوى على ان يسمينى عبد الستار ، أما أمى فيعجبها ان تنادينى بسامى ، وابى يلقبنى بالاستاذ دون اسم آخر ، ومدرس الحساب يتناسى كل هذه الاسماء ويدعونى بالغبى ، ومدرس العربى يتشنج وهو يشير ناحيتى ويقول ... الفالح ، واخى الصغير لا تعجبه كل هذه الاسماء ... سمسم افضل ... هكذا يطلق على ...

كاتى تفضل ان تنادينى بسام ، وانا استجيب لكل هذه الاسماء ، وتعودت اذنى على سماعها وتعودت على الاستجابة لها ، ولم افكر كثيرا ، أول الامر ، فيها كمشكلة ...

وحينما تقدمت للعمل بشركة البترول طلبوا منى شهادة رسمية باسمى الحقيقى ، نظر الى كاتب شئون العاملين فى شك وهو يرى الاوراق التى قدمتها له ، وطلب شهادة رسمية باسمى ...

سافرت الى القاهرة وعدت لاثبت لهم ، بشهادة رسمية ، ان اسمى المدون فى السجلات الرسمية هو محمد فؤاد ، واسم أبى عز الدين الصالح ، وجدى عبده المراكبى ... وبذلك يكون اسمى الذى يجب كتابته فى الاوراق الرسمية طويلا ومملا للغاية ... محمد فؤاد عز الدين الصالح عبده المراكبى ... فقط الاسم ثلاثيا ...

كيف حدث ذلك ؟... حاولت ان أسأل أبى تفسيرا لذلك ، ولكنه كان دائما متعكر المزاج ، مشغولا الى أقصى حد ... بماذا ؟... لا أدرى ، وتناسيت ذلك رغم ان هذا الامر ظل يراودنى دوما ، ويصيبنى بدوار فى رأسى ...

أبى يأتى الى البيت مهموما ويخرج مهموما ، ودائما غاضب

وحزين ، في الصباح يفتعل الكثير من الضجة وهو يستعد للصلاة ، كنت اظل راقدا فى الفراش حتى يخرج ، رغم ان الرغبة فى مغادرته تكاد تزهق روحى ، ويتوضأ ابى فى كثير من المبالغة... يتمخط ويحوقل ويبسمل ، ويسعل ، ويرفع عقيرته ببعض الكلمات المبتورة ، ويسب امى فى خشونة وهى تصب على يديه الماء ، وقبل ان يقف على سجادة الصلاة يعطى تعليمات للغداء أو للعشاء ، واحيانا ، وقبل أن يكبر للصلاة ، يعنفها على بعض الامور تذكرها فجأة ، ثم يؤدى صلاته ويخرج ... واخرج أنا من فراشى بعد ان عانيت من كبت رغبتى فى الصباح ، وتصلب رأسى من وضعه على الوسادة دون الرغبة فى النوم ...

منذ أن رأت عينى معالم دنياى وانا أرى أبى على هذه الصورة ، حتى اننى ـ حينما كبرت ـ تعجبت ... كيف انجبنى اذن ؟... وفى أحد الايام كنت ذاهبا لتأدية امتحان ما ، واستيقظت مبكرا ، رأيت أبى وهو يستحم ، كان عاريا تماما ، متهدل البطن ، جسده المترهل يتكور قليلا ، بدا مثل طفل رسمه فنان ساخر وبالغ فى حجمه ... خرجت مسرعا ...

الشارع بارد فى تلك الساعة ، والصورة لا تفارقنى أبدا ، والرغبة فى القىء تعصر عضلات بطنى ...

تقدمت بأوراقى الى الشركة ، وانتظرت الاختبار كخطوة هامة للالتحاق بالوظيفة ، وراح أبى يتحدث مع سعاة ادارة الشركة ، بل ان بعضهم بدأ يتردد فى انتظام على دكان أبى ، يشربون الشاى ويتسامرون معه ، وخاصة عبد المعطى ساعى مكتب المدير العام ، يحضر كل مساء ويهمس فى اذن ابى ببعض الكلمات ... ثم يجلس أمام الدكان على مقعد خشبى كان ابى يقدمه لأصدقائه ومعارفه حين يأتون اليه فى المساء ، ويظل يقص عبد المعطى ساعى مكتب المدير العام ، قصصا حول أهميته فى الشركة ... لا ينافسه فى ذلك ـ بل واحيانا يتفوق عليه ـ الا عز الدين ساعى مدير المستخدمين ...

ـ يا أبى ، انى أستحق الوظيفة التى تقدمت لها ولا داعى لكل هذا ، انهم لايستطيعون فعل شىء ...

ـ انهم فعلا سعاة ولا يملكون مناصب ذات اهمية ... ولكنهم يملكون ـ بالفعل ـ هؤلاء الذين يحتلون هذه المناصب ...

تشاجرت مع عيسوى ، بدأ عراكنا بالالفاظ ... وانتهى بالايدى ، كان يتهمنى بالجهل والغباء لاننى لا أعرف شيئا من أمور الدنيا ، وانا أتهمه بالخبث والرغبة فى هدم العالم ... شريرا كان ...

ـ نعم أود جمع العالم كله فى كتلة واحدة أسكب عليها الكثير من النار حتى يحترق ، ثم يولد العالم من جديد ، طظ فى هذا العالم ...

اغتاظ وأسبه ... يامخرب ! !

ولكن عيسوى كان ينهى مشاجرته معى بالضحك ، ثم يتركنى ثائرا ويجرى نحو البحر ...

دعوات امى فى الصباح تأتى كنحيب ابدى لامراة فرعونية نقش على جدران المعبد ... « اتون اله الارض الواحد ، نحن نرفع اليك الايدى فى ضراعة ، ونتطلع اليك بالعيون فى حب ، لعلك تتفضل وتهب لنا بعض الخير ، انظر الينا بوجهك الباسم ابدا لعل الريح تأتى فى المساء محملة بأريج الازاهير من الوادى ، ولعل سفن الملك تعود محملة بالخير ، فنشعل لك القناديل ونقيم لك الصلوات صباح مساء ، نحمد لك يارب العالم جميل صنعك » ...

الترنيمة جافة ، جفاف القلب المنزوع ـ من سنين ـ من موضعه والملقى على ارض الشارع تدوسه جياد الحكومات المتعاقبة والوافدة من بعيد ، وصاحب القلب لايرى ولا يريد أن يرى ، انه يدس رأسه بين يديه ويتكور ، والاعوام تمر وهو ما يزال متكورا مهموما لاينظر الى ماحوله ...

الساعى يقول ان الاوراق اكتملت تماما وانه استطاع ان يتحدث مع سيادة مدير المستخدمين حول هذا الموضوع ، ولقد رد سيادته بابتسامة كبيرة وهو يضع يده على كتف الساعى الامين وقال :

ـ حاضر ...

لم تصل البسمة وجه أبى ، ظل جامدا يداعب شاربه فى هدوء ، وظل الساعى يتحدث ...

فى اليوم التالى استدعونى للشركة ، لمحت صفا طويلا ، وقفت فى الصف قلقا اترقب ، ظهر الساعى فجأة ، ابتسمت له ولـكنه ظل متجهما وكأنه احد كهنة رع يقوم بالطقوس المقدسة ، جاء رجل وقاد أول الطابور حيث يجلس رجل آخر الى مكتب صغير يكتب فى انهماك ظاهر ...

مضى الوقت وجاء دورى ... الرجـل يسـجل فى دفتر كبير ... الاسم ثلاثيا ، كتبه الرجل ولم يضحك ... السن ... العمـــل السابق ... لايهم الباقى ... هـذا يكفى ، اذهب الآن ... الى أين ؟ سوف نخبرك بالنتيجة ... ولـكن الاختبار ؟... اختبار ؟ لم تصبح موظفا بعد وتريد أن ترينا كيف نعمل ؟ اذهب وكفى ...

تحركت قليلا وانا اشعر بخيبة الامل ، تلفت حولى ، جذبنى بعضهم لـكى يفسح الطريق لنفسه ، وجـدت نفسى اقف فى بهو ادارة الشركة ، اللوحة المعدنية تلمع فى الضوء ، الـكلمات محفورة وسـوداء تعترض فى تعمـد لمعان المعدن ... مدير المستخدمين ... واللوحة تحتل مكانا ظاهرا من الباب ، دواسة كبيرة وغليظة ترقد اسفل البـاب ، منفضة سجائر رفيعة وطويلة ... ذهبت ناحيـة الباب ، رائحة مبيد حشرى تملأ المـكان ، مجموعة من العمـال احدثوا بعض الضوضاء أثناء دخولهم بهو الادارة وانصرفوا بسرعة فى مصعد كان فى انتظارهم ، انفتح الباب وخرجت سيدة شقراء وخلفهـا مبـاشرة رجل طويل أسمر ، تحدثا بعض الوقت وهما مايزالان على عتبة الباب ثم مضيا فى طريقهما الى الخارج ...

والآن جاء دورى ... وحانت الفرصة ...

لم أستطع الدخول ، كانت الرغبة فى الهرب اقوى من الرغبة فى النضال والمواجهـة وآثرت السلامة ، وأوحيت الى نفسى انه لافائدة من مقابلة هـذا الرجل فلا شك انه هو الذى أراد هـذا ولن تقنعه حجتى التى لا أعرفها .

مشيت نحو البحر لا افـكر فى شىء ، مجرد همهمـة تأتى فى موجات تحيط برأسى قليلا ولـكن سرعان ما تذهب ... جلست بجوار رصيف الشحن ... لايهم ... هنـاك الـكثير من الامور التى تجرى دون معايير او بمعايير لا افهمها ولا أعرفها ، كان فى امكانى أن أقابل مدير المستخدمين وأسأله عن الاختبارات ... ولـكنى لم

أستطع ، الساعى يكفى ولقد تحدث معه فى ساعة صفاء ووعد الرجل خيرا ...

سألنى بعض المارة عن الوقت ، نظرت الى ساعتى ولم ارد ، ولم ينتظروا هم اجابة السؤال ، كانوا يسألون فقط ، ناقلة بترول تسير فى هدوء وكأنها بطة كبيرة تتهادى على سطح بركة ماء متخلف عن سقوط المطر ، أصدر أحد اللنشات صفيرا رفيعا حادا ... ضحك أحد العمال وهو يتناول كوب الشاى من يد زميله الذى لم يحاول ان يسترده ، تركه وجلس القرفصاء ... وابتسم ، قالت المرأة التى تصنع لهما الشاى :

– العمل فى الميناء أصبح فوضى ...

لم يرد أحد ، عادت تقول :

– لقد تغير الزمن ولم يعد الميناء هو الميناء ، كنت لا اجد وقتا للجلوس ، وكانت الطلبات تتلاحق فى كل دقيقة ...

تنهدت المرأة بحزن ...

– والآن انا جالسة كما تريان طول اليوم ...

سب أحد العمال الدنيا ، وبصق على الارض ، وطلب كوبا من الشاى ...

فى حركة آلية صبت المرأة الشاى من الابريق الاسود ... وقالت :

– انت مديون لى بعشرة قروش ...

ابتسم الرجل وقال :

– لايهم ...

حاولت أن أبتعد ، مضيت نحو المدينة ، لم يفارق ذهنى صورة المرأة المتربعة على الارض وهى تقلب كوب الشاى فى تمهل ...

نظر ابى الى وجهى ... قلت لم يحدث شىء ...

قال : وماذا كان يجب ان يحدث ؟...

– لم يختبرونى ، بل ولم يختبروا احدا ...

– ولماذا كان يجب ان يختبروك ويختبروا الآخرين ؟

– لأنهم هكذا قالوا ...

اغمض ابى عينيه وقال :

– أمك تسأل عنك ، لقد تأخرت عن الغداء ...

كان طفل صغير يعبر الشارع ، يلعق قطعة من الحلوى وقد تجمع حول وجهه سحابة من الذباب ، عربة الرش تأتى من بعيـــــــد ، تحلق حولها بعض الصبية ، امرأة تبيع البرتقال وتنادى عليه بصوت نسائى رفيع خال من الجمال ، خرجت امرأة نصف عارية وجذبت طفلا لها كان يجلس على عتبة الباب ، أطلت فتــاة من النافذة ، نافذة الطابق الثانى ، ونادت على بائعة البرتقال ، مضت البـــائعة ولم ترد ، اقتربت عربة الرش ، والاطفال يجرون خلفها ، جـــذب رجل كان يسير بجوارى نفسا عميقا ثم أخرجه بصوت مرتفع ، نظرت الى الرجل ولم أفهم لم يفعل ذلك ؟

عربة الرش اغرقتنى بكمية كبيرة من المــاء ، المــاء بارد وقذر ، وله رائحة كريهة ، ضحكت الفتــاة التى تقف فى الطابق الثانى ، شعرت بالخجل ... كانت ملابسى قد ابتلت تماما ، خرجت سيـــدة من المنزل المقابل ونظرت الى فى ألم ظاهر ، قذفت سائق العربة بمجموعة من السباب واستدارت نحوى ... ياكبدى يا ابنى ... ثم أغلقت الباب وتوارت خلفه ...

مضيت نحو منزلنا ، كنت حزينا مهموما ، منزلنا يقع فى حارة ضيقة أطفـــــالها كثيرون وذبابها أكثر ، ترتفع رطوبة الارض الى الجدران .. لوحات متعاقبة من الابيض والاسود ، منزلنا يقطع ملالة الحارة ببروزه عن بقية البيوت ...

« كاتى » خرجت من المدرسة وتقف فى النافذة ، ضـــفائرها تتأرجح فى الهواء ، فمها يلوك ابتسامة بلهاء ، سيدة فى المنزل المقابل تتحدث الى كاتى ، المرأة بيضاء سمينة ... شهية ، الثوب ضيق يلف الجسد الابيض السمين فى سيولة ونعومة ، ويبرق فى ضوء الشمس ، انحنت السيدة ونظرت الى أسفل ، اعلى الصـــــــــدر أبيض بارز كوسادة العذراء ...

كثيرا ما تخيلت هذه السيدة فى أحلامى ومارست معهـــا الحب بكل اشكاله ، ويمتلىء رأسى بالتصورات أثناء الليل ، وفى الصـــباح أراها وهى تنظر الى باهتمام وتبتسم فى دلال ...

اقتربت من مدخل المنزل ، صـــاحت السيـــدة البيضـــاء ترحب

بى ، كنت اخافها وكلما نظرت اليها شعرت بالخجل والرهبة ، ورغم هذا كنت استحلب صورتها وانا راقد فى فراشى بكثير من اللذة ...

هربت بعض الدجاجات ... كانت تلعب فى سعادة أمام المنزل ، خرج طفل من الباب مسرعا وخلفه امرأة تسكن بجوارنا ، لم أحاول ان اتحرك لأتفاداها ، صدمتنى فى صدرى بعنف ، شعرت بالالم ، صرخت كاتى ... وقالت اننى فقدت عقلى ... لم أرد ...

باب شقتنا مفتوح ، بلاط الصالة أبيض واسود فى تكرار ، لوحة كبيرة للشطرنج ، التحدى البطولى للتفكير الانسانى ، البلاط ما تزال عليه قطرات من ماء تلمع ، المقاعد مقلوبة ، طنين وابور الغاز يصنع خلفية لملحمة الألم الابدى لبيوتنا ، أصوات بعض الاكواب تسقط على الارض ، صوت أمى الغاضب ، أخى الصغير لايريد أن يسكت ...

وقفت حائرا فى أول الصالة ، أخى يصيح بشدة ، أمى تنهره ، سيدة من الجيران تدق على الباب بعنف ، باب الشقة مفتوح منذ الصباح ولم تدخل السيدة ، أمى تصرخ وتسب نفسها ... وتدعو على أخى الصغير بالموت ، السيدة التى تدق على الباب مازالت ، خرجت أمى من المطبخ مشعثة الشعر ، قذرة الثياب ، ملطخة الايدى ببقايا عجين ، وتحمل كوبا فارغا ، اندفعت نحو الباب ، تبادلت التحيات والقبل فى سرعة ... قالت السيدة القادمة كلمات كثيرة مرة واحدة ، حاولت أن اتحرك ، نادت أمى ، نعم ... قالت السيدة القادمة بعض الكلمات همسا ، استدارت أمى وصاحت :

ـ ادخل غرفتك ولا تقف هكذا مثل التور ...

تحركت ، سقط مقعد كان موضوعا على المائدة ، سبتنى أمى فى غلظة ، حاولت رفع المقعد وسيل العرق البارد يجرفنى ، نهرتنى أمى مرة أخرى وأمرتنى ان أدخل غرفتى بسرعة ، وددت ان أسبها ، ان أثور فى وجهها ، ان أقذف بالمقعد فى وجه تلك السيدة التى تحادثها أمى ... سمعت صفير عيسوى ... تنبهت حواسى ، أمى تلوك بعض الكلمات فى فمها ، دفعت باب غرفتى فى ضيق ، فتحت النافذة ونظرت الى الشارع ...

كان عيسوى يقف وهو يتحدث الى كاتى ، ضحكا معا ، خرجت من الفرفة ، مسرعا . اندفعت من باب الشقة ، دفعتنى السيدة التى تحادث أمى فى عنف وصاحت :

ـ مجنون هذا الولد ... ولدك مجنون ...

رحت أقفز السلالم وانا أسمع صراخ أمى مختلطا بنحيبها ، هواء الشارع بارد صدمنى ، ايقظ رغبتى فى العدو ، رحت أجرى ومن خلفى أسمع نداء كاتى وعيسوى ، ولم أتوقف الا عند نهاية المدينة ...

وفى خارج المدينة ... جلسنا نقص حكايات ذلك المارد الذى مات من زمن بعيد ، ولا يريد ان يصحو ...

العودة الى الملمح الأول :

أتينا باب المستشفى ، وكنا — انا وكاتى — قد قررنا الالتحاق بالعمـل فى المستشفى ولم نفكر كثيرا فى طريقة الالتحاق أو نوعية العمـل أو الاعمـال التى يمكننا القيام بها فى مستشفى عسكرى ، وليس لدينا خبرة كافية فى هذا المجال ...

توقفت على السلم ، كانت الحركة نشطة ، وقف جنـــدى فى أول السلم ، يبـدو انه نائم ، صـعدت بعض الدرجات ، الالوان امتزجت أمام عينى ، تسرب اللون الاحمر وغطى المسـاحة التى تمتد أمامى ، شعرت ان العالم يسقط ، هبطت الدرجات مرة أخرى ، الدرجات التى صعدتها فى التو ، فـكرت كثيرا فى أشياء طيبة ... وعدت حيث بدأت ...

كان الجو صحوا ورياح البحر تأتى محملة بالذكريات ، وطعم الملح واليود يساعد على جريان الذكرى أمام العين المجهدة ، جلست أنا وكاتى على حجر أبيض فى العراء ، تمنيت أن يمر اليوم بهدوء ... دون غارات ...

عوى تيجر فى كسل ... نظرت الى وجه كاتى ، استدارت ونظرت فى عينى لحظة ، شعرت بالارتباك ، عادت الى جلستها ثانيـة ، استدارة ظهرها تتقاطع مع يديها الممدودتين الى الامام فى ضراعة ، الشعر يتدلى فى استكانة على منحنى الظهر ، الاذن اليمنى تبـدو بيضاء وسط كتلة الشعر الاسود ، والخد الايمن يخفى الجزء الاكبر من الانف ، الصدر يبرز فى تواضع تحت القميص الخشن ...

أثارتنى هـذه الجميلة ، لقد اكتشفتها فجأة فى هـذه اللحظة ، انها امرأة رائعة تلك التى امتلـكها ، وضعت يدى أتحسس ظهرها انساقت يدى مع استدارة الظهر ، اصطدمت يدى بحزام البنطلون ،

ترددت ... اخترقت الحزام ، رحت أتلصص بأصابعى استدارتها الاخرى ، لم تتحرك ، اذنها اليمنى صارت حمراء ، اقتربت وقبلتها أعلى الاذن الملتهبة ، سحبت يدى ، داعبت نبت الشعر ، ناعماً أملس ... شعر حبيبتى التى بجوارى ، امتلأت جيوبى الانفية بالهواء ، حاولت أن أتنفس ، كانت المحاولة صعبة ...

يدى اليمنى تتدلى بجانبى ، لم اكن قد فكرت فيها من قبل .، انفصل عقلى عن يدى اليسرى التى تداعب منابت شعر حبيبتى... اشعر بالحرارة المتدفقة فى جسدى كذبذبات سريعة تسرى فى ومضات كهربائية تأتى على فترات متقاربة ، وضعت يدى اليمنى على وجهها ، رحت أدور حول الوجه ، كان باردا ومتشنجا ، عبرت الوجه الى أعلى العنق ، تحسست الرقبة الممدودة فى توتر، مشيت بيدى عابرا أخاديد صدرها ، يدى تغوص فى وهاد رقيقة ، لم أحاول ان أتحرك أكثر من ذلك ، وجذبت يدى ، رفعتها الى الوجه مرة أخرى ، تحركت كاتى فى ملل ، سحبت يدى اليمنى ، تنبهت الى ما تفعله يدى اليسرى ، سحبتها هى الاخرى ، لم أجد ما افعله بيدى ... رفعتهما الى أعلى ، ثم خفضتهما الى أسفل ...

ارتباك غامض مشوب بلذة تأتى كشعور بالحمى ، اعراض مرض النقرس تسرى فى أسفل عمودى الفقرى ، خدر مؤلم أحسه فى قدمى ، وقفت ، لم استطع السير ... جلست مهمودا مرة أخرى ، حلقى جاف ، طنين ممزوج بحشرجة فى انفى يلف رأسى ، الشعور بالحمى يزداد حدة ، هناك انفصال بين رأسى وعقلى ، حاولت أن أتذكر بعض الاشياء ، تدور فى عقلى بعض الافكارحول صلب المسيح، انتحار ميشيما الروائى اليابانى ، مقتل كيندى ، آلام الحسين ، موقعة كربلاء ، غزوة بدر ، مقتل عثمان ... وهروب أحد السجناء فى العام الماضى ، رأسى يدور فى الهواء ويتمايل دون اتزان أوتناسق، فجأة راح عقلى يطفو فوق الالوان الداكنة حتى صعد الى اللون الابيض وبدأ عقلى يصفو ... ونمت فيه الافكار متدفقة فى سهولة ويسر ، وتتوارد عليه الرؤى والتصورات فى سيولة عذبة ...

عندما تأتى نجمة الليل ، اشعر وكأن العالم اصبح ملكا خاصا لى ، اطوف فيه ، متنقلا من أعماق بحاره الى قمم جباله ، من

خضرته الداكنة الى صفرة رماله ، واصرخ من النشوة ، ولـكن احيانا ما ينتفض عقلى اثر نوبة من التوتر الفورى تأتى من اطرافى المتبلدة ، وتتشنج عضلات جسـدى فى تقوس حركى ولـكن بلا استجابة حقيقية للحركة ...

– أشعر بصداع ...
– وأنا أيضا ...
– كاتى ... لم أعد أحتمله ...
– وأنا أيضا ...
– اذن ماذا نفعل ؟...
– ما يفعله الناس ...
– الناس فى بلادى لا يفعلون شيئا ...
– ولـكنهم يقولون كثيرا ...
– اذن نفعل كما يقولون ...
– لا يستقيم الامر ...
– اذن نفعل كما يحلو لنا ...
– وما الذى يحلو لنا ؟ ...
– أن ... نفعل ... أن نتحرك ... أن نزاول ... ان ...
– ولـكنى أخاف ...
– الخوف فى الخطوة الاولى فقط ...
– الخطوة الاولى فقط ؟ ...
– نعم ... فقط الخطوة الاولى ...
– وماذا بعد الخطوة الاولى ؟ ...
– الخطوات الاكثر توفيقا .
– واذا فشلت الخطوة الاولى ؟ ...
– نعيد التجربة ...
– ولـكن ... نـكون قد فقدنا الشجاعة ...
– الشجاعة ليست شيئا يفقـد ، بل هى فـكرة عامة يمكن استجلابها من خلايا المخ ... ممكن استنباتها ...
– ومع هذا فأنا أخاف التجربة ...
– ألم أقل لك من قبل ... اننا دائما نقول اكثر مما نفعل ...

ارتطم حجر ابيض تدحرج من حائط متهدم بالحجر الذى نجلس عليه ، وقفنا فى فزع ، انتصب تيجر واقفا فى تحفز وادار رأسه فى كل اتجاه ، مضت لحظات ، رأينا الحجر يستقر بجوار الحجر الكبير فى هدوء ، عادت عضلات تيجر المتوترة الى سيولتها ، تحركنا نحو البيت ، كنت اشعر بالرغبة فى النوم ، والم فى فخذى اليسرى ، وكانت كاتى تتحرك بصعوبة وهى تلهث قليلا وتشكو الما فى صدرها ...

عيسوى كان يشكو من ضيق فى التنفس ، وفى بعض الايام كان يسعل بشدة ، رغم حبوب الدواء التى اخذها من ممرض فى المستشفى الاميرى ، وفى المساء كان يجرى نحو البحر ويكرر مافعله فى كل مرة رغم سعاله الشديد ، ويرتمى آخر الليل تائها وسط هذيان الحمى ، يصيح ... الفول يأكل الصفار ... النمل الابيض بعض بنات الحارة ، والقردة تنمو وتزداد شراسة وتطارد النساء ، الوحش القادم من ارض الشمال ، يرتدى زى رواد الفضاء يلهث من الجوع ...

اكواب الليمون لا تنفع ، والطبيب لاياتى الى البيوت فى هذه الناحية ، لانه لا ياتى الى بيوت الفقراء ، والأم ماتت من زمن ، عيسوى يسعل بشدة ويهذى بكلمات مضحكة ، الجو الخانق المبلول برذاذ السعال يكتم الانفاس ... حاولت الهرب ...

دخلت سيدة عجوز من البيت الآخر، تضع على رأسها شالا احمر، دقت صدرها بيدها ... مضت شفتيها وقالت ... رأسه مفتوح ولابد أن يغلق ، احضر مفتاحا ، ما اسمك ؟... آه ... انت زميله ، لقد عرفتك ، انت ابن المراكبى ... سيدة عجوز تثرثر فى بلاهة ، لابد من الهرب ، ارتفع صوتها ممطوطا ومتحشرجا ... نعم جدك عبده المراكبى ، اخذت نفسا عميقا وشهقت بصوت عال ، انتابنى الاحساس بالضيق والقرف ، عادت تلهث وهى تقول :

ــ كنت صبية غندورة ، حينما كان جدك شابا يتأرجح فوق المراكب ... مراكب الصيد ... كان جميلا حلو البسمة ، وكان يغنى فى الافراح ، طروبا خفيفا ... كانت تلهث من حوله عيون الفتيات... والنسوة ...جلست بجوار عيسوى ، اخذت برأسه فى حضنها ، استدارت نحوى وقالت :

— احضر مفتاحا اكبر من هذا ...

لم أتحرك ، نظرت اليها ببرود ، عادت تقول :

— انت غبى ؟... راسه مفتوح مثل البحر ، وانت تقف مثـل
الدفة المـكسورة ، اذهب قلت لك ...

هذه العجوز ستملأ رأسى بخرافات الشيخوخة ، تحركت ...
انت السبب أيها الصديق الارعن ، عادت تعصر راسه وتحكى :
— جـدك أحب عروس البحر ، وحينما تزوج قتلتـه ... انت
لا تصدق هه ... تضحك ، امسك جيـدا ، لقد افسدكم العلم فى
المدارس ، نعم قتلته ، كان واقفا على صنـــاديق السمك فى آخر
الليل ... خرجت اليه ونادته ... قال لها انه سيأتى فى الغد ... كانت
تعرف انه يخدعها ، جذبتـه اليهـا ، كان القمر يزهو بنوره فوق
المـاء ... كان يتلألأ مثل تيجان العرائس ... آه ... غطس المسكين
وغرق ...

شعرت بالحزن والأسى لجدى ، ورغم عدم تصديقى لقصة العجوز،
لم يخبرنى احدهم بذلك من قبل ، جدى مات !... قبل ان أولد...
عادت تقول :

— انهم هناك فى المدارس لا يقولون لـكم شيئا حقيقيا ، مجرد
كلمات لا معنى لها ، انتم ...

ما الذى يجعلك تنظر الى هكذا ؟

نعم غرق فى المـاء أمام الرجال ولم يستطع أحد منهم ان يتكلم ،
عادوا جميعا الى بيوتهم وقصوا كل شىء لزوجاتهم، صرخت النساء
من اللوعة ... ومن يومها والنساء تخاف البحر ... انت تملك يدا
ناعمة ، ملساء لا تصلح لشىء ياويلك ياسويس من اصحاب الايدى
الملساء ، يقولون ...

ماذا يقولون ؟ ... لقد جرفنى التيار مع هذه السيدة العجوز ،
يجب ان اذهب ، ولـكن الى أين ؟ ...
عادت تقول ، وهى تلهث :

— يقولون ان جدك تزوج عروس البحر وعاش معها فى القاع
لقد تحول بفعل الزمن ، آه الزمن يحول كل شىء ، كانت زوجته
حاملا ، امسك بالمفتـــاح تعبت رأسى ليس هكذا ، بل انظر الى
ما أفعله ...

لم اعد اقدر على تحريك يدى اكثر من ذلك ..

- انجبت ولدا واحدا ، لقد تناثرت حبات العرق على جبينك من مجرد ادارة المفتاح ، لم يعد هناك شباب .. بل اصبحتم مجموعة من علب الورق ، رقيقة وجميلة ولكن لا تستعمل الا فى ايقاد النار ، خسارة .. البلد لم يعد بلدا ، والناس لم يعودوا بشرا .. بل مجرد ذباب ، امسك اذنه .. هذا الكلب الأجرب ، لا تتحرك كثيرا ، امسك اذنه جيدا ، سأضع له هذا الماء الملح الممزوج بماء البصل ، لا تخف سيعوى كالكلب النجس وبعدها ينام كمركب قديم ملقى على الرمال وفى الصباح يكون عفريتا ..

ذهبت العجوز ، راح عيسوى فى غيبوبة ، تذكرت وجه امى الحزين ... عدت ...

- اين كنت ؟

- فى الدنيا ...

- لم تكن هناك دنيا ...

- بل ستظل هناك دنيا ...

- ونحن ؟

- نموت ...

« كاتى » تشعر بالضيق ، وانا كذلك ، الليل اقترب ولم تحدث غارة ، اشعر بالرغبة فى الخروج من جلدى ، أود ان أتناول فأسا واهدم جدرانى ، ابحث عن شىء ، ابحث عن وجود حقيقى مختفيا داخلى ...

- ياسويس ... مهندس الانارة نائم ...

- ومتى يستيقظ ؟ !

« كاتى » تمددت فى استرخاء ، سقط الكوب من يدى ، تحطم فى دوى عال ، قامت كاتى فزعة ، تنبهت الى ما حولى ، نبح تيجر بشدة وجرى ، طلقات سريعة من مدافع مضادة الطائرات... غارة جديدة قرب المساء ، الدور الارضى لا يعطى الحماية الكافية ... ولكن اين نذهب ؟

الموت يأتى من كل مكان ، القصف الجوى يشتد ، المدفعية ترد تتناثر قطع الزجاج على ارض الغرفة ، تبدو قاعدة الكوب

المهشمة وهى تقف وسط قطع الزجاج المتناثرة كطلل قديم تهدم من زمن ، صرخت فى عصبية :
ــ ... ... ! !

لم يخرج صوتى ، كنت راغبا فى مداعبة كاتى ، اود ان أقول لها شيئا مسليا ... لم أفعل ، اكتفيت بالنظر اليها ، نظرتى كانت باردة وفاترة ، خرجت كاتى متشنجة وهى تبكى ...

كنت ارغب فى اللحاق بها ولكنى لم افعل ، جدران المنزل المجاور من الاحجار الجيرية ، سقط السقف وبقيت الجدران ... وجدت عروسة صغيرة مهشمة بين الخرائب ... بصقت على الجدران واستدارت ، الزمن يبدو ثقيلا ... عادت كاتى فى صمت ، اشعر بالجوع ... قلت :

ــ أريد ان أنام ...

لم تجب كاتى ، نظرت اليها فى دهشة ، كانت تقف وسط الغرفة معطية ظهرها لى ، قذفتها بقطعة زجاج من بقايا الكوب ، ابتعدت خطوتين ...

قلت :

ــ أريد ان أنام ...

الانفجارات من حولنا تستمر فى عنف ، العالم يتهدم ، تسقط كل الاحجار فى دوى رهيب ، صحت :

ــ العالم يحترق ، والناس يموتون ...

لم تتحرك كاتى من مكانها ، مللت جلستى... تحركت ... هب تيجر واقفا ، تمنيت ان أموت ، مشيت حتى الباب ، هالنى الصمت والظلام فى الخارج ... رأسى يدور ، ارى الناس يتحركون ، يتجمعون من كل مكان وينظرون الى السماء ، ينحدر من الاسطح اعداد غفيرة من البشر يتجهون فى صمت نحو القبور ... القبور المظلمة ، يندفع البشر بسرعة ويختفون بسرعة فى القبور ...

تراجعت الى الوراء ، قدمى تعثرت بقطعة زجاج ، قلت :

ــ أريد ان أموت ...

تحركت كاتى عدة خطوات دون هدف ، ران الصمت ، لم استطع التحرك ، وددت لو ان السماء تمطر ، قلت :

— كاتى ، انا ...

كنت ارتعش واسنانى تصطك بعنف ، حاولت ان احرك فمى ، حلقى جاف ، الم حاد اســفل بطنى ، رايت لونا احمر يتوهج للحظة ويختفى ، صرخت فى ضراعة :

— أريد بعض المـاء ...

لم تتحرك كاتى ، يبــدو ان صــوتى لم يخرج من فمى ، جلست القرفصاء ، معدتى خاوية ...

وقفت ، ذهبت حتى كاتى ، وضعت يدى فوق كتفها ، جسدها حار دافىء ، استدارت فجأة ، كانت تبكى ، أخذتها بين أحضانى ، صدرها يعلو ويهبط ، لمت شعرها بيــدى ... ناعم الملمس اسود اللون ... لثمت فمها بقبلة سريعة ، تمالـكت نفسى وشـــعرت بالزهو ... شفتاها باردتان مبللتان بدموعها ، رحت أهدهدها بحنان

تهاوت حصون الجبل الاسود ، واندفعت الدماء الحارة تملأ أخاديد الرغبة الجائعة ، الخد الاحمر القانى الملتهب يلمس خدى ، هى ما زالت تبكى ، أمى ... سأحطم كل الجدران ، ياسويس... كم أنت رائعة وعظيمة ، ملعونة تلك الاشـــياء غير الحقيقيه ، احتضنت كاتى بقوة وشعرت بالنشوة ...

ماقبل العام الأول :

فى رحم المراة حيث تولد كل الرغبات متساوية القيمة مجهولة الاسم ، بتكون الرجل وتتكون المراة ... يتكون البشر ، ويتكون كل هذا العالم ...

وتظل مكونات التكوين البشرى تنمو فى سيولة داخل هـــذا الـكيس الشفاف الذى يأخذ شكل الارض ويتكور ، ثم فجأة ينفجر الـكيس ليخرج الى العالم طفلا ممتزج الرغبات ، ملعون النظرة من العالم قبل ان يقدر على فتح فمه ...

كنت فردا واحدا ولـكنى كنت العالم كله ، كنت الخير والشر كله ، وكنت اعشق نفسى ، وعلى موعد دائم معها ، ولم تغضب معى ولم اغضب معها مطلقـا ، كانت تهيم بى واهيم بها حبـا وعشقا غير محدود ...

تدفعنى الرغبة فى الانطلاق اثر نوبات الحب الهائلة الى ان أدور فى عالمى الواسع ، اطوف بتلك الشجيرات المرتفعة والتى يأتى منها المـاء معطرا رائقا ، احيـانا اعبث بها واحيـانا أقف مشـــدوها لاهث الانفاس أفـكر فيهـا ، ويلعب الريح بأفرع الشجيرات لتدور فى دوائر ، ويتصـاعد صـوت المـاء تضربه الريح الشــــديدة فيصور جوا أسطوريا أحس به وانتشى من السعادة ..

كان هـذا عالمى ... رحبـا ، مجهولا من كل البشر ، كنت أفكر فى كل شىء تفكيرا نقيا صافيا ، وكان عقلى يصور لى أشياء جميلة

عالمى وحـده هو الارحب والاوسع ، والعوالم الاخرى — ان وجدت عوالم اخرى — فستكون ضيقة ومظلمـة ، والخروج من عالمى يعنى الموت ولهـــذا كنت اخاف الخروج من عالمى ... كنت اخاف الموت ...

أحيانا كنت أحلم ، نعم ... كنت احلم بأن العالم الآخر مظلم دائما وكريه ولا خير فيه ، واشعر بالخوف يعتريني وانا اتصور مواجهتي للحظة الخروج الى العالم الآخر ...

والاحلام تنتابني في الليالي الطويلة ، حيث تعم الزرقة جو عالمي وأشعر بالرغبة في الرقاد والراحة ، وينساب حولي وداخلي سحابات زرقاء عطرة ، تموج فيها الرؤيا والاحلام ، كمراكب بيضاء تمخر الزرقة في لطف وسهولة ، وارى من خلالها صورا وأشكالا جديدة وغريبة ومتنوعة ، وبعضها يصور لي ان العالم الآخر لا يقل جمالا ورحابة عن عالمي ، وتدفعني الرغبة في الخروج الى الحركة ، فأصحو فزعا ، اتحسس مكونات عالمي في شوق وأمطرها بابتساماتي التي لا تنتهي ...

وفي ذات صباح سمعت دقات عنيفة تصدر من أماكن متفرقة ويبدو أنها قريبة مني . شعرت بالخوف ، حقيقة ان عالمي كثيرا ما يتعرض لهزات عنيفة يصعب تعليلها أو مجرد تخمين مصدرها ، ولكن كان توتري يزول بزوال هذه الهزات ، وأعود سريعا للتفكير فيما كنت أفكر فيه من قبل ، ولكن هذه الدقات العنيفة التي توالت من أماكن متفرقة جعلتني اشعر بالرعب ... حتى بعد أن انتهت الدقات وتلاشت ...

كانت الافكار التي احاول صياغتها في عقلي تبدو أحيانا معقولة وأحيانا اخرى تافهة وعديمة القيمة ولا يسندها أساس من المنطق ، وأحيانا أعتقد عكس ذلك بدليل هذه الهزات التي تأتي على فترات مختلفة التوقيت مما يوحي بوجود الكثير من الاعداء حول عالمي قادمين من عوالم أخرى يتحزون الفرصة للانقضاض على حرية عالمي الخاص والفتك به ...

وهكذا كانت تنتابني الافكار مزلزلة استقراري النفسي ، حتى انها تدفعني للاعتقاد بعدم صحة عقلي وتوازنه ، ويجعلني هذا حائرا ومشتت الفكر ، وكثيرا ما أثور وأتحرك في هياج شديد محاولا تحطيم ماحولي ، ولا أعود الى حالة الهدوء الا بعد فترة طويلة ، واحلامي ، ايضا ، في هذه الايام حزينة وكئيبة ... مما يجعلني كثير التفكير في مستقبلي ، وحيث انني لا أملك أية أدلة

استطيع بها اثبات صحة أو عدم صحة ظنونى ومخاوفى ، فاننى سأظل مهددا وخائفا من المجهول ومن تلك الافكار التى تراودنى دائما …

الخروج من العزلة يبدو هو الطريق الوحيد للخروج من قبضة الافكار السوداء … ولهذا فاننى افكر جديا فى الطريقة التى تجعلنى اكتشف حقيقة العالم الذى أعيش فيه ، ولو أمكن — أيضا — اكتشاف حقيقة وجود عوالم أخرى شبيهة أو متناقضة لعالمى …

وبمرور الايام ، والليالى الطويلة ، وبزيادة نوبات القلق أصبحت على الرغم من رحابة عالمى ، أضيق به ، وبدات أحس بالتعاسة والوهن يلازماننى فى كثير من الاحيان ، وتحولت رحابة عالمى الى تيه يموج بكثير من حبات الرمال غير المتناهية فى العدد …

وانطلق احساسى بالضيق مهددا ذلك الهناء الذى كان يحوطنى، جاعلا منى ذلك الكائن الغاضب أبدا على كل الاشياء ، الساخط أبدا على كافة مكونات عالمى ، ومن السخط والكآبة انطلقت أفكارى التعسة والتى تدور حول رغبتى فى الهجرة لاكتشاف سر الكون…

الكون … ذلك العالم السحرى الذى أستشعره ولست متأكدا من وجوده ، يشغل فكرى ، ويحير لبى ، ويسهد مضاجعى ، رغبتى الملحة فى اكتشافه …

وتتضخم رغبتى فى اكتشاف الكون يوما بعد يوم ، واضيق بنفسى وبعجزى الفاشل وبخنوعى المميت لتقاليد عالمى النرجسى الضيق ، ويتحول وجودى فى عالمى سجنا ممقوتا وكريها أود التحرر منه ومن أسره ، أتلمس العون من أية جهة ، ولكن لا مجيب ، اتخبط فى وحدتى ، اهتديت الى فكرة ما الجأ اليها فى أوقات الضيق وما أكثرها ، تصورت ان هناك كائنا ما ، أو قوة ما تسمعنى وتحزن من أجلى وتستعد لمعاونتى ، وحاولت ان أحدد شكل أو معالم هذه القوة فلم أستطع ، ولكنى استرحت الى ذلك كثيرا ، وعندما تنتابنى الهواجس والظنون ، أرقد مستسلما مغمضا عينى اناجى تلك القوة واناشدها ان تأتى … وتداعبنى الاحلام فى غفوتى ، وتأتى قوارب النجاة لتأخذنى حتى بر الامان…

ولكنى اصحو على واقعى المر ، اهتز فى ثورة قلقة ، اتمنى ان اثور ...

حتما سيأتى ذلك اليوم الذى ينفجر فيه عالمى ، وأندفع انا وبقوة لا أملك لها ردا نحو العالم الآخر ... عالم الموت والنهاية ...

ــ كاتى العالم كله وحدة متكاملة ، اليس كذلك ؟

ــ لا ... انها عوالم كثيرة ... كثيرة جدا ومتنوعة ولا رابط بينها...

ــ ولكنها متداخلة الى درجة كبيرة ...

ــ ها ... انت دائما تتخيل أشياء ليس لها وجود ...

ــ ولكن لابد ان هناك تداخل ما لهذه العوالم والا ...

ــ لا تخف ... لن تتضارب هذه العوالم ابدا ...

ــ كاتى ... احبك ...

ــ وأنا أيضا ...

ــ لابد ان نخرج معا من هذا العالم الى عالم افضل ...

ــ يجب ...

ــ حتما ...

صورة ليست يقينية الحدوث :

فى الصباح كان الجو من حولنا يوحى بالبرودة ، وكانت الشمس على وشك الشروق من سيناء ، رياح البحر محملة بالندى ، رذاذ من المـاء يلفح الوجه ، انكمشت داخل نفسى باحثا عن الدفء ، كاتى تتحرك فى كآبة ، ترددت بعض الوقت ثم دلفت الى فراشى ... وتمددت عليه ، شعرت بألم فى قدمى اليسرى ...

كان القمر لايزال فى السماء حينما جلست بجوار عيسوى ، وعيسوى يعشق القمر ، صحت :

ــ الدنيـا برد ...

زجرنى بقسوة ، وطلب منى أن اكف عن التوجع ، ولـكن رياح البحر الباردة كانت تهب من أسـفل وتعصف بقدمى اليسرى ، نظرت اليه فى غضب وذهبت بمفردى ... ولـكن حينما جلست بعد ذلك فى حجرتى اكتشفت وحدتى وشعرت بالحزن ...

مالت كاتى نحوى ، وقالت :

ــ أشعر بالجوع ...

لم ارد ، كنت انا ايضا أشعر بالجوع ، الفئران أكلت نصف الرغيف المتبقى من أمس ، نظرت الى سقف الحجرة وتصورت أيام السلطان ... ورحت أرسم فى ذهنى احداث أيام لم أعشها ...

تململت فى رقدتى ... طوحت بقدمى اليسرى فى الهواء ، كانت ثقيلة وتؤلمنى بشدة ... دخل شخص أعرج وصـفر بفمه ، نظرت ناحيته وانا أحاول ان أصحو ، كان ينظر الى كاتى فى شراسـة شـهوانية ، حاولت أن أفيق من أحلامى ... ولـكن أحداث عصر السلطان الاعرج طاردتنى ، قذف الرجل الاعرج بجسده ناحيـة كاتى التى ابتعدت بسرعة فسقط الرجل على الارض ، ارض الغرفة

ملئت ببقايا زجاج مكسور تناثر عليها ، انفرست شظية زجاج فى يده اليمنى ... صرخ فى وحشية :
ــ ياملعونة ...

السلطان يحاول ان يضرب الجارية ، جارية الخليفة المقهور ، والجارية تحاول ان تتجنب ضرباته ، حاول الرجل الاعرج ان يقف ، قذفته كاتى بقدمها ... ارتمى مرة اخرى على الارض ، كان مثل الذئب الجريح يحاول ان يسترد بعض كرامته وشهرته كذئب ، تناول قطعة زجاج وقذفنى بها ، ضحكت فى سخرية ، السلطان يحاول ان يهزأ من الخليفة ، ولكن الخليفة لا يكترث بذلك بعد سقوط بغداد واعدام مكتبتها الشهيرة فى نهر الفرات ...

تكوم الرجل الاعرج على نفسه ... وحاول أن يفهم مايدور حوله ... وقفت ، كفارس هلالى منتصر ونظرت اليه بحنق :
ــ جبان ... ما اسمك ؟ ...
ــ جابر ...
ــ ماالذى أتى بك الى هنا ؟...
ــ جائع ...
ــ ولماذا لم تهاجر ؟ ...
ــ لا أهل لى ...
ــ ما الذى تعمله هنا ؟ ...
ــ لا شىء ... كنت احيانا اشتغل بالتجارة ...

جلست ، رائحة الكحول تنبعث من فمه بشدة ، ركلته بقدمى وقف وهو يحجل بقدمه السليمة ، اقترب الرجل من كاتى، وقال :
ــ جائع ...

هذا الرجل يكذب ، انه يبدو مثل قاطع طريق ، صحت فيه :
ــ انت لص ...
ــ قلت لك ... تاجر ...
ــ تاجر مسروقات ...
ــ مسروقات ... ؟!

علامات الدهشة يرسمها بغباء علىجبهته ، يحاول ان يقلد القرد...
ــ المسروقات التى تستولى عليها من المدينة المنهوبة ...

صاح فى ذعر مصطنع :
ـ ولـكنى لم اسرق شيئا ...
ـ يارجل ؟ ! ...
ـ اننى اجدها فى طريقى ، اننى انقذها من التلف والتخريب ...
ـ حقا ؟ ! ...
ـ هل اكذب عليك ؟ ...

على وجهه علامات الطهر والعفاف والبراءة ؛ لا ... لم تـكذب بعد ، يا لص المدائن ودودة الحروب والـكوارث ...

عادت كاتى ، نظرت الى الرجل فى ازدراء ، انطوى على نفسه ، ظلت كاتى تنظر اليه فى تحد ، صاح الرجل فى انفعال :
ـ أريد طعاما ، أشعر بالجوع ...

لم يرد على صيحاته أحد ، كنا ـ انا وكاتى ـ مثل غريقين فى بحر لا شاطىء له ، وكنا ننتظر ان تأتى معجزة من مكان ما وتنقذنا ، ولهذا كانت أفكارنا تدور فى دوامات عنيفة حول أشياء لا وجود لها ...

كرر الرجل الاعرج صياحه حول الطعــــام ، شعرت بالغضب يتسرب الى فمى فبصقت عليه ، كف الرجل عن صياحه فترة ... ولـكنه ما لبث ان كرر صياحه فى هياج شديد :

لم نـكن نملك ما نقدمه لهذا المأفون من طعام ، كما كنا نحن ايضا جوعى وفى أشــد الحاجة الى طعام ، ولهذا تركناه يصرخ كما يشاء طالبا الطعام ولم تواتنا الشجاعة لاسكاته او طرده ...

امى كانت تصرخ وهى تدور حول مائدة الطعام :
ـ اننى اشقى طول اليوم فى اعداده من أجلـكم ... اننى احرق فيه أعصابى لـكى يكون شهيا وجميلا ... ثم لا أحد يأكله ؟...
ـ ولـكن يا أمى اشعر بالشبع ولا أريد المزيد ...
ـ المزيد ، المزيد من ماذا ؟ ماذا اكلت حتى يـكون ما اقدمه لك مزيدا ؟ ! ...
ـ انا ... ...
ـ كفى ، تود ان تجرى مثل الشيطان فى الطرقات ... هــذا هو طعامك ...

وتضع أمى الاطباق على المـائدة فى عنف وتقول بعض الكلمات :
ــ كاتى ، هل لدينا ...
ــ لا ...
ــ لم أكمل جملتى ...
ــ لاداعى ...
ــ وما العمل ؟ ...
ــ لا شىء ...

الرجل الاعرج كف عن الصياح ، نظر الينا فى دهشة ثم انفجر ضاحكا فى جنون ، كان فمه خربا ومشوها ، وراح لسانه ــ وهو يضحك ــ يتحرك فى تقلص ، ركلته فى بطنـه ولـكنه لم يكف عن الضحك ، اندفعت كاتى نحوه تركله هى الاخرى بعنف ، ولـكن الرجل ظل يضحك فى شراسة ...

عيسوى كان يضحك مثل فقاعة الصـابون ، ينفجر ضاحكا ثم يتوقف عن الضحك فجأة وعيناه تدوران فى رعب وكأنه ارتـكب حماقة ويتحرك على الفور :
ــ عيسوى ...
ــ هه ...
ــ ماذا بك ؟ ...
ــ لا شىء ...
ــ ولـكنك ...
ــ اصمت ...
ــ ولـكنى ، فقط أريد ...

ويجرى عيسوى ، يهرب الى مكان ما لا أعرفه ، ولم اعرفه ابدا ... اظل أبحث عنه فى كل مكان دون جدوى ، وبعد سـاعات يعود باسما سعيدا ، يتحرك بحيوية وهو يسعل بعض الشىء ...
ــ أين كنت ؟ ...
ــ فى الدنيـا ...
ــ وماذا كنت تعمل فى الدنيـا ؟ ...
ــ كنت اغنى :
السيد الذى جلس فى المساء ...

انى أعلم متى يعود …
وسوف افرش الميناء بالورود …
واجلس منتظرا عودته … …

ــ اجلس ياعيسوى … سوف اقول لك شيئا هاما …

حملق الرجل الاعرج فى كاتى وهى تركله … وكف عن الضحك ، كانت نظراته تحمل عتابا صادقا ، كفت كاتى عن ضربه ، توقفت تماما ثم شهقت بالبكاء ، حاولت ان أقول شيئا ، لم أقدر، تحرك الرجل الاعرج نحو الباب ، وقال :

ــ هناك طعام فى مكان ما من هذا العالم …

اختفى ، وبعد لحظات سمعت سعالا حادا يأتى من الشارع ، اندفعت لأرى من يسعل ، ربما هو ، ولـكنى لم أجد احدا ، كان الشارع انقاضـــا خالية ولا احد هناك ، أردت ان اخطو فى الشارع عدة خطوات … ولـكنى تذكرت كاتى فعدت مسرعا لأجدها راقدة فاقدة الوعى …

ارتفع الدم الى عينى ، تخطيت حاجز الرغبة الاولى ، حملتها بين يدى ، وضعتها على الفراش ، كان الخوف يملأ قلبى ، رحت ألهث فى رعب ، تمددت بجوارها ، فجأة شعرت بالراحة ، دفنت رأسى فى دفئهـــا ، لملمت شعرها الناعم وتذكرت مخلب القط ، ارتعت …

ورفعت يدى بسرعة ، هززتها فى عنف … صرخت ، جذبت يدها نحوى ، تحركت وكأنها تمشى أثناء النوم ، شفتاها انفرجتـــا عن ابتسامة واهنة ، ارتفعت سحابة صغيرة من بخار تنفسها ، تقلصت يدها فى عصبية ، قالت :

ــ عيسوى …

الرجل الذى مات يعود ، يعود مثل الفراشة تسير فى الهواء دون صوت ، تأتى حتى الضـــوء الباهر ، تتمـــدد فى استرخاء حـــوله ، يلسعها الضـــوء بحرارته ، تفقد القدرة على النهوض ، تموت …

الرجل الذى مات يعود مغلفا بالسحب الزرقاء ، راسما علامة الحزن حول فم السيدة التى تعيش دونه …

ــ ولـكن … …

ــ عيسوى …

ـ هذا غير ممكن ! !

ـ عيسوى ...

ـ ملعونة انت ...

ـ عيسوى ...

كان يجرى خلف ضفدع ، الضفدع يقفز فى المـاء ، يعوى عيسوى فى غضب ، يتوقف عن الجرى ، يلحق به السـعال ، نقترب منه ونحن نجرى ، استدار عيسوى فجأة ... اصطدم بصدرها ، لمعت عيناه ؟ واصلت سيرى وانا اضحك فى افتعال ...

ضحكت أنا فى عصبية ، إفـكر فيما تعنيه بشهقتها ولمـاذا لمعت عيناه رغم الجو المائل الى الظلمة ، شهقت هى فى نغمة تحمل معنى ، عيناه ؟ واصلت سيرى وانا اضحك فى افتعال ...

الرجل الاعرج كان قد دهمنا بكابوس وجوده الاحمق ، ترك خلفه ظلا من التعاسة ... عوى مثل كلب الشوارع الحزين ...

فى اليوم التالى غاب عيسوى ولم يحضر الى دارنا ، ولم يحضر ايضا الى المدرسة ، ذهبت اليه فى المسـاء ، نظـر الى وبكى ، احتضننى فى توتر وقبلنى بعنف ، رفعت رأسى ونظرت خلفى ... كانت بعض الاحجار المنزوعة من الرصيف قد رسمت هرما هزيلا ، تخلصت من احضانه المتشنجة ، ولـكنه جلس يبكى ... عدت الى حجرتى حزينا ...

تخلصت من يد كاتى المتقلصـة حول رقبتى ، دفعتها بعنف ، تمددت فى ارتخاء ، بصقت على الارض فى تأفف ...

لم يكن الرجل الاعرج حسن الصوت ، كان صوته اقرب الى صوت الصبية ، لم يكن صوته طبيعيا ، ولم يكن له شـارب ولا لحية ... وجهه املس مستطيل الى حد كبير ، وكان ضخم الحجم ، كريه النظرة مثل عين الميت ، لا اهداب لعينه ، يضع على رأسه شالا متسخا ... كما ان البالطو الذى كان يرتديه ، لا لون له ، كالحا وقذرا أيضا ترك خلفه حيثما مضى رائحته النتنة مخلوطـة برائحة الـكحول ...

صاحت كاتى فى تشنج :

ـ القرد ...

نظرت اليها ، جميلة حبيبتى ، رقيقة هشة ، اخاف عليها ...

ولـكنى لا أملك لها شيئا ، لماذا لا أهاجر انا وهى الى بلد ما ، بلد ما فى داخل مصر أو خارجهـا ، لمـاذا لا أسافر معها الى عالم جديد ... الى كندا ، الى استراليا ، الى جزيرة فى المحيط ، الى أى مكان ، نعمل ونعيش ، نشترى طعاما ، ونقيم مسكنا ، أجلب لها العطور والملابس ، أدور بها ومعها مسارح الليـل ومنتزهات النهار ، نشرب ونلعب ونلهو وننفق المال ونضحك ؟ ! ...

ــ كاتى ، يجب ان نفعل شيئا ...

ــ نعم ، يجب ...

ــ أفـكر فى أن نسافر الى استراليا ...

ــ حقيقة ؟ ...

ــ نعم ، نسافر معا الى ...

ــ ولـكنى الآن أشعر بالجوع ... و ...

ــ يجب أن نسافر الى ...

اقتربت منى وطوقتنى بحنان ، السماء تبدو صافية ، شعرت بالحب يملأ قلبى ، يمكننى الآن ان أقاتل ، ان أموت فى سبيلها... طلقات سريعة من مدافع رشـاشة ، تيجر وقف بيننـا بجسده المتوتر ، طلقـات مكتومة لمدفعية مضادة للطائرات ، أزيز الطائرات يعلو ، ازدادت حدة اطلاق النار ... اختلطت بدوى مســـتمر لانفجارات هائلة ... تشبثت كاتى برقبتى فى خوف ، شــعرت باللامبالاة ، الانفجارات تجعل جدران حجرتنا تهتز فى عنف ، تسقط نافذة فى الدور الثانى ، انخلع باب الحجرة وهوى الى الارض ، أثار سقوطه عاصفة من التراب ، التصقت كاتى بى بشـدة وهى تبكى ، قررت ان أسافر فور انتهـاء الغارة ... اذا كانت ستنتهى ونحن أحياء ...

اشارة الى تصدع أحد الجدران :

تقدمنا حتى باب المخازن ، لم نر أحدا هناك ، كنت خائفا ، الباب موصد ، حاولنا فتحه فلم نستطع ، استدرنا لنعود ، لمحت فتحة فى الجدار يبدو انها من أثر قذيفة ، صحت فرحا ، مررنا من الفتحة الى داخل المخازن ، كان كل شىء فيها كما هو ، عشرات من الاشياء المكدسة والملفوفة بعناية ، مئات من القطع الصغيرة ذات الاشكال الهندسية ، عالم كان من قبل له صرامة ويخضع لتعاليم تصل الى حد الكهنوت المغلق ، مفتوح دون حاجز ، فتحة فى الجدار والباب موصد ومغلق جيدا ، الامان فى قفل الباب ، السر لن يعرفه أحد لأن المفتاح مع الامين ...

صرخت كاتى فى سعادة :

ــ اقلام ملونة ...

وراحت تبعثر كمية هائلة من الاقلام الملونة وهى تصرخ فى سعادة ... تعمد الرجل المريض ان يأكل قطعة كبيرة من الحلوى ... كان يرقد فى عربة للاسعاف الخاصة بالمنطقة الرابعة ، وكان فى طريقه الى المستشفى الكبير ، توقفت العربة أمام احد باعة الحلوى ، هبط السائق ليبتاع علبة سجائر ، صرخ الرجل المريض فى غضب ، ضحك زميله فى نشوة وطلب منه ان يكف عن الصياح ، لكن الرجل المريض طلب شيئا يأكله ، صاح صبى صغير يقف بجوار بائع الحلوى :

ــ انه لم يمت بعد ! ...

شعر زميل الرجل المريض بالعواطف الجياشة تملأ عليه صدره ، طلب من البائع علبة كاملة ، من الحلوى وقدمها له ... التهم الرجل المريض العلبة بأكملها وهو يهمهم فى نشوة وسعادة ...

ــ ماذا وجدت غير هذا ؟

ــ أشياء ملفوفة ...
ــ تصلح للبيــع ؟ ...
ــ اظن ذلك ...
ــ أشعر بالجوع ...
ــ الاعرج سيأتى بعد قليل ...
ــ هل هو رجل صادق ...
ــ لا ، انه لص ...
ــ اذن ربما لا يأتى ...
ــ هذا محتمل ...
ــ وما العمل اذا لم يحضر ؟ ...
ــ نسرق الخبز من الجمعية ...

الرجل المريض شعر بالسعادة بعد ان التهم علبة الحلوى ، اخذ يغنى بصوت مرتفع ، أحس زميله انه شفى من مرضه ، شـاركه غناءه ، شاركوه جميعا الغناء ، ومضت عربة الاسعاف فى طريقها نحو المستشفى الـكبير ...

ــ هذا يكفى اليوم ...
ــ لمـاذا ؟
ــ لأننى لا أقدر على حمل اكثر من ذلك ...
ــ أيها المعتوه ، الاعرج يملك سيارة كبيرة ...
ــ ولـكن ...
ــ سنتركه يضع كل هذه الاشياء فوقها ونأخذ الثمن ...
ــ ثمن ... ! !

ــ الرجل المريض كف عن الغنـاء والعربة ما زالت بعيــدة عن المستشفى الـكبير ، زميله قال :

ــ انه تعب من الغناء ويجب أن ينام ...

تركوه فى هدوء وجلسوا يستمعون لقصة حب ...

ــ ما الذى يدور فى عقلك ؟ ...
ــ لا شىء ...
ــ ولـكنك تفـكر فى شىء ما ...
ــ انتظر الرجل الاعرج ...

ـ انت قلت انه سيأتى حتما ...

الرجـل المريض مات ولم يشعر به زميله لانه كان يستمع الى قصة الحب الفارقة فى السذاجة ، ومضت العربة فى طريقها ...

ـ عيسوى يحب العصافير وهى تغنى ، يخرج فى الفجر يجلس تحت الاشجار ليسمع شـدو العصافير ...

ـ كان طيب القلب ...

لو حاول زميله ان يتفاضى عن موجة العواطف التى اجتاحت صـدره أثناء وقوفهم أمام بائع الحلوى ، لو انهم لم يتوقفوا أمام بائع الحلوى ، لو ان سـائق العربة لم يرغب فى التـدخين ، لو ان علبـة سجائره لم تنته ، لو ان السـائق لم يكن مدخنا لـكان الامر غيره الآن ...

ـ الله يرحمه ...

ـ كان صديقى ، وكان ... ...

ـ أشعر بالجوع ...

ـ لو لم تحدث الحرب ، لو ان الحرب حدثت فى سـيناء فقط ، لو ان ... ...

ـ الجوع يجعلنى أفقد القدرة على التفكير ...

ذهب البيت كله ... الشارع كله ، المدينة كلها ، لم يبق لنـا فى السويس ما نملـكه ، حضر الينا أحـد رجـال الامن ، وقال فى صوت أجش خنقه دخان السجائر :

ـ ارحلوا ...

لم نجب بشىء ، مضى رجل الأمن ، وبقينـا نحن مع القطط والـكلاب جوعى ...

ـ ماذا نفعل لو لم يحضر الاعرج ؟ ...

ـ لا ادرى ...

ـ أحبك ولا ارغب فى البعد عنك ...

ـ وأنا أيضا ...

ـ يمكننا ان نذهب الى مكان ما ...

ـ مثل ... ؟

ـ أية مدينة ... ...

سمعنا صـوت سيـارة ، وصـوت الاعرج يأتى من الخارج ، انتظرنا حتى يأتى ، مضت دقائق قبـل ان نراه ، كانت بجواره سيـدة سمينة بيضاء تنقل خطواتها مثل البطة ، يسيل على وجهها خطوط من العرق جارفة معها لونا اسود ... تقـدمنا نحوهما فى وجل ، ضحكت السيدة فى خلاعة ، تراجعنـا خطوة الى الخلف ، صاح الاعرج فى صوت طفل ممطوط :

ــ انتظروا حتى المساء ...

ــ ولـكن ...

قهقه الاعرج فى رقة ، اهتزت السيدة وهى ما زالت تضحك ، تقدمت بمفردى خطوة نحو الرجل ، توقفت السـيدة المترهلة عن الضحك ... وقالت :

ــ أطفـال ...

ناولنى الرجل الاعرج لفافة شممت منها رائحة الطعام ، قالت كاتى فى تردد :

ولمـاذا ننتظر حتى المساء ؟ ...

ظهر الغضب على وجه السيدة ، قالت فى حزم :

ــ الليل ستار يا ... ...

سـاد السكون جو المخزن ، احسست ان كاتى ربما تبكى ، تشاغلت بفض اللفافة ، نبح تيجر فى وحشية ، قذفه الاعرج بقطعة خشب ، تراجع تيجر فى تحفز وهو يزمجر ، اسرع الرجل بالهرب ، جلست السيدة على الارض فى فزع ، حاولت ان اوقف اندفاع تيجر ... ولـكنه لم يتراجع ... قفز فى وحشية فوق المراة التى صرخت فى خوف وهلع ...

رقد تيجر فوقها تماما ، راحت المراة تصدر فحيحا كأفعى ، تمددت على الارض دون مقاومة ، راحت اوامرى الى تيجر وصياح كاتى دون فائدة ، تمدد فوقها واخذ يزوم ، اغمضت عينى وأنا اتصور منظر جسدها المزق ، ولـكن صـــوت المراة الانثوى الصادر بانتظام وكأنه الشهيق جعلنى ارتعد فى هياج جنونى ...

قذف جوى هائل الضجة ، توالت الانفجارات ، ازيز الطائرات الشيطانية ، ارتميت على الارض جاذبا كاتى الى جوارى ، دوى

انفجار بالقرب منا ، غطى المكان دخان اسود ، انبعثت رائحة الكاوتشوك المحترق تكتم الانفاس ، خيل الى اننى ما ازال اسمع فحيح المراة وانات الكلب ، تلفت حولى مستطلعا ... لم أر شيئا ، الظلام يعم المكان ...

حاولت أن أنهض ... ولكن كاتى جذبتنى فى عنف ، تشبثت بى فى خشونة ، حاولت ان اتخلص منها رحت أضربها بقسوة ، انشبت اظافرها فى رقبتى ، اختنقت وتراخت أعصابى ودارت بى الدنيا ، وكأن الدموع غطت وجهى ، ركبت فوقى بسرعة ضغطت بكل جسدها على جسمى ، كانت حارة ودافئة وتتصبب عرقا ، اقتربت بشفتيها من فمى ... كانتا مضطربتين ، سكنت فوقى ... هدأ جسدها المتوتر ، شعرت بالشفقة من أجلها ، وبصعوبة رفعت يدى واحتويتها ...

وكأن الدنيا تجمعت فى قبضة يدى ، ورحت وأنا أصعد مرتقيا سلم نشوتى ، ألمس غدائر شعرها ، مكتشفا ذلك الخدر الناعم اللذيذ الذى تدفعه حركة الصعود ، نيران من الوهج مع ملمس حريرى مدغدغ لحواسى ...

تتدفق نيران الرغبة ، تتوهج ، تندلع فى ألسنة مندفعة نحو السماء ، مكتشفة فى اندفاعها عوالم جديدة ، دائرة حول الكوكب المتوهج سائرة فى طبقاته الشفافة ، نحو المجهول تغوص باحثة عن سر الانسان ، كاشفة عن طهره وبراءته ، لعل الكون يندمج فى وحدة واحدة ...

لوحة جانبية لا ترى بسهولة :

فى الصباح كان عيسوى يأكل رغيفا جافا وهو يجلس على رصيف الشارع ، اقتربت منه ، يبـدو انه تائه فى عالم آخر فلم يشعر بى ، لمست كتفه برقة ، انتفض فى رعب وصاح :

ــ لا ... انها تـكذب ...

ضحكت وانا اشعر بالمرارة ، تنبـه عيسوى الى ما حوله ، راح يأكل رغيفه بسرعة اكثر ، بينما وقفت انا اتأمله ، الشارع يمتلىء بالحركة فى الصباح ...

ــ دعنا لا نذهب الى المدرسة اليوم ...

ــ لمـاذا ؟ ...

ــ أود أن اريك شيئا هاما ...

قفزنا السور ، اقتربنا من المقـابر ، راح يعدو بسرعة وانا اعدو خلفه ، تصورت نفسى ممددا فى أحـد هـذه المقابر والدنيا من حولى ظلام دامس ، اخترق عدة حارات متعرجة ومتقاطعة ... وانا احاول ان اتبعه ، بعـد سـاعة كنا نقف بالقرب من مقبـرة مفتوحة ، نافذة ضـيقة تشع منهـا رائحة كريهة لم اسـتطع التحمل ... جريت عائدا ، كنت خائفا وكأن عملاقا يتعقبنى ...

لم أسـتطع التوقف الا فى شارع البحر ، جلست على بعض الاحجار ، كان الخوف وسرعة التنفس يشلان عقلى عن التفكير ...

عندما مضت الفترة التى تصاحب الانغلاق النفسى ، واعدت التفكير فيما حدث ، لم افهم له معنى ، بل لم افهم معنى سرعة هروبى وخوفى الزائد من اشيـاء او احـداث لم ارها ، ماذا كان سيحدث عندما اقتربنا من المقبرة ؟ ... ما الذى كان ينوى عمـله عيسوى ؟ ...

فى الليل ... عندما انطرحت على فراشى ، اخذت افكر جديا فى مرض عيسوى العقلى ، ربما كان به نوع من الجنون ، أو مس من عفاريت ، أو شذوذ غير عادى ...

بعدها لم أعد اذكر ما حدث ، وبعدها لم يحاول عيسوى ان يتحدث معى حول الزيارة التى لم تتم للمقابر ، فقط لاحظت انه بعدها كان يصيح بى أحيانا وهو يقرض أسنانه :
ــ جبان ...

ولم أكن أقيم وزنا كبيرا لذلك ، فهو دائم السب واللعن وقذف الناس بما فيهم وبما ليس فيهم من نقائص وعيوب ... وأخيرا هو صديقى ولا أود خسارته ...

ولكن حادث المقبرة تكرر اكثر من مرة ، ولكن بأشكال مختلفة وعلى صور متباينة ، وعلى الرغم من اختلاف هذه الصور والاشكال فاننى كنت اهرب واتوقف قبل ان تحدث التجربة ، او قبل ان يحدث الشىء الهام الذى من اجله جاء عيسوى وشدنى معه ...

كما يحدث عادة كنت انسى ما حدث واعود كما كنا نلهو فى براءة شديدة ...

ولكن فى احدى المرات « ويبدو هنا ان الحادث الذى وقع ليس مثل تلك الصور التى من قبيل زيارة المقابر ، ولكنه يختلف عنها وهذا ــ على الاقل ــ ما اعتقده انا » ، ذهبنا الى خارج المدينة وكنت افكر فى العشاء ، حيث ان أمى لفتت نظرى الى اهمية حضورى لوجود خالى القادم من الريف ، وخالى يأتى عادة محملا بأشياء شهية المذاق والرائحة ، كنت أفكر فى العشاء حينما أصبحنا ــ عيسوى وأنا ــ فى خارج المدينة ...

كان هناك ما يشبه الكوخ الذى يأتى ذكره كثيرا فى الروايات الانجليزية المترجمة ، كوخ متوحد ، منفرد على قطعة أرض تحيط بها برك المياه من كل جانب ، رحنا ــ ونحن نقصد الكوخ ــ نخوض المياه الراكدة فى مشقة حتى وصلنا الى أول جدار من الكوخ ، سمعنا صوت صبية صغيرة تلعب بشىء ما ...

تقدمنا نحو باب الكوخ ودرنا حوله ، لم يكن هناك سوى هذه

الصبية ، تجلس القرفصاء أمامها دف وعروسة ، تنقر على الدف وهى تغنى بكلمات مبهمة ، كانت بيضاء ، يلفها لون احمر ، جلبابها ممزق عند الفخذ ، شعرها الاصفر يتطاير بفعل الريح ، رائحة السردين المملح والسمك المشوى وعفن حشائش البرك تخلق جوا اسطوريا حول الصبية ووجهها المتسخ القذر وأغانيها المبهمة ...

وقفنا خلف الصبية لا نتحرك ، بينما هى لا ترانا ، تمددت على ظهرها فوق الارض المليئة بالاعشاب الجافة ، ورفعت عروستها الخشبية فوق صدرها وراحت تواصل انشادها ، انحسر ثوبها الممزق حتى استدارة بطنها ، كان جسدها الطفلى الابيض المشوب بالحمرة يبدو كشىء طاهر ملائكى مدفون فى القاذورات ، شعرها رقد فى استكانة وتمدد هو الآخر مشتبكا بالعشب الجاف...

(العروسة كانت جميلة ، جميلة جمال النبى ، قذفوا الملح فى أعين الحساد ، اختارها الفارس الذى جاء على ظهر مركب كبير يخوض أمواج البحر الهائجة دون خوف ، امها بكت حينما حانت لحظة الوداع ... نهرها الرجال وهم يشدون زناد بندقية قديمة ، حملها العريس الفارس على كتفه ومضى بها يشق بركة المياه الراكدة حتى وصل الى شاطىء البحر حيث كان مركبه ينتظره ... ياخسارة لم اكن موجودة فى ذلك العرس ، امى حكت لى ، لأن أمى كانت هى العروسة الجميلة وأبى كان ذلك الفارس ...)

ضحكنا ... انتفضت الصبية فى فزع وتحفز ، كانت مثل قطة شرسة ، استدارت بسرعة وقذفتنا بالعروسة ، تلقفت أنا العروسة الخشبية بينما قفز عيسوى وامسك بها ، كانت تصرخ فى شراسة وتعض فى توحش ، حاولت ان تفلت من بين يديه ولكنه تشبث بها لايريد تركها ، هجم عليها يقبلها فى فمها وهى تدفعه فى صدره ، كانت نظراتها ثابتة ولم تبك ، حتى وهو يرقد فوقها ويشلح ثوبها الممزق ، كانت تدفعه وهى تصرخ فقط ...

فعلت مثل ما فعل عيسوى ، وشعرت بالنشوة لأول مرة فى حياتى ، ذقت نوعا من حلوى الشمس ، وتفتحت عيناى على دنيا عجيبة كما شعرت بتقلص فى امعائى ، ودهمنى شعور هائل بالذنب والجريمة يهدد شيئا كنت احترمه فى نفسى ...

وعدنا الى المدينة ، نسير فى تثاقل ، لا نتـكلم ، أحس طنينا هائلا يسحق عقلى ، والحزن يزرع حقوله فى نفسى ، ويترك خيوله ترعى هائجة فى القطعة الخراب من قلبى ...

خيول الحزن تسبق الشعور باللوعة ، تكتم بحوافرها هذا النبع الذى يحاول ان يندفع لـكى يعطيك الشعور بالراحة والسلام ...

ومضت الايام وحاولت ان انسى ما حـدث هنـاك على العشب الجاف ولـكن عيونا زرقاء تبرق فى تحد وتحفز ، تفطى برموشـها قهرا متعمدا كسا ملامح وجهها ، جعلهاـ جبرا دون اختيار ـ تحمله وحدها وتقف لتتلقف ولدين يفور بهما النضج المبكر ، وتحاصرنى العيون وتضمخ رائحة العفن والسردين المملح أحلامى ...

فى اليوم التالى جلس عيسوى يغنى ...

(وقف السيد فوقالربوة يخلع ملابسه ، كانت الديدان الصغيرة ، والتىكانت فى الزمن الماضى لايمكن رؤيتها وربما لم تكن موجودة أصلا ... تتساقط من جسده ، وكان يود ان يتخلص منها ... ولـكنه لم يفعل ، رغب أن يكون صابرا ، تحمل فى كسل خرافى لدغ الديدان ورائحتها العطنة ، كان يفكر فى الجنة ، وكان احيانا يفكر فى زوجته التى تذهب الى بيوت الغرباء لتأتى بالطعام ، وفى كل يوم جـديد يأتى على السيد عذابات جديدة ، ولـكنه يصبر عليها جميعها ، حتى عندما عرف كيف تحصل زوجته على الخبز الذى يأكله ...)

ـ اريد أن أتقيأ ...
ـ افعل ما يحلو لك ...
ـ لقد اصبحت مرا ...
ـ اننى أحاول ان أتعلم الصبر ...
ـ ولـكنى لا أود ان أتعلمه ...
ـ يجب ...
ـ لماذا ؟ ...
ـ لـكى تموت ...
ـ ولـكنى لا أرغب فى الموت ...
ـ لماذا تريد أن تشذ عن بقية الخلق ؟ ...
ـ لا ، فقط لا أحب الصبر ، وهم يصبرون كثيرا وطويلا ...

قفز تيجر فى سعادة ، جرى نحو الشارع ، قذفه عيسوى بقطعة من الحجارة فى قدمه ، استدار تيجر فى غضب ونظر الى... لم أحاول منعه ، كنت راغبا فى الهدم ، وكنت كارها للعالم كله ، قفز تيجر فوق عيسوى وشل حركته بسهولة ووقف فوقه يهز ذيله فى انتصار ، رحت فى نوبة ضحك بينما عيسوى يسب الكلب فى صوت منكسر ذليل رغم محاولته الفاشلة فى اظهار عكس ذلك ...

كان فى امكانى انهاء اللعبة ... ابتعد يا تيجر انه صديقى ... سيبتعد فورا وينتهى كل شىء ، ولكن انشغالى بالضحك اوتظاهرى ذلك ، شغلنى عن تيجر بالابتعاد ، حتى جاءت كاتى وأمرت الكلب بالابتعاد عن عيسوى وهى تصرخ فى غضب ، وعيسوى ينسحب فى خجل ويزحف حتى السور ليجلس ... كاتى غاضبة ، ترمقنى فى ازدراء ، صاحت :

ـ ما هذا ؟ ...

وقف عيسوى فجأة ، بصق فى وجهى ، اسرع يجرى مبتعدا ...

درت وجهى بعيدا عن كاتى ، قلت :

ـ كنا نلهو ...

ـ لا ، ليس هذا لهوا ، بل هو شعور خبيث منك ...

ارتعشت من الغضب ، واستدرت واجهتها بتحد ، صرخت :

ـ وانت ... ماذا يضايقك الى هذا الحد ، عيسوى صديقى وانا اخاف عليه اكثر منك ...

تشنجت فى تقزز ، انحدرت دمعة من عينها ، تلوى فمها وهى تقول :

ـ انت جبان ...

جرت مسرعة وهى تبكى بصوت مرتفع فى تشنج ، ضحكت انا فى غيظ ، جلست على حافة السور ... جرى تيجر بعيدا ، اكتشفت وحدتى وطاف بعقلى صور شتى للحرمان والوحدة واليأس ، شعور بالاضطهاد يغمرنى ، أنا دائما ذلك الانسان المضطهد المظلوم ، لايمكننى فعل شىء دون لوم الآخرين ، أمى تنهرنى وتسبنى ، لا تعجبها كل تصرفاتى وخاصة صداقتى بكاتى وبعيسوى ، كاتى لا تعجبها أعمالى ودائما تقول انها حزينة من أجلى ، عيسوى

يصارحني باعتقاده الكامل في غبائي وجهلي ، ابي ينظر الى كطفل مجنون ، نساء الحارة يضحكن كلما نظرن الى ، ولهذا أشعر بالضعف واتوارى ، أرغب في أن اكون انسانا ، أتمنى ان اقول ... انا دون خوف ودون رهبة ...

للوهلة الاولى تعتقد ان هذا مجرد شعور متزايد من قلب مراهق ، ولكن عندما يكون الانسان قد غرق في الدنس ، يعتقد غير ذلك ... انها الرغبة الدائمة ليبحث عن الموت الافضل ...

ـ كاتي ، لقد تغيرت الآن ، صرت حرا ...

ـ لا ... انت لم تعد حرا بعد ...

ـ ولكني استطيع ان ... ...

ـ انت لا تستطيع شيئا ، انت لا تقدر ان تفعل شيئا ...

ـ حقا ؟ ! ...

ـ نعم ...

عرض سريع لملامح الفترة الأولى :

يقال ان جـدى الرابع كان صـعلوكا يتسـول قوته من التجار وأصحاب الحانات ومهرجى الحاكم ، ولـكن هذا ليس مؤكدا تماما ، لأن بعض الناس كانوا يكرهون أبى ويحاولون الصاق تهمة الاصـل الوضيع به ، وذلك بدليل ان جدى الثالث كان عالما وفقيها ورجل علم وترك « زاوية » باسمه فى مدينة تسمى قفط ... وتعرف حتى الآن باسم « زاوية الشيخ المرتجى » ...

أما جدى الثانى فقد استطاع ان يكون ثروة كبيرة خبأها فى عدة قارورات من زجاج ووضعها فى جب تحت بيته ، وحينما جاءت الوفاة لم يستطع أن يخبر ابنه بموضع المال ... ولـكنه أشار بيده المرتعشة الى الارض وقال فى صوت واهن ... الـكنز ، ومات !

وراح جدى يبحث فى اصرار عن كنز أبيه ... ولـكنه لم يجده ، وانفق فى ذلك كل ثروته ، فاضطر الى ترك بلدته وطاف فى البـلاد يعاون الاهالى على فض مشاكلهم مستعينا بذلك بما تعلمه عن جده من أمور الدين ... وأضاف الى ذلك صناعة الاحجبة الواقية من الحسد والفقر وبطش السلطان ...

واستقر ابى فى السويس حيث تزوج وانجبنى ...

أبى يقول ان أجداده الاول كانوا من أهل السلطان الذى قدم من الشمال وحينما أسأله عن كيفية وصولهم الى هنا ، يغرقنى فى كثير من الاقاصيص ، ونظرا لأنها جميعها لا تقدم أى أدلة أو حتى تتفق مع منطق الاحداث وتسلسلها ، فاننى لن أذكرها ، ولهذا فأنا فقط أشير الى ان أبى يعتقد ، وهـذه هى الحماقة نفسها ، انه من أصل عريق ــ من وجهـة نظره ــ ضارب فى العراقة ويصـل الى السلطان الذى قدم من بلاد الشمال ، على أساس ان السلطان بالضرورة أصله عريق ...

أمي تقول غير ذلك ، بل تؤكد ببعض الاوراق التي تآكلت بفعل كثرة تداولها ، وتقول ان جدى الاول ، والذى كون الاسرة كان من الباعة الجائلين فى القرى الذين يجرون خلف البغال ... وانهم توارثوا هـذه المهنة من ألف عام ، وان أبى ورث البغل والخرج عن أبيه ، ولـكنها هى ــ أمى ــ تخلت عما كانت تحمله من ذهب وجواهر، ورثته عن أبيها وباعته لتساعده باقامة هذا المتجر الذى يفخر به الآن

وحينما أحاول ان أستفسر عن بعض التفاصيل ، فانها تسهب فى وصف وشرح بعض الجزئيات التافهة ... بينما تتناسى الـكثير من الامور الهامة ...

وقد ضايقتنى كثيرا تلك الرغبة الجامحة عند أبى فى سرد قصة اهله ، وكذلك رغبة أمى فى تشويه وتحطيم هـذه الصورة التى يزهو بوصفها ، وأجـد نفسى حائرا تائهـا بينهما ، فأبى اعتاد أن يصف جدى ــ والد أمى ــ بأنه لا يعدو كونه حمارا لا اكثر ، وأمى تصف جدى ــ والد أبى ــ بأنه بائع متجول يجرى خلف بغل ، ولا يجد احدهما مانعا من أن يقص على ــ وأنا وحدى وليس أمام الآخرين ــ كل هذه التفاصيل ...

حينما سألت عيسوى عن جده الاول ، قال فى أسى :

ــ لابد انه كان يعمل حمالا فى الميناء ...

ــ وما الذى جعلك تتصوره هكذا ؟ ...

ــ وماذا يمكن غير ذلك ؟ ...

ــ يكون أميرا للميناء ، رئيسا للشرطة ، عالما ، احـد رجـال الدولة ، ان يكون ...

ــ شحاذا ، ضارب رمل ، صاحب حانة ، لصا ...

ــ ملـكا ...

ــ فلاحا معدما ...

ــ قائد للجيش ...

ــ جاسوسا ...

ــ ان يكون كل هذا معا ...

ــ أولا يكون شيئا على الاطلاق ...

ولـكن أبى يهتم اهتماما شديدا بذلك ، انه دائما يذكر جـده

الـكبير الذى قدم من الشمال يحمل سـيفا فى يده وكيس نقود فى يده اليسرى وعلى فمه ابتسامة بطل ، والجد الاول القادم من الشمال يحمل سيفا ليست لدينا صورة له ، بل وليست لدينـا صورة لأحد من الجدود على الاطلاق ...

ولقد حاول أبى ذات مرة ان يقلد جدى الـكبير ، فدخـل فى مشاجرة مع تاجر من تجار الاسماك ، وكانت النتيجة سيئة ، فقد تجمع كل تجار السمك حول أبى — الذى كان لا يفعل شيئا سوى السباب بسرعة ويخلطه بكلام بطولى اجوف — وتدخل النـــاس وفرقوا بينهما ، ولم يصب أحد بالطبع لأن الـكلمات المقذوفة من الالسنة الفضبى لا تحدث ضررا ...

وعلى الرغم من حبى لأبى ، وتعلقى الشديد به ، فاننى أشـعر بالملل يجتاحنى حينما يتحدث عن جده القادم من بلاد الشمال ، وعن السلطان الاول الذى أسس ملـكا ، وعن أشياء لا نملك لها دليلا من الصحة سوى مجموعة الـكلمات التى يكونها المتحدث ، هـذا اذا كان النسب بالسلطان القادم من الشمال شيئا ذا قيمة ، وأعتقد ان أبى لو فكر قليلا لاكتشف ان المبـاهاة باتصال جده بالسلطان شيئا معيبا ، بل ويؤكد حديث أمى عن وضاعة أصلنا ...

— عيسوى ... هل صحيح ما يقولونه عن الزمن الماضى ؟ ...
— لا ... ليس صحيحا ، انه نوع من الاحلام ...
— وهل انت لا تحب الاحلام ؟ ...
— لا ، اننى لا أحلم أبدا ...
— كاتى ... انت لا تحلمين أيضا ؟ ...
— بل اننى كثيرة الاحلام ...
— بفارس يركب حصانا أبيض ؟ ...
— ها ... ليس هذا بالتأكيد ، انها أشياء اخرى ...
— وما هى ؟ ...
— انها تسعدنى ... وهذا يكفى ...
— لـكن ... ...

أمى قالت لى :

— انت تصرخ كل ليلة ، لابد ان هناك من يزعجك ؟ ! ...

ـ اصرخ ! ... كيف ؟
ـ تصرخ وانت نائم ... كابوس ...
ـ أحلام مزعجة ...
ـ انت ما زلت صغيرا يا ولدى ... ما الذى يزعجك الى هذا الحد ؟ ...

أبى قال لى غاضبا :
ـ اذهب الى أمك ... انت رخو كالانثى ولست رجلا كاملا ...

انسلخت من بين طراوة أمى ، أبى يحتقرها ، ويحتقر جنسها وضعفهن ، ويقول انهن ناقصات عقل ودين ، انهن لا يجلبن الا العار، يقول هذا وينام بجوارها كل ليلة ... ! !

الرجل الذى يغنى كل ليلة فى المقهى يقول :
« السيد الفارس يطوى الصحارى ، صحارى العطش ، يغوص فى بحر الجوع ... ولكنه سيد يرفع حسام الغضب ، ويلوح كأنه هلال ... »

وينتفخ رجل يجلس بجواره ويعوى كذئب معامل البترول ، ويطلب المزيد ، ويواصل المغنى الذى يغنى فى المقهى كل ليلة :
« السيد الفارس عاد ، هبط بجوار داره ...

أسرعت الزوجة تخلع عن فارسها ثوب السفر ...
هالها ما رأت ... صرخت :
أمى ، السيد الفارس جريح ...
أمى السيد الفارس صريع ... أمى ...
النكبة دقت باب الدار ، والسعد الميمون الجالس فوق الدار ...
ذهب دون العودة ... أمى البيت انهار ...
انهار الدم المتدفقة التيار ، تفيض ... تجرى ... لقد اغرقت الدار ... »

ويزوم الناس ، لايتكلمون ، الالسنة مقيدة بشراب الجنة ، الجنة خضراء وارفة الظلال ، والسيد الفارس مهيض الجناح ، متعب سقيم جائع ، مشتت النفس ، يود أن يرتمى تحت ظل شجرة ، يحتضن تراب الارض ، أثقله حمل الرماح والسيوف وكبرياء الفارس ، يود ان يغوص فى وحل الراحة ، يرفع عنه علم الرغبة فى الاعلى ، يتوسد صدر امراة حبلى بالعشق ، يقول لها

ما يشعر به حقيقة . يطلب منها الرحمة ، يتحسس فى نشوة صادقة أعلى كتفيها ، تفرح أسارير وجهه المتعبة من تمثيل دور الرجل الفارس ... يخلع عن نفسه اغلال الكبرياء ويروح فى سبات عميق ، ويرتفع زفيره دون خوف ودون أن يفقد لؤلؤة الجبهة ...

ولكن السيد الفارس رجل ، جاء من صلب الرجال الذين كانوا دائمى الغضب ولا يسمحون لأنفسهم بالابتسام الا اذا كانوا بعيدا عن نسائهم واطفالهم وأتباعهم ، ولهذا فان السيد الفارس يحمل فوق طاقته ، وينوء بحمله ... ولكنه لا يقدر على الشكوى ...

قال أبى فى صوت واهن من شدة غضبه :

ــ اذهب الى امك ، انت لا تفهم معنى ان يكون الانسان قد ولد من صلب رجال ...

امى تتحسسنى فى امومة ، يدها كثعبان ناعم أملس بارد يدغدغ حواسى حتى يلتهمنى ، امى تقلد هديل الحمام ، أرفع يدها بعيدا اصرخ فى غضب ، تصاب أمى بالفزع ، تحوقل كأتباع الفريب ...

ــ أمى ، أنا من سلالة الرجال الذين قدموا من الشمال ...

ــ لا تحزن من أجل هذا ، انهم جميعا كانوا يبيعون العطور للنساء ، وكانوا ، أحيانا ، يتهمون فى قضايا السرقة وهتك العرض...

ــ لا ... ...

ــ ولكنهم كانوا بشرا ... يعيشون ويمرحون ، كانوا سعداء ...

ــ ولكن ابى يقول ... ...

ــ انه رجل طيب ، قلبه حنون مثل ورقة شجر الخروع. رقيق مثل نسائم البحر ، كما أنه عطوف ... ورجل عشق ...

ــ ولكنه لا يحب ...

ــ ياغبى ، اننا قوم غرباء ، نعيش وسط القوم ، ونأكل من التجارة معهم ...

ــ يجب اذن أن نقول ... ...

ــ نعم ... قادمون من الشمال ، قادمون مع أهل السلطان الاول الذى كان يحمل رمحا باليمنى ونقودا باليسرى ...

ــ ها ... كلكم تخادعون ... تكذبون ...

ــ لقد تعبت من خدمة هذا البيت الملعون ، كان حظا عاثرا ذلك

الذى أوقعنى فى حبائل أبيك ...
ـ عيسوى ... أمى غاضبة من أبى ...
ـ وماذا يهم ... كل النساء فى مدينتنا غاضبات من رجالهن ...
ـ والرجال ؟ ...
ـ غاضبون من النساء ...
ـ ونحن ؟ ...
ـ نأكل ... الحنظل ...

جزئيات صغيرة لا تبدو في الصورة :

فى دقائق كان الاعرج قد نقل كل ما فى المخزن الى عربات النقل، ضحك فى توتر وهو يقول :

– اراكما غدا …

اشرت اليه ان يقترب ، خطواته متعثرة ، يتدحرج فى اتجاهى قبل ان يصل ، قلت :

– الثمن ؟ ! …

واصل ضحكه المتوتر ، وقال فى خبث :

– ثمن ماذا ؟ …

– ثمن ما اخذت …

– ولـكن … …

قلت مقاطعا ، وقد أسعدنى ان ابدو هكذا :

– الثمن والا … …

رفعت يدى بالمسدس ، كف عن ضحكه ، استرخت عضـــلات وجهه ، أتى بحركة سمكة المـاء التى خرجت توا الى الارض ، قال:

– ليست الخطورة فى أن تأخذ ، الخطورة فى ان تعطى ، تبيع…

يحاول ان يهزأ منى ، يلمس اطرافى المرتعشة ، نظرت الى كاتى ، عدت اصرخ :

– الثمن والا … …

رفص الارض بقدمه ، ارتعش صوته الانثوى وهو يقول :

– لم نتفق على هذا ، لم نتفق على هذا …

رقصت شهوة الغضب فى راسى ، مددت يدى وقبضت علىعنقه قربت مسدسى من راســه ، شعرت بالسعادة ترفرف حولى وانا اخنقه ، كان يسبح فى بحر الضيق ، رقص فى غيبوبة ، حاول ان

يخرج صوته ، زام مرتين ، تركته ... طوح راسه بعيدا ، بكى وهو يمد يده برزمة الاوراق المالية ، ضحكت وأنا اتناول منه الاوراق ، كنت ســــعيدا ومنتصرا ، شريرا ذلك الوهج المنبعث من قفص صدرى ، السنة من اللهب الاحمر الغاضب الراغب فى الانتقــام ، دسست الاوراق المالية فى جيبى ، كانت كاتى تجلس متكومة تبكى، زحفت اليها... بينما عوى الاعرج وهو يبتعد ، ســمعت صــوت محركات العربات تدور ، بعد قليل اختفى صوت المحركات... ضاع...

— نحن نفعل اشياء مرعبة ...

— أرجوك ...

— كيف تبتلع كل هــذا الهواء الملوث ، كيف تهضم كل هذه ... القاذورات ...

— لاداعى لـكل هذا ، ارجوك ...

— كان بامكاننا اللحاق بأهلنا ، والعيش معهم ، ماذا نقول لهم الآن ؟...

— ماذا صنعوا هم من أجلنا ؟ ...

— كل شيء ...

— كل شيء ... ماعدا أهم شيء ...

— لقد أصبحت مرا ، ما هو ؟ ...

— نحن ... ذاتنا ... الشيء الذى فى داخلنا هنا فى صدورنا ... لايوجد شيء ... خواء

— انت جبان ...

عيسوى قالها ومات ، خرج فى أحد الايام ولم يعد ، تناثرت من حوله شظايا الـكساح ، أصــابته واحدة ، هشمت راســه ، تناثر نخاع مخه على أسفلت السويس ، دون ان يفعل شيئا ، مثل الفأر فى مصيدة طفل شرس ...

تصاعد القصف الجوى ، امتلأت السماء بالقاذفات ، اختبأت أنا وكاتى فى الركن الداخلى لمخزن أبى المتهدم ، لم تعد طلقات المدفعية تثيرنا ، ولم يعد انفجار العالم حولنا يخيفنا ، فقدنا حائطا كنا نصنعه حول انفسنا بأنفسنا ونسميه الامان ... تساوت الارقام والاصفار، سقط برج بيزا المائل ...

ذهبنـا الى سـاحة المولد ، كان الرجال يتمايلون فى نشوة ، نوع من الرقص المعترف به ، كان المنشد يعلو فى الوسط ، يضع يديه حول فمه ، ينظر احيانا الى الناس ، واحيـانا الى البحر ، تبرز حنجرته بصورة واضحة ، عيسوى يشد غطاء رأس احـدى السيدات ، تسبه المرأة فى تقزز ، جرينا حتى اقتربنا من صفوف الرجال الذين يرقصون ، المنشد يغنى ...

« وياغريب ، يا مهـاجر بلا وطن ، يا تارك الديار ، ياغريب الاهل ، جئنا نلوذ بك ، نشكو لك ، نقص عليك ... نحكى همومنا... استمع الينا نحن الغرباء وسط الاهل، نحن الفقراء أبناء الشحاذين... ياغريب ...

الرجال يخافون ، يهابون ، الاشياء التى تحدث فى البحر أثناء الليل ، العواصف الهوجاء التى تأتى دون سبب ، ومراكبنا رقيقة الحال عديمة الحيلة ، القـلاع هتكتـها الريح ، تمزقت مع الايام والاطفال ، يصرخون ، لا شىء يأتى فى الغد الا الخوف ، الا الخوف ياغريب ... »

سكت القصف الجوى ، صوت عربات تولول فى الشارع المتهدم ، كانى تتحرك فى قلق ، الطعام هو الأمل ، يخفف الاضطراب ويمنع الخوف ، تحركنا فى هدوء ، كنت أفـكر فى مخازن شركة الورق ، كانوا يقولون ان بها آلات حديثة ذات قيمة ، أمين المخازن قـدم مذكرة الى الحاكم ، رجال الامن ينتشرون ... لـكن الغارات تغير نقط الحراسة ...

الحرب تعطى الحق لديدان الارض لـكى تسعى ، القطط تحولت الى كلاب مسعورة ، والـكلاب تحولت الى حيوانات خرافيـة من العصر الحجرى ، سباق فى معركة البقاء ، لـكل الـكائنات فرصة لاعادة تخطيط خريطة القوى ، بسط النفوذ يعاد توزيعه ...

يجب ان نذهب الى مخازن الورق ، أمين المخازن ، أين هـذا المنشد ، المنشد لايزال يغنى ...

« التوبة ياغريب ، يا واصل ، يا من ذهبت الى نقطة اللاعودة خذ بيد الجوالين الجوعى ، الصارخين أبدا ، الضاحكين فى الم ، التوبة ياغريب ... »

امين المخازن يعرف كيف يصطنع لنفسه جدارا من الامان ، قبل الهجوم على السويس ، كان يصنع جداره فى مهارة تعلمها من الذين سبقوه ، الاشياء بالرقم ، ولأن الرقم صحيح ، فالامين ما زال امينا ، اما بعد الحرب ، قصف القنابل دك المساجد … والمخازن والارقام لم تعد لها قيمة ياغريب …

المنشد قد ابتل بالعرق ، تمدد صوته ونام فوق الناس ، الذين استحلبوا من صوته مخدرا … الغريب هو الاعلى ، الرحمة تأتى بواسطة … المنشد يمد فى صوته لكى يتسع لكل الناس… ياغريب …

ـ كاتى …
ـ ماذا تريد ؟ …
ـ يجب ان نذهب الى مخازن شركة الورق …
ـ وماذا بعد ؟ …
ـ يأتى الاعرج ويأخذ ما نجده ، ونقبض الثمن …
ـ ماذا … لو … …
ـ لا … لن يحدث …
ـ واذا حدث ؟ …
ـ نقيم عاما فى السجن …
ـ لا اريد أن يكون هذا مصيرى …
ـ يمكننا الا نقع فى أيديهم … نراوغهم …
ـ كيف ؟ …
ـ ندفع بعض المال ، نحمل سلاحا … و …
ـ لقد دخلنا دائرة بغيضة …
ـ يجب ان نعيش … ان ندافع عن انفسنا …
ـ ها … جبان …

كان الطعام قد انتهى ، وكانت اللعبة فى اولها ، ولكن الخيط بدأ يترك بكرته وفقد تماسكه كقطعة ثقيلة ، تحول الى خيوط طويلة رفيعة لا وزن لها ولكنها تصنع اخطبوطا حول الاقدام …

تحركنا الى مخازن الشركة ، كان الهدوء يسود الشوارع الخربة سيارة عسكرية صغيرة متدحرجة فوق حطام منازل الشارع

مرت بجوارنا ، حاولت ان اخفى وجهى ، لا ادرى ما الذى جعلنى اشعر بالعار ...

المخازن خاوية تماما ، لا شيء ... جردت ... حتى مفاتيح الاضاءة لم يتركوها ، لم يدعوا شيئا خلفهم ، من هم لا ادرى ... ربما عمال الشركة ، وربما عمال الاعرج ...

كان هناك قبو مظلم ، رطب ، يبدو وكأنه قبر لم يستعمل ... دلفت الى القبو ، كانت خنافس الرطوبة تلهو فى مرح فى الاماكن الخاوية حيث انتزعت قطع الاثاث واخشاب الحائط ، الاخشاب المنزوعة تركت علامات بيضاء واضحة يلفها طرز من عشش النمل، صوت صرصار يأتى من أعماق القبو ، صرخت كاتى فى رعب ، أسرعت نحوها ، كان الفأر يحاول ان يقرض طرف ثوبها ولم يخف حين رآنى ، وقف فى تحد ، اغضبنى تحطم قاعدة الخوف ، الفأر عادة يجرى ، يفر أمام الناس والقطط والكلاب ، ولكنه الآن يقف وكأنه خروف فى بيته ، قذفته بقطعة من الحجر ، تفادى الحجر وهجم نحوى فى شراسة ، كان لابد من قتله ، لم أكن أود ذلك من قبل ولكنه الآن أصبح عدوا حقودا ، خطوت الى الخلف ، جذبت قطعة حجر كبيرة ، قذفته بها وهو يكاد يلمسنى ... سقطت قطعة الحجر فوق جسده مباشرة ، سحقته فى لحظة ، اخفته اسفلها ... وعاد الهدوء يحتوى المكان ...

عيسوى كان يحب هذا المنشد لأن صوته جميل ، وكنت انا أحبه لأنه يحكى اقاصيص حزينة فيها يموت الناس وهم يبتسمون ، وهذا يثير دهشتى لأننى لم أر أحدا يموت وهو يبتسم

« الجنة تفتح باب محاسنها ، فليدخلها التائب والابن البار، الجنة تفتح اذرعها لتتلقف صاحب سيف مات شهيدا بيد الكفار ... الجنة مأوى ... الجنة دار ... »

المنشد تدمع عيناه ، يبكى ، يتأثر من كلمات اللحن الصاعدة من فمه ...

« ياغريب ... النار ، النار ...

السيد نادى فى الامصار ، قد نسى الناس ... كانوا قد كفروا ، كانوا قد ذهبوا ... قد نسى الناس ، ان الجنة دار ... الجنة مأوى ... الجنة دار ... »

المنشد يتنهد فى حسرة ، والنــاس كأن على رءوسهم الطير ، الميدان امتلأ بالرجال والنساء ، بائعو الفول صـــامتون ، الانوار تعطى أزيزا حزينا يوحي بالرهبـــة ، رائحة البحر ، وبرودة آخر الليل ، وصفارة باخرة جاءت من كندا ، فنار يضوى فى الليل ، وقلبى معلق بفم المنشد ، المنشد قال :

« الرغبة عار ، الرغبة تقتل كل الحسنات ، ولهذا فان السيد كان يحارب رغبته ، كان يبعدها ...

ويجرى فى البلدان يطالب بحق الجنة ... »

نسيم الصبــاح يقترب ، القلوب خاشــعة ، فقدت الرغبــة فى التسلط ، هــدأت ... نامت النفوس ، والمنشــد نشوان ينشــد ، والـكلمات مع ندى الصبح تصنع خمرا ، والناس سكارى ...

« القلب الابيض لايعرف الا الحب ...

الحب لغير الله خطيئة ، لايدخل الجنة الا الاحباء ، الغريب يقف ويشير للناس ... ادخلوا ... الجنة مأوى العشاق ، الجنة مستقر دون فراق ... »

صمتت كاتى فى ضيق ...

ـ كاتى ، أنا ...

ـ هل سنظل هنا الى الابد ؟ ...

ـ لا ...

ـ ما الذى تنوى عمله ؟ ...

ـ نذهب الى ...

ـ الى أين هذه المرة ؟ ...

ـ الى المنازل ...

ـ نسرق حاجات النــاس ...

ـ أو ليس ما نفعله هو ذلك ؟ ! ...

ـ لـكن ...

ـ قلت لك ان كل شيء تساوى الآن ...

ـ لقد تهدم كل شيء ...

ـ فعلا ...

ـ لم يعد لدينا ما يحمينا من الخراب ...

ـ ولكن يمكننا ان نولد من جديد ...
ـ أريد أن ابـكى ...
ـ وانا ايضا ...
ـ ولـكن لا دموع تأتى ...
ـ تغالبنى الرغبة فى الضحك ...
ـ يثقل صدرى الرغبة فى الصياح ...
ـ لو أمكن هدم العالم ؟ ! ...
ـ ويصير الـكل حطاما ، ويتهشم ذلك الأســد الرابض فوق الصدر ...
ـ لو أمكن زرع الارض بحبات جديدة ؟ ! ...
ـ ينمو شجر أخضر ...
ـ وفى دائرة الظل ، وفى دوائر الظلال ...
ـ ينمو الحب ...
ـ تنمو روح الانسان ، تطرح عن كاهلها طعم الماضى المر ، تتركه أسفل قدميها ...
ـ بل بعيدا حتى لا ينمو ...
ـ ولـكن ...
ـ نعم ولـكن ...
ـ الاعرج قادم ، والخيط يلف الاقدام ...

تعليقات خاصة بالملمح الأول :

كان السلم خاليا وباب مسكنها مفتوحا ، وكنت جالسا على اول درجاته بعد أن أمرتنى أمى بالخروج من الشقة ، وحزينا رحت ارقب شكل سوره الخشبى المزخرف بكثير من النقوش المبالغ فى تصويرها ...

شعاع من الشمس يأتى من فتحة فى جدار السلم رسم مربعا من الضوء امام مدخل مسكنها ...

برزت من الباب المفتوح ، الشابة ذات الجسم الرفيع المستقيم فى رشاقة ، أشارت الى ، ذهبت ، جذبتنى الى الداخل واغلقت الباب ، كان الجو فى الداخل خانقا ، رائحة بخار الماء ونوع من الصابون المعطر ، سجادة قديمة تغطى الصالة ، مربعات البلاط تسخر من السجادة وتظهر فى تحد ، تبدو السجادة ضئيلة وخجول ، تعلقت عيناى بمربعات البلاط ...

سحبتنى من يدى الى حجرة بالداخل ، الحجرة صغيرة وضيقة ، رائحة أرز مسلوق تفوح بشدة ، سرير معدنى بجوار الحائط ، دولاب ملابس ، مرآة كبيرة مصقولة ، ارتمت الفتاة على الفراش وتأوهت وهى تقول :

ـ ماذا تفعل أمك الآن ؟ ...

ـ لا أدرى ...

ضحكت بصوت عال ، تقلبت على الفراش بسرعة ...

ـ هل تحب الحلوى ؟ ...

ـ لا ...

مدت يدها بقطعة من السكر ، مددت يدى لآخذها ... سحبت هى يدها فى آخر لحظة ...

ـ ليس الآن ...
ـ انا لا احب السكر ...

انطلقت تضحك فى سعادة ، وجنتاها تتكوران فى بندقة حمراء ، أسنانها صغيرة بيضاء تلمع فى الضوء ، أسفل الذقن خط مائل ! تصنعه ضحكتها ، فمها ينفرج ويتقوس ، يدها ممدودة بقطعة السكر ...

ـ قل لى ... ماذا تفعل الآن ...
ـ من ؟ ...
ـ أمك ...
ـ لا أدرى ...

كان فى امكانى الهرب ، الصراخ ، القفز من النافذة ... ولكنى كنت نائما ، غارقا فى عالم لم أكن أفهمه وقتها ، نظراتى معلقة بقطعة السكر ، تأوهت فى تلذذ وهى تقرب قطعة السكر من فمى...

ـ انت تعرف بالطبع ياعفريت ...
ـ قلت لك ... ...
ـ لا ، لست طفلا حتى لا تعرف ماذا تفعل أمك الآن ؟... لماذا تتظاهر بالغباء والجهل ؟ ... هه ؟ ...

تناثر شعرها فى انفعال ، تكومت على نفسى فى خوف ، اعتدلت فى جلستها ، ابتسمت فى ود مرة ثانية ، وقفت ، قالت :

ـ دعنى أريك شيئا ...

خلعت ثوبها المنقط بنقط حمراء وسوداء ، رداء داخلى مطرز مائل الى اللون الاحمر ، مشت حتى وقفت أمام المرآة ، وضعت يدها فوق رأسها وراحت تهبط بهما فى بطء وهى تتحسس جسدها فى ليونة ، نهداها بارزان فى توتر ، صدرها يعلو ويهبط فى عصبية ، شرعت تتحسس بطنها فى حركات دائرية ، تمطت واصدرت أنينا يشبه أنين الطفل ، مدت يدها بقطعة السكر مرة ثانية ، ومرة أخرى أمد يدى فتسحبها قبل أن أنال السكر...

ـ والآن ، ماذا ترى ؟ ...
ـ انت قليلة الحياء ...
ـ انت عبيط ...

دارت بجسدها دورة كاملة ، تطاير شعرها وكون هالة من

اللون الاسـود حول راسـها ، خلعت ثوبها الداخلى ، بدت عارية تماما ، شعرت وكأنى اسـقط فى هوة سحيقة ، حاولت ان أصرخ ، لم يخرج صـوتى ، رقدت هى على الارض ، كان جسـدها العارى يبدو متماسكا ومشدودا فى توتر ، وضعت قطعة السـكر فوق بطنها ، نظرت الى قطعة السكر باشتهاء ، كنت خائفا ، صهلت فيما يشبه البكاء والضحك ، رفعت يديها نحوى فى رجاء ، تصـارعت فى ذهنى دوامات العيب ، احسست رغبـة فى القىء ، حاولت مجاهدته ، ترنحت ، اندفع سيل اصـفر من فمى يأتى القىء فى نوبات سريعة متلاحقة ، اشعر بألم فى صـدرى ومرارة فى فمى ، انتفضت الفتـاة فى ذهول ، راحت تجفف جسـدها بسرعة وهى تدفعنى الى الخارج ...

لم اعد اطيق رائحة الارز المسلوق ، انظر الى أمى فى ريبة كلما طلبت منى الخروج ، تشابكت مربعات ضوء الشمس مع مربعات بلاط الصـالة مع رائحة بخار المـاء ونسجت فوق رأسى شـبكة من الاسئلة ... منعنى وجل العيب ان أواجهها مرة اخرى ...

ــ عيسوى ، ماذا يفعل النساء عادة فى الظهيرة ؟ ...

حك راسه ، وغمغم قائلا :

ــ لا أدرى ، ولـكن ...

ــ انت تعرف ؟ ...

ــ نسأل احداهن ...

ضحك عيسوى فى سـعادة وجرى نحو مركب قادم ، رفع يده محييا رجلا فوق ظهرها ، رد الرجل التحية فى بشاشة ...

عاد عيسوى وبصق على الارض ...

ــ كاتى ... ماذا تفعل النسـاء عادة بمفردهن ...

ــ ما يحلو لهن ...

ــ مثل ؟ ...

ــ ولمـاذا تريد ان تعرف ؟...

ــ الآن ... لا شىء ... لا شىء ...

الرغبة فى التحرر تدفعنى الى صعود اعلى الابراج ، هناك يمكن ان يتحد الواحد مع الـكل ، ليرى كل شىء ويعلم كل شىء دفعة واحدة ...

ـ كاتى ، اننى حزين ... اننى رايت ، رايت امى ...
ـ متى ؟ ...
ـ فى الليـل ...
ـ ماذا كانت تفعل ؟ ...
ـ أشياء عادية ...
ـ وما الذى يضايقك اذن ؟ ...
ـ اننى رأيتها ... ...
ـ كانت تقوم بأعمال عادية كما تقول ...
ـ أقصـد ... انت تفهمين ...
ـ انت تهذى ...
ـ لا ، أقول اننى رايت ... اننى لم أعد جاهلا ، لم أعد طفلا... لم تعد الاشياء كما كانت ، تفتت الى اشلاء وقطع قبيحة الشكل
ـ انت مصاب بالحمى ...

صوت وابور الجاز قبل الفجر وطنينه يملأ أذنى ، يكر كقطعة سوداء ترقد فوق وسـادتى ، ورائحة بخار المـاء ... وصوت أمى مشروخ ، وارتطام الابريق النحاسى ، وطرقعة قطعة بخور ، وعواء كلب ، وأخيرا صوت المؤذن ، وغمغمة أبى ، وبصاقه وتمتمته ، أضع العالم فوق رأسى وأنام ...

ـ يجب أن تشرب كوب اللبن ...
ـ لا ترفض طلب أمك فى الصباح ...
ـ انا لا أحب ...
ـ الجنة تحت اقدام الامهات ...
ـ انا لا أحب ...
ـ انت دائما هادىء وطيب ولم ترفض لى طلبا ...
ـ ولـكن ... ...
ـ اشرب ياحبيبى ...
ـ أنا ... ...
ـ تحب أمك ، وهى تحبك ، انت نور دنيـاها لولا انت ما كنت اعيش ، ما كنت اتحمل هذا الهوان ...

وتدمع عين امى ، يسيل دمعها فوق خديها ، رائحة العرق نتنة ،

شعرها لايزال هائجا ، تحاول ان تبعده عن وجهها …

ــ أمى …

ــ نعم ياولدى ، لولا انت لتركت الدنيـا وما فيهـا … ولـكنك تجعلنى اتحمل ، اعيش فى الذل دائما … لم تـكن لى هذه الحياة ، كانت أمى تقول …

ــ أمى …

ــ ولـكن الله يرحم أمى …

ــ أمى …

ــ هو الذى فعل بى ذلك ، كانت أمى تود أن … …

ــ أمى …

ــ اشرب اللبن يابنى …

ــ لا أحبه …

ــ لايهم ، ملعون ابن ملعون ، اذهب الى جهنم لن تشرب أبدا ، لن تطول بك الحياة لتشرب حتى المـاء …

ــ أمى …

ــ اغرب عن وجهى انت نجس مثل ابيك …

ــ أمى …

ــ الله يقصف عمرك وعمر ابيك ، اكلتما عمرى ولا تشبعان …

الشــارع صـغير ، والمـارة كثيرون ، والمدرسـة بعيـدة ، نساء كثيرات وفقـيرات أيضـا ، عيسوى يقف امام المدرسة ، مشـاجرة وقعت بين اثنين من التلاميذ ، لقد سب أمه … والآخر بادله سبابا بسباب ، عيسوى يفض المشاجرة وهو يضحك ، احسست برغبة فى أن اتشاجر مع أحدهم … اقتربت من التلميذ الاول …

ــ انت دائما بذىء اللسان …

ــ انا ؟ ! …

ــ نعم ، انت …

ــ وانت ايضا … …

تدخل عيسوى ، حاول ان يبعدنى عنه … ولـكنى كنت راغبا فى

المتشاجرة ، رفعت يدى وهويت بها عليه ، حاول عيسوى مرة اخرى ان يتدخل ، سبه التلميذ فى صفاقة ، قذف عيسوى بكتبه ... وانهال عليه ضربا ، تجمع اصدقاء الطرفين وتطورت المشاجرة ، بعد ساعة تمكن ناظر المدرسة من فض المعركة ، ووقف ووجهه محتقن بالغضب ، تحدث طويلا بصوت عال ، انهى حديثه قائلا :

ـ انتم مثل ديدان الارض ...

ايضاح بعض التعليقات الخاصة بالملمح الأول :

اقسم أبى أمام الرجل انه دفع مائة جنيـــه ، وانه لا يحب الخداع ولا الــكذب ولا الغش ، وانه لاينوى أبدا أن يلوث يديه على آخر أيامه بالحلف كذبا ... وانه يقول الصـــدق ... وليس غير الصدق ، وانه يــكل اعباء اسرته على الله ، ولــكن الرجل ابتسم وتمطى فى مقعــده ولم يصـــدق يمين ابى ... بل اقسم انه لن يستمع الى أبى وهو يقسم لأن هــذا حرام ... وليس له علاقة بما يفعلان الآن ، ولــكن ابى بعد أن احتسى كوب الشاى الرابع ، اقسم مرة اخرى على ان قسمه صحيح ويمكن التأكد من ذلك ...

كنت واقفا أمام الموقد الصغير أصنع لأبى ولضيفه الشـــاى ... وكنت حزينا من أجل أبى ، انه يقسم ويتصبب عرقا ... بل ويبـــذل مجهودا عقليـــا وجســـــــديا فوق طاقتـــه ، انه لا يهدأ أبدا على مقعـــده ، ولــكن ما يحيرنى فى الأمر انه يقسم حتى الآن على أشياء كثيرة فى وقت واحد ...

ــ عيسوى ، انت دائما تــكذب ...
ــ ها ... وانت ... ألا تفعل ؟ ! ...
ــ لا ...
ــ هذه واحدة ...
ــ ولــكنى ... ...
ــ لا تغضب ... هناك نوعان من الــكذب ، الابيض ... والاسود...
ــ الابيض ؟ ...
ــ الابيض ... هو ان تــكذب لسبب هام ...
ــ والاسود ... ؟
ــ هو أن تــكذب بدون سبب ...

ـ ولـكنك تقسم على صحة ما تقول ؟ ! ...
ـ لـكى يصدقنى الناس ...
ـ ولكنهم يعرفون السر ؟! ...
ـ وهم أيضا يقسمون ...
ـ ولـكن ... ...
ـ لقد صدعت راسى ، هل اتيت بالنقود لندخل السينما ؟ ...
ـ نعم ...
ـ هل قلت لهم اننا ذاهبان الى الســـــينما ؟ ...
ـ لا ، قلت اننا سنشترى كتبا ونذاكر ...
ـ ها ... انت صديقى العزيز ... حقا ...
ـ ... ...
ـ انتبه الى براد الشاى ياولد ...

براد الشاى كاد ينقلب ، وضعته على المائدة ، رحت اصب الشاى فى الاكواب ، بعد أن فرغت ... تذكرت ان الاكواب لم تغسل ، قدمت واحدة الى ابى ... والاخرى الى ضـيفه ، حاول الضيف ان يعتـذر ، اقسم عليه ابى أن يأخذها ...

قال لى ابى :
ـ هل غسلت الاكواب جيدا ؟ ...
ـ هه ... طبعا ... جيدا ...

كادت الـكوب تسقط من يدى ، ولـكن الضيف أسرع بأخذها ، نظر الى فى اشفاق ، راح يستعرض عواطفه الابوية ...
ـ تبدو عليه النجابة ! ! ...

ابتسم ابى ، وقال :
ـ دائما فى مقدمة فصله ...

علق الضيف :
ـ حسنا ، سيصبح مهندسا ... او طبيبا كبيرا ...

تواضع ابى ... وحاول أن يبدو خجلا :
ـ على الله ، هه ... نحن نبذل جهدنا ، لا نتأخر عليه فى تلبية كل طلباته ،اننى أحيانا أبذل فوق طاقتى من أجله ...

غزت لهجة أبى منطقة الحب فى قلبى ، وشعرت نحوه بالامتنان...

هز الضيف راسه ، وقال :

ـ ولماذا لايذهب الى المنزل ليذاكر دروسه ؟...

هب ابى واقفا وهو يرتشف الشاى بصوت مسموع ... وقال :

ـ انه يساعدنى قليلا ، ليعرف كم اقاسى من أجله ...

ـ ولكنى كلما اتيت الى هنا أجده ، بل انه يعمل فى الدكان طول الوقت ، بل أكثر منك ...

كشر أبى عن انيابه ، وغضب لهذه الملاحظة ، ويبدو انه قرر ان يفعل شيئا ، ولكنه تذكر سبب وجود الضيف ... تناسى غضبه وابتلعه بسرعة ، بل حاول ان يعيد الحديث الى سابقه ، احس الضيف انه لم يعد مرغوبا فيه ، تناول حافظة نقوده ، واخذ يستخرج منها اوراقا نقدية ممزقة وقذرة ، اشار الى أبى أن يمد يده ... عشرة ... خمسة عشرة ... ثمانون... ثلاثة وثمانون... خمسة وثمانون ...

ساد الصمت ، أعاد الضيف حافظة نقوده الى جيبه ، نظر أبى الى الاوراق المالية التى ارتفعت فى يده ، مضت لحظات قبل ان يخرج صوت أبى متحشرجا وهو ينظر الى ما فى يده من مال ، قائلا :

ـ ولكن ... ...

وقف الضيف فجأة ، وخرج القسم من فمه قويا وغليظا وواضحا ، لن يدفع مليما واحدا بعد ذلك ، وهذه عليك والاخرى علينا ... والدنيا اخذ وعطاء ... كان حازما وفاقد الصبر ...

حاول ابى ان يتخلص من تأثيرالاوراق ، جمعها فى قبضة واحدة... ثم وضعها على المائدة ... وراح كل منهما ـ أبى والضيف ـ يتسابقان فى القسم واخيرا فتش الضيف جيبه حتى عثر على بعض الاوراق المالية الصغيرة وراح يبعثرها على المائدة بجوار كومة النقود ...

ذهب الضيف ، وجمع أبى النقود ووضعها فى جيبه وهو فى غاية السعادة وقال فى انتشاء :

ـ لم تطلب أمك حتى الآن شيئا للعشاء ؟

ـ ارسلت تطلب مقدارا من الارز ...

ــ ارزفقط ، لا يصلح ، وخاصة هـــــذه الليلة ، سأذهب لاشترى لحما ، ويكون العشاء ارزا ولحما وثريدا ...

ــ ولــكنى لا احب ...

ــ انت ابن امك لا تحب شيئا ، وكأن مرارة الدنيا فى فمك ...

بصق على الارض وخرج غاضبا :

ــ عيسوى ، هل تحب اللحم المسلوق ؟

ــ أنا احب كل أنواع اللحم ...

ــ المسلوق ؟ ...

ــ ها ها ... وأين هو اللحم ؟ ...

اقترب الليل ، جلس أبى أمام الدكان ... وجلس اليه رجل آخر

ــ علمت انك بعت اليوم ...

صمت أبى ــ فــكر طويلا قبل ان يجيب ...

ــ ويا ليتنى ما فعلت ...

نظر الرجل الى ساعته ، طلب سجادة الصلاة ، كبر بصوت عال وهو يخلع حذاءه ، اعتدل واقفا فوق السجادة ، سأل أبى فجأة :

ــ كيف ؟ ...

نهض أبى واقفا ...

ــ جماعة ان شاء الله ...

ــ ربنا يفتح عليك ...

كبر الرجل مرة ثانية بصوت اقوى ، نظر الى ابى فى مكر وقال:

ــ خسارة ...

اجابه أبى دون ان ينظر اليه :

ــ نعم والله ، خسارة ... والف خسارة ! ...

أقام الرجل الصــلاة ... تلا بعض الآيات ، وقع ابريق الشاى من يدى ، انسكب على الارض ، افترش الشاى الاسـود وجـه البلاط ، ملأت البراد سريعا بماء جديد ، اسرعت بتجفيف الشاى المسكوب ، ادى الرجل صلاته وبعده أبى ، قاما فى تثاقل وجلسا على المقاعد مرة أخرى ...

ــ انهم يقولون غير ذلك ! ...

ــ اقسم بالله اننى خسرت فى بيعها نصف الثمن ...

ـ لا تقل هذا ... فلن اتقاض منك شيئا ...

راح أبى يقسم انه خسر ، وانه باعها احتياجا للمال ، وانه مدين بمبالغ كبيرة ويخشى ان يحجزوا عليه ...

ذهب الرجل بعد ان شرب الشاى ، ولكنه كان حزينا وهو ينصرف ، شعرت ببعض الدوار وجفاف فى الحلق ، ورائحة السبرتو المحترق تزكم أنفى ، وصورة الرجل الحزين تتوارى ، ضحك أبى فى نشوة وهو يقول :

ـ ارجو ان تطهو أمك اللحم جيدا ...

وتحسس موضع معدته فى تلذذ ، وتمطى فى كسل ، قلت :

ـ هل بعت بخسارة اليوم فعلا ؟ ...

ـ الرزق أسرار يابنى ...

ـ ولكنك تقسم انك خسرت ؟ ...

ـ انه الكذب الابيض ، تعلم ... هل ستظل جاهلا حتى تموت نحن هنا نتاجر ، نبيع ونشترى ، نكسب دائما ويجب ان نكسب...

تمطى مرة أخرى وتحسس أسفل بطنه ...

ـ نحاول ان نعيش ، اذهب الآن الى أمك واخبرنى عن الطعام...

***

ـ أمى ... لماذا انت حزينة ؟ ...

ـ انا لست حزينة ياولدى ...

ـ ولكنك تبكين ؟ !

ـ لا شىء ياولدى ... لقد تذكرت أبى ...

ـ ولكنه مات من زمن ؟ ! ...

ـ وهذا ما يبكينى ...

ـ كيف كان شكله يا أمى ؟ ...

ـ رجلا رائعا ...

ـ أكان يكذب ؟ ...

ـ مطلقا ...

ـ وماذا كان يعمل ؟ ...

ـ بعض التجارة ، بعض الزراعة ، وأعمالا أخرى ...

ـ ولكن أبى يكذب ...

ـ ويفعل اشياء كثيرة ... وضيعة
ـ وانت ايضا يا أمي ...
ـ كيف هذاياولدى ؟ ...
ـ قالت لكجارتنا على بعضالزيت وانكرته واقسمتعلىذلك...
ـ ولـكن ... ...
ـ ولـكن ليس هـذا صحيحا ، هذا كذب ...
ـ فقط ياولدى ...

خجلت ان أقول لأمي اكثر من ذلك ...

كانت تـكلفنى بأشياء افعلها او اقوم بها من أجلها ، وكانت ـ كل مرة ـ تجعلنى اقسم الا اخبر أبى ، وكان يسعدنى ان تثق بى ، افتخر بذلك دون أن اخبر أحدا ...

وضعت فى يدى يوما مبلغا كبيرا من المـال ...

ـ خذه الى خالك ، قل له ان يضع هذا المبلغ مثل كل مرة ...
ـ أين ؟ ...
ـ هو يعلم ...
ـ واذا سألنى أبى ؟ ...
ـ وكيف سيسألك ابوك ، عليك الا تخبره بل يجب ان تقسم الا تخبره ...
ـ واذا اخبرته ؟ ! ...
ـ سأغضب منك ، بل لن اصير امك ، ولن اعطيـك نقودا ولا طعاما ، بل سأخبر أباك بانك سرقت منه ، يوم الجمعة المـاضى عشرة قروش ...
ـ ولـكنى ... ...
ـ اقسم انك لن تخبره ...
ـ اقسم ...
ـ انها الايام ياولدى ، ولا ادرى ما الذى يفعله ابوك فى الغد ، ربما يطردنا من بيته ، هل نصبح عالة على النـــاس نتسول فى الطرقات ؟ ...
ـ نتسول ؟ ! ...

ـ نعم اذا لم نـكن قد دبرنا امرنا مثل ما نفعل الآن ... انا ... وانت ...
ـ لن اخبر أبى ...

***

ـ أبى ...
ـ ماذا ياولدى ؟ ...
ـ جاءت سيدة وسألت عليك ...
ـ سيدة ؟ ما شكلها ؟ وما اسمها ... ماذا قالت لك ؟ ...
ـ انها بيضـاء طويلة ... شعرها يميل الى اللون الاصفر ، كانت تلبس ...
ـ آه ... انها عميلة جديدة ...
ـ عميلة !... لا ، قالت لى انها صديقتك !...
ـ عميلة صديقة ، شيطانة ... دائما تفعل هذا كلما حضرت الى هنا ... ومع كل التجار ...
ـ وقالت انها تريدك ان تذهب اليها اليوم فى المساء لأمر هام ... فى دارها
ـ اليوم ؟ ... فى المساء ... فى بيتها ...
ـ نعم ...
ـ زوجها لابد انه مريض ، وربما أبوها ...
ـ كيف ؟ ... انها تقيم بمفردها ...
ـ وكيف عرفت ؟ ...
ـ كل الناس تعرف هذا ، وقد ارسلتنى يوما الى منزلها بعلبة صغيرة ...
ـ وهل اخبرت امك بذلك ؟ ...
ـ لا ... ...
ـ انت رجل ، وهـذه الامور لا يفهمها الا الرجل ، انها لا تفهم وانت تعرف عقل أمك ...
ـ لن أخبر أمى ...
ـ بل اخبرها اذا اردت ، فانت ولد جبان تميل إلى أمك ولا تفهم اباك ، انك أنثى ...

ــ ولــكن يا أبى ...
ــ اخبرها حتى اعرف انك انثى ...
ــ أبى ... ...
ــ أسرار العمل يجب الا يعرف بها النساء ، النساء فى المنزل فقط يقمن بعمل أشياء تافهة ، ويفكرن فى أشياء صغيرة ، انهن ناقصات عقل ودين ، والعمل يفسد المرأة ، كما ان الرزق يضيع اذا عرفت سره النســاء ...
ــ عيسوى ، أبى يذهب الى بيت مديحة ...
ــ وماذا فى ذلك ؟ ...
ــ انها سيدة تعيش بمفردها ، كما يقال ...
ــ حقيقة انه رجل يفهم فى اللعبة ... ياسويس ... المهندس يذهب الى منازل الفتيات ، يذهب الى حجراتهن الداخلية حيث ...
ــ لا تضحك أرجوك ... ماذا أفعل ؟ ...
ــ قل لأمك ...
ــ وماذا يمكنها عمله ؟ ...
ــ تعرف الحقيقة ...
ــ وبماذا تفيدها الحقيقة ... ستحزن كثيرا وتبكى ... وربما ...
ــ يجب ان تعرف أمك الحقيقة ، هذا اذا لم تكن تعرف حتى الآن
ــ سيضربها أو يضربنى ، وربما يطردنا من المنزل ...
ــ جبان ... هيا نذهب الى السينما ...
ــ اننى أريد ...
ــ دعك من هذا ، سوف نحاول دخول السينما اليوم بطريقة مبتكرة ...
ــ دون نقود ؟ ... وكيف ؟ ...
ــ سأخبرك فى الطريق ، هيا بنا ...
ــ سأخبر مدير السينما بأن نعيمة ...
ــ الفتــاة التى ...
ــ نعم ، سأخبره انها تنتظره فى ...
ــ وهل هى أخبرتك بذلك ؟ ...
ــ ... ...
ــ كاتى ، أريد كوبا من الشــاى ...
ــ لايوجد لدينا شاى ...

ــ عقلي به خلل وطنين ، أتمنى بعض الشاي …
ــ لا نملك نقودا …
ــ يجب أن ندبر طريقة ما نحصل بها على ما نريد …
ــ كيف ؟ …
ــ سأخبرك فيما بعد …
« … ياغريب …
يا ساكن السويس ، يا مالك كل الأسرار …
تعرف ان الحبة لا تنبت كل الأزهار …
وان النبت الاخضر ، لا ينمو … لا يثمر …
فى الليل … لـكنه يحتاج الى نهار …
والليل الاحمر طال …
ياغريب … »

حينما تتجمع كل معالم الملمح الأول :

فى المساء جاء الاعرج ، يبدو انه ثمل بعض الشىء ، خلفه تزحف فى فوضى المرأة المترهلة ... صاح فى صوت مبحوح :

ـ انت هنا ياصديقى ! !

صديقى ... لم أجب ، اصبحت صـــــديقا لقاطع طريق ولص حرب ، انه يتدحرج من عش العنكبوت الميت ، يمكننى ان أهرب ولـكن خيوط العنكبوت علقت بذقنى ...

ـ لم يعد لنا فى المدينة ســواك ياصديقى ، أنا وهــذه المرأة المسكينة ...

ـ وأين الباقى ؟ ...

ـ خافوا وهربوا ، انهم جبنــاء يخشون رجال الجيش والحاكم العسكرى ...

ـ هذا حق ...

ـ انهم يعملون بالتهريب الآن ...

ـ لصوص ... خونة ...

ـ انهم يلطخون سمعة بلادهم ، يهبون الاعداء فرصــة ذهبيــة للتشهير بنا ، ويهربون أموال البلاد الى الخارج ، ولـكننا هنا ... انـكفأت المرأة على وجهها وهى تقول :

ـ نحن شرفاء ، اليهود يدمرون المدينة ونحن نحاول انقاذ ماتبقى

قال الرجل ، وهو ينظر اليها ، فى صوت عال :

ـ نحن نخدم البلد ، بلدنا ...

ـ ها ...

ـ تضحك ؟ ... أو ليس هذا عملك معنا ؟ ...

ـ اننى ... ...

ـ انت رجل …
انـكمشت كاتى فى زاوية من الحجرة ، بدأ ضرب المدفعية فجأة فى طلقات سريعة متتالية ، صاح الاعرج ولعابه يسيل من فمه :
ـ الله ! … حطموا كل شيء … كل شيء …
ـ ياقذر …
امتعض الاعرج وصاح :
ـ هذه مدفعيتنا ، نحن ندمرهم الآن …
ارتفع الضرب ، زادت نسبة تردد الطلقات ، شـعرت بالأمان ، الرغبة فى الموت تعطى لمسة أمان حقيقية ، اقترب الاعرج وهمس :
ـ لدى خطة رائعة ، سوف نكسب منها أموالا طائلة …
ـ لا أريد ، اننى …
ـ لا … انت معى الآن ، تذكر هذا …
ـ ولـكنى لا أريد …
ـ لم يعد لك الآن حرية الاختيار …
ـ كيف ؟ …
ـ لقد اشتركت معى من قبل ، يمكننى ابلاغ الحاكم العسكرى .. وساعتها سيعلقونكما … انت وهذه الشيطانة … فى خطاف …
تحسست رقبتى ، مادت الارض من تحت قدمى ، شعرت بسعار حار فى بطنى …
ـ خطاف … ؟ !
ـ ويشنقونـكما مثل الجواسيس …
تشجعت ، حاولت اختراق حاجز الخوف …
ـ وانت ستشنق أيضا …
ـ ها ، ابدا سآخذ مكافأة سخية …
ـ يا كلب …
ضحك فى وحشية ، استل من جيبه الداخلى زجاجة صغيرة راح يتجرعها دفعة واحدة ، ثم قذف بها بكل قوته فتهشمت بصوت مدو ، جعل تيجر يتداخل فى نفسه ويشتكين فى خوف ، أما كاتى فراحت تصرخ وتولول فى حركات عصبية لم يكن لها ما يبررها ، والرجل الاعرج يضحك …

— ماذا تريد ؟ ...
— أن تذهب معى ... وبمفردك ...
— كيف ؟ ...
— ستبقى هذه العجوز مع فتاتك حتى نعود ...
— والى أين ؟ ...
— الى المعامل ...
— لا ... لا أستطيع ، كنت اعمل هناك ... و ...

قفز الاعرج على قدم واحدة ، صرخ بصوته الرفيع ، ورائحة الخمر الرديئة تهب من جوفه ...

— هيا بنا ... اسرع ...
— لايمكننى ...
— يا مجنون هـذه فرصتنـا الوحيـدة ، ولم اكن اريدك الا لها ... بعدها نصبح أحرارا ... تـكتظ جيوبنا بالمـال ... لم تصنع لى شيئا حتى الآن ، كنت استطيع بمفردى ان افعل ما طلبته منك من قبل ، أما اليوم ...
— ولماذا اليوم ؟ ! ...
— انك تعرف المعامل وتعرف اثمن مافيها ...
— لا أريد ان أخرب مصدر رزقى ...
— تخريب ؟ ! ... وما تفعله القنابل والدانات ... تشييد ؟ سبق ان قلت لك اننى انقذ الاشياء الثمينة لمصلحة بلدى ...
— ان الشركة تفعل هذا ...
— تفعله ببطء ، تفعله وفقا لطقوس تأخذ وقتا ، ويضيع الكثير بسبب هذا لأن التخريب لا يحتاج الى كل هذا الوقت ...
— أرجوك لا اريد ان أذهب الى هنـاك ، اننى أقترح جمـع اجهزة التليفزيون من المنازل التى تركهـا أصحابها ، او على الأقـل أخذ أهم الاجزاء ...
— هل تتصور اننا وحدنا هنا ؟ ... هناك كثيرون يتاجرون ... ثم ان الجيش بدأ يتدخل وسيفرضون حراسة مشددة لايمكن الفرار منها ...
— لا اريد ، حتى لو أردت لا استطيع ...

ـ يجب ان تذهب معى ... رغبت أم لم ترغب ...

استقام كأنه شيطان ، جذبني بعنف ، حاولت ان اتشبث بالارض ان ارفض ، صهلت المرأة ، نظرت اليها كاتى فى خوف ، وفى لحظة كانت المرأة قد بركت فوق صدر كاتى وفى يدها سكين طويلة ... اهتز الرجل الاعرج فى ضحكة خشنة وقال :

ـ لا تخش شيئا ، انها امرأة مجنونة ، واذا لم تذهب معى ستقتلها فقط ...

ـ سأذهب معك ، ولـكن ارجوك دع كاتى تأتى معى ... وكأننى فى يد شيطان ، لم يكن أعرج ، وكان حصانا شريرا يجر عربة الاله « ست » كبير الشياطين فى البر الغربى ، جرنى خلفه فى غلظة ، اندفعنا فى الطريق والقصف يزداد ، الغارة تشغل كل الآذان والعيون

اقتربنا من معامل الفحص ، كنت اعمل هنا منذ فترة قصيرة وكنت ادخل ساخطا واخرج ساخطا ، وتبـدو لنا الاجهزة التى نعمل عليها كريهة وبغيضة ، كما كانت النتائج التى كنا نحصل عليها لا قيمة لها ، أشياء جاء ذكرها حينما اكتشفوا البترول لأول مرة ...

باب المعمل مهشم وجزء من الحائط قد تحول الى كومة رماد ، مائدة تحمل مجموعة من الاجهزة تلمع فى الظلام فى تحد ، لهث الاعرج

ـ كل شىء على ما يرام ...

اصطدمت ببعض انابيب الاختبار ، وقعت احداها ، ارتمينا على الارض فى خوف ، قررت قتل الاعرج ، تشبثت يدى بقضيب حديدى حاولت جذبه ، صاح الاعرج :

ـ دعه مكانه ، اننى ارقد عليه ...

ايها الحيوان الشرير سوف اقتلك واقتل نفسى ايضا ، سوف اقتل الخوف فى قلبى ...

ـ هيا الآن ، اعتقد هنا توجد بعض الاجهزة ذات القيمة ...

ـ لايوجد هنا سوى حوامل الانابيب ...

ـ فقط ؟ ! ...

ـ اعتقد ذلك ... ثم انها من الخشب لا قيمة لها ...

شعرت ان الدنيا تدور بى ، الم حاد يشج رأسى ، الشرير لكزنى

فى جنبى بعنف ، الملعون يهددنى ... سوف اقتله ، سوف ... ...
— لا تجبرنى على فعل شىء ضدك ...
— انا ...
— انت جبان ...
— ولـكن أنا ... ...
— لن تجديك بلاهتك ، قم ...
المائدة تحمل أجهزة قياس ذات حساسية فائقة ، انها حديثة ، وردت الى المعامل منـذ فترة قصيرة ، قالوا يومهــا — يوم ان وضعوها هنا — ان ثمنها يفوق ثمن المعمل كله ولم نستعملها حتى الآن ، لأن العدوان حدث بعد تركيبها مباشرة ... أشرت للأعرج :
— هذه أغلى ما فى المعامل ...
ضحك بصوث خبيث ... وحك راسه بيده :
— كنت اعرف ذلك ...
— ولمـاذا أتيت بى الى هنا ؟ ...
— لأنهم اذا اكتشفوا سرقتها وحاولوا أن يتهموا احدا فلن يتهموا سواك ...
— يا قذر ...
— انت هنا فى السويس ، وكنت تعمل هنا قبل العدوان وتعرف قيمتها ...
— وماذا يفيدك فى ذلك ...
— ها ... لا شىء ...
— ياندل ... سوف اقتلك ...
— انت جبان ...
انى أولول مثل امراة فى القرن المـاضى ، اكاد احس بما انا فيه من قذارة ، بل اننى أحسها بالفعل ولا أفعل شيئا ، فقط أود أن أفعل ...
عدنا ، كانت المراة المترهلة ، ما زالت تكتم انفاس كاتى ، ولكنها اندفعت نحو الاعرج حينما رأته وراحت تقذفه بالسباب لأنه تركها بمفردها أثناء الفارة وكانت خائفة ...
كاتى تحركت وهى تشهق بصعوبة ، جسدها كله مبتل كما كانت

ترتعد ، جريت نحوها ، كنت أحس بأنهـا تمقتنى ، ولـكنها ارتمت فى حضنى ... وظلت تبكى .

توقف القصف ، ران الصمت ، تحولت السماء الى نجوم تومض فى سوادها ، تعطى شعورا بالامتداد واللانهائية ...

أيها العجز الرابض فى قلبى...كيف اتخلص منك كيف أثور عليك؟ كيف أتحرر من قبضتك ، أريد أن أخرج من هذا الجحر الضيق الذى يكتم أنفاسى ...

ــ كاتى ...

ــ هه ...

ــ احبك ...

ــ حقا ؟ ! ...

ــ نعم ، احبك ...

ــ وانا أيضا ...

ــ ولـكننى أشعر ... ...

ــ لا شىء ... لا تقلق ...

كان عيسوى يغنى للقمر ، اغنيات لم ترد على الاسماع من قبل وكان يوشك على البكاء وهو يترنم بها ...

« صعد الى السماء ، وبعد أنجلس واستراح فىجلسته ... نظر الى اسفل ، وجد ارضا تنبت سحالى خضراء ، السحالى ترقص وتغنى للآلهة ، غضب غضبا شديدا وقام ، ابتعد كثيرا عنا ... »

ــ عيسوى يا مجنون ، القمر لا يأتى الا فى منتصف الليـل ... ومنتصف الشهر ...

« ولـكنه نظر خلفه ذات مرة ليجد السحالى تجلس على مقـاعد الحكم ، وتعطى مفتاح آمون لـكهنة اتون الذين يرتلون تراتيل الاله رع بطريقة عكسية وهم يجلسون القرفصاء على شاطىء النيل ... لتمد يدك بالرحمة ، لتمد يدك بالسخاء ، لتمد يدك بعذاب القبـر الاسود ، لتمد يدك الى ذلك الانسان المخبول الذى يجلس على ميناء طيبة فى انتظار السفينة الذهبية ... »

ــ عيسوى كان مجنونا ...

ــ وكان يـكره الصوت ...

ــ وكان يــكره الحياة ...
ــ لا ...
ــ كيف ؟ ... وهو ...
ــ لا ، انه كان ...

كان يغنى للأبدية ، لعالم الخلود ، الموجود فى أرض طيبة ...

(... ياكهنة منف ، ياكهنة آلهة عديمة النفع ، صنعتموها بأنفسكم ومن أجلــكم ... اية قوة حقيقية كانت بداخلــكم ، بداخل أرواحكم مكنتكم من صنع العقيدة ؟ !

يا كاهن آمون المبجل ...

من أجلك اغنى ... وأنا جالس امام البحر ... حيث كان يجلس ذلك المدعو « سنوهى » المنفى بأمر الملك ، وهو يكتب الى الاله الملك ليرحم غربته وعجزه ويأمر بعودته الى داره القريبة من معابد الآلهة ... ليقضى بقية عمره فى خدمة مولاه الملك ... لك يا كاهن آمون اغنى لــكى تدلنى على سر غربتى ، حتى أعود ...)

ــ كاتى ...
ــ ماذا أيضا ؟ ...
ــ عيسوى كان حفيدا لأحد الرجال الفراعنة ...
ــ وماذا يقلقك فى هذا ؟ ...
ــ لا شىء ... اشعر اننى أنحدر من سلالة وضيعة ...
ــ كيف عرفت ؟ ...
ــ لأننى ما زلت اعيش رغم كل شىء ...

جدران من الطين :

كانت الورقة بيدى ، خرجت من المدرسة ، مشيت عدة خطوات فى الشارع متجها نحو البيت ، كانت الورقة بها عدة دوائر حمراء وأرقام صغيرة تتوسط الدوائر الحمراء فى خجل …

ـ ماذا تنوى عمله بها ؟ …

ـ لا أدرى ، أين ورقتك ؟ …

ـ ها … مزقتها …

ـ ولكنك حصلت على درجات جيدة …

ـ لايهم …

ـ الا تريد أن يراها شخص ما ؟…

ـ لا …

ما زالت الورقة بيدى ، ويدى الاخرى ترفع حقيبة كتبى ، الحقيبة ثقيلة فهى مصنوعة من الصناديق الخشبية التى ترد بها سمك الرنجة ، كنت أود أن أستبدل يداً بيد … ولكنى لم أفعل…

ـ مزقها …

ـ ولكن أبى …

ـ قل له لم نحصل عليها بعد …

ـ سوف يسألنى غدا …

ـ قل له نفس الكلام …

ـ سيسألنى بعد غد …

ـ اذن … ناوله اياها اليوم …

ـ سيضربنى …

ـ لا يهم … لن تموت …

ـ ولكنى اخاف خوفا شديدا …

ـ مزقها اذن ...

ـ أخاف ايضا ، انا ...

ـ انت جبان ...

اقتربنا من محل أبى ، كان الزحام من حوله شديدا ... لن يرانى سأذهب الى البيت مباشرة ، أحاول ان أتعلل بالزحام وأفلت منه ، مشيت على الشوك ، خائفا من أبى ، مشيت متلصصا ... اخترق صوته دائرة الزحام من حوله ... صفعنى الصوت بقوة ...

ـ استاذ ...

شعرت ان النداء اخترق عظمى ، استدرت فى رعب ، امتدت يده نحوى ...

ـ خذ هذا معك الى المنزل ...

تناولت اللفافة من يده ، كان غارقا فى عمله وفى عرقه ... ارتجفت يدى وأنا أتناول لفافة زرقاء صغيرة الحجم ثقيلة الوزن نوعا ما... مشيت عدة خطوات ، ارتفع صوته مرة أخرى ...

ـ سأحضر على الغداء بعد قليل ...

ـ حاضر ...

ـ اريدك أن تظل فى البيت لاننى فى حاجة اليك ...

اسرعت الى البيت ، أقدامى مخدرة ، فمى جاف ، أمعائى تتلوى ، طنين خلية من نحل داخل رأسى ، وكأن الخوف يتنفس داخلى ، لاشك انه سيظل يضربنى حتى الموت ، لقد اخبره ناظر المدرسة ، هو يعلم الآن ...

ـ ماذا بك ياولدى ؟ ...

ـ لا شيء ...

ـ لا شيء ؟ ... انك ترتعد وكأن بك حمى ...

ـ قلت لك لا شيء ! ! ...

اشاحت بوجهها فى ضيق ، انتابنى شعور بالخجل والألم من أجلها ماذا يجدى أخبارها ؟ ... ماذا يمكنها صنعه ؟ ...

انها تمقته وتخاف منه وكأنه عفريت سيأكلها ، اذا اخبرتها فلن أكسب شيئا ، ستظل ترتجف من الآن وحتى يأتى ، وربما أثر هـذا فى اعدادها للطعام وربما أخطأت هى أيضا ، ويصبح هذا

الخطأ جريمة تعاقب عليها هى الاخرى …
ــ ماذا بك ، اننى امك قل لى ؟ …
ــ لا شىء ، اشعر بصداع …
ــ سأصنع لك كوبا من الشاى …
ــ لا ، لا أريد …
ــ ياولدى …
ــ أمى …
ــ نعم ، لماذا لا تخبر أمك بهمومك ياولدى ؟ …
ــ ابى سيحضر للغداء ، هو قال ذلك …
كانت تفرش لى حنانها ، كانت تعرف ضعفى ، على استعداد للأخذ بيدى ، يمكنها ان تحمى صفيرها من أبيه ، ولكن هذا … انا لا استطيع أن اخبرها ، نسيت الصراحة حتى مع أمى …
ــ وانت ياولدى … ؟
ــ لا اريد طعاما ، أريد أن أنام …
جريت نحو فراشى ، وجدت أمامى نافذة مفتوحة ، فكرت فى الموت ، قذفت بحقيبتى ، تمددت على الفراش فى يأس ، سمعت صوت الباب ، ثم صوت أبى وهو يلوك بصقته فى فمه ثم يقذفها بعد فترة … ينادى …
ــ أستاذ …
قفزت من الفراش ملتاعا ، وجدته أمامى ينظر الى فى شك …
ــ الن تأكل معى ؟
ــ أنا …
ــ هل اكلت فى المدرسة ؟ …
ــ نعم …
تركنى ومضى يغتسل ، ترددت بعض الشىء ، احسست بالجوع ارتميت على فراشى مهموما …
اغمضت عينى ، شعاع من الضوء الحاد يخرق جفونى احاول ان استحضر بعض الصور ، غابات كثيفة فى سهول فرنسا ، غادة الكاميليا تأكل حبات الفول ، ثعبان هندى يتلوى فى مهابة ، مدرس العربى يصرخ فى غيظ ، أبى يأكل فخذ دجاجة ، مرق يسيل على

ذقنه وحول فمه ، شاربه الكث يأكل معه ...
ـ هل هو نائم ؟
أمى تستشعر ، بأن هناك شيئا ما ، ترتعد من الخوف ، تجيب
ـ يبدو انه مريض ...
استمر ابى يمضغ فى فخذ الدجاجة ، تجشأ ...
ـ مريض ! !

سمعت صوت الماء يتدفق فى فم ابى ، يمتصه فى رشفات سريعة بتلذذ ، فرسان « ديماس » كاتب فرنسا ، يتسابقون فى وديان باريس ، وقع أحدهم وضحك الآخران ...

سقط شعاع الضوء فوق راسى مباشرة ، لا أريد ان افتح عينى ، جحا لديه حل لكل مشكلة ، جحا يركب حماره ويهز قدميه ويضحك ساخرا ، ضحكت بنت السلطان وشعرت بالسعادة ، انتشر الخبر فى المدينة ... اتدرون ؟ ماذا حدث ... بنت السلطان ضحكت اليوم ... حقا ؟ نعم لقد رأت جحا يضحك فضحكت ... اذن ابقوا على جحا فى المدينة حتى يظل السلطان سعيدا بسعادة ابنته ... ونحن أيضا ...

دخل أبى الحجرة ، وضع يده على جبينى ...

ناديت على جحا ، لم يرد ، كنت أود ان أسأله سؤالا حول الخوف ، ولكنه لم يحضر ... خرج أبى من غرفتى ، قال لأمى :
ـ دعيه ينام ...

الكلمات تتقاذفها حوائط الصالة ، سمعت صوت الباب يغلق لقد ذهب ، دخلت أمى مذعورة :
ـ مابك ياولدى ...
ـ لا شىء يا أمى ...
ـ لا ، ليست هذه عادتك ، انت جائع ياولدى ، ذهبت . يحيرنى جحا بشخصيته الفريدة ، المرحة والجادة فى نفس الوقت ، لماذا لم يعلم الآباء هذه الحكمة ... ان تكون جادا ومرحا فى نفس الوقت ؟ عادت أمى بعد قليل ، حزينة مقطبة الجبين فى يدها طعاما ...
ـ خذ هذا الكوب ... انه مفيد لك ...

كوب الحساء دافىء ودسم ، سال لعابى ، أحسست بالمهانة ، تذكرت شكل البقرة ...

ـ وهذه القطعة من اللحم ...

كيف اتراجع ؟ لقد رفضت الطعام من قبل ، كيف أعود اليه ... ماذا تقول أمى ؟ لا ...

ـ لا ، لا اريد يا أمى ، لست جائعا ...

ـ من أجلى ، لكى أشعر بمعزتى عندك ...

ـ لا اريد ، يا أمى ...

اشعر بالجوع ، ارغب فى شرب الحساء ومضغ هذه القطعة من اللحم ، الطعام يبرق أمام عينى ، ينادينى ...

ـ فقط من أجل امك المسكينة ياولدى ، لا تحطم امالى فيك ... كنت دائما أقول انك ابنى وسندى فى الحياة ...

ـ أمى ...

ـ لن أحادثك الا اذا أكلت من يدى ...

انهارت الحصون ، لتذهب الكبرياء فى داهية ، تناولت الكوب من يد أمى ، له رائحة طيبة ، ملأ الحساء معدتى الخاوية ، المعدة المليئة تعيد الطمأنينة الى النفس ، الصدر يعلو فى تنفس منتظم ...

ـ أمى ...

ـ نعم يابنى ...

ـ لقد رسبت فى الامتحان ...

ـ ... ...

ذهبت امى لتصنع لى كوبا من الشاى ...

عادت بكوب الشاى ، نظرت الى وجهها ، لم يكن هناك مايوحى بما فى نفسها ، لا شىء ... فى يدها ، تسللت دمعة من عينيها ... تدحرجت على خدها ثم سقطت فجأة على صدرها ...

قفزت محزونا وجريحا ، احسست بالقهر ، اقتربت منى أمى ، رحت أهدهدها ، انهمرت دموعها فى شـــلال متدفق ، تحطمت الرؤيا ، اصبحت الالوان مختلطة أمام عينى ، راح كل ما تصورته وحاولت اتصوره ، تحطم ذلك الجدار الذى حاولت صنعه ...

ـ كاتى ...

ـ نعم ...

ـ انا أحبك ...

ـ وانا ايضا …
ـ ولـكنى خائف …
ـ وأنا ايضا …
ـ أريد ان أزيل جدران الخوف من حولى …
ـ وأنا ايضا …
ـ أريد ان أكون … أريد ان اصبح انا …
ـ وأنا ايضا …
ـ ضعى يدك فى يدى لنصنع ذلك المحال …
ـ ها هى ذى يدى …
ـ يدك باردة …
ـ من الخوف …
ـ ولـكنى اريد يدك قوية حارة …
ـ تغلبى على الخوف …
ـ الرجل الاعرج يريدنى …
ـ لا ، لا تقولى هذا ، لا يجرؤ أن يقول هذا …
ـ لقد طلبنى بالفعل …
ـ وماذا قلت له ؟ …
ـ لا شىء …
ـ كيف ؟ …
ـ لم أقل له شيئا …
ـ ولـكن كان يجب ان تقولى لا ، ان تصرخى فى وجهه ، ان تلعنيه ، ان … …
ـ كنت خائفة …
ـ ثم … ؟
ـ انا خائفة الآن …
ـ يجب …
ـ ماذا ؟ …

عيسوى يصرخ فى حقل من البرسيم ، كان يجرى وهو يصرخ ، لعنته المرأة التى كانت تجلس لترعى الماشية ، راح يدور حولها وهو يرقص ، والمرأة لا تملك الا ان تصرخ ، وكنت أرقبه من بعيد

وهو يدور حولها فى رقصة مجنونة ، ياشيطان ... يا عفريت يا ابن ، يا ابن المجنون ... اذهب بعيدا والا سلخت جلدك ... ولكنه يعوى كذئب جائع ويدور حولها ...

جاء أبى فى المساء وطلب منى ان أساعده ، رحت أرتب أكياسا صغيرة معبأة بالملح ، ثلاثة آلاف ، أربعة آلاف كيس من الملح الناعم ، سقطت ثلاثة أكياس ، انفجرت على أرض المخزن ، انفرط الملح وتكوم فى المدخل ، هذا يحدث دائما ، اربعة آلاف ويسقط عشرات منها منفجرة على أرض المخزن فى النهاية ، فى آخر اليوم تجمع الملح ليعبأ مرة أخرى ، صرخ أبى حينما رأى أكياس الملح التى سقطت على الارض ...

ــ ياولد ...

اجفلت من صيحة أبى ، هذا نذير شؤم ، أكياس الملح فى عينى ، استشعر طعمها ، فمى ، قذفنى أبى بواحد فى وجهى ، لم أحاول ان اتفاداه ، انطلق خيط من الدماء نازف من أنفى ، اختلطت الدماء مع الملح فى فمى ، سالت على ملابسى ، راح أبى يقذفنى بأخرى وهو يسبنى ، لم احاول ان أفعل شيئا ، سد الخوف كل الطرق فى وجهى ، راحت ضربات أبى تنهال على فى كل مكان ، كنت أصرخ من الخوف ...

تجمع الناس حولنا ، حاولوا ان يخلصونى من أبى ، وحاول آخرون ان يحولوا دون ضرباته ، كان هائجا كالثور ، مندفعا كفارس فى الحروب الصليبية ، شجاعا كالاسد ، بليغا فى شتائمه وسبابه منطقيا فى غضبه ... انه يعرق ، يكدح ، يجمع المليم فوق المليم لكى يجعل منى افنديا ، لكى يرفعنى من العالم القذر الذى يعيشه هو ، كان فى امكانه ان يتركنى ، ان يدعنى اعمل فى دكانه طول اليوم ... من الفجر الى العشاء ، ولكنه لم يفعل ، بل فعل العكس رغم فقره وحاجته الى من يساعده ...

الناس على كثرتهم يحاولون منعه ، يجذبون يديه ، تتساقط حبات عرقه فوق وجهى ، ينظر الى الناس ، يعاود سخطه وضربه ، يصيح فى ضيق ويشكو للناس ، الذين يحاولون تهدئته ، من ظلم الزمن وقلة الحيلة ، وخيبة الامل فى الخلف الصالح ... وهو ينهال على جسدى ضربا ...

عيسوى ظل يدور حول المراة العجوز التى ترعى الماشية فى حقل البرسيم حتى اقترب منها ... وهكذا استطاع فى لحظة رائعة ان يخطف ما معها ، وكان معها رغيف من الخبز ، وضحكت المراة حينما رأت عيسوى ينقض على الرغيف المستدير ويخطفه ، لم تكن تتصور ان كل هـذا الدوران من أجل رغيف الخبز الجاف الذى تمسكه بيدها ...

ناولته قطعة جبن ، هـدأ وجلس بجوارها ، أشـارت اليه ان يقترب منها ، راحت توزع علينا ما معها من طعام ...

خبز رقيق لذيذ الطعم ، وجبن وفلفل أخضر ...

ـ احكى لنا حكاية ...

ضحكت المراة ، طلبت من عيسوى ان ينقل البقرة من مكانها حتى تـكون على مقربة من البرسيم ، وحين عاد راحت تقص علينا حكاية الفولة التى أكلت ... ...

وجدت نفسى وحيدا أبكى ، ذليلا شاعرا بالمهانة ... مزقت الورقة التى تحمل درجات الامتحان ، هى السبب فيما حدث ، ولم يكن الملح سوى القشة ... ملعون ذلك الرجل الذى يكبلك بشىء ...

ـ كاتى اريد ان أقول لك شيئا ...

ـ ماذا ؟ ...

ـ انا احبك ...

ـ وانا أيضا ...

ـ ولـكنك لا تفعلين شيئا ...

ـ وانت ... ماذا تفعل من أجلى ؟ ...

ـ انا ... ! !

ضحكت كاتى واستدارت ، راحت تغنى ، الدماء تملأ أنفى وأذنى ، يجب ان أفعل شيئا ، ولـكن ماذا أفعل ؟ ! ...

ـ هل انت هنا ؟ ...

ـ هه ...

ـ لا تؤاخذنى ، لقد أحضرت لـكما طعاما ...

ـ اسمع ... انت لص ، ابتعد عنا ، لا نريد منك شيئا ...

ـ أنا عبدكما الذى يتولى عنكما الخدمة ...

ـ انت تطمع فى سرقتى ، بعد ان سرقت كل المدينة ، ولـكنى سأقتلك اذا اقتربت منها ...

ـ هذا صحيح انا لص المدينة المهجورة ، وانت ؟ ...

ـ انا ... ! !

وضع الرجل الاعرج كيس الطعام ، ابتسم فى شراهة وهو ينظر لكاتبى التى عادت ، جف ريقى من الانفعال ، جلست كاتى بجوارى ، لاحظت انها تستعرض بعض أنوثتها ، وودت لو قتلت هذا الاعرج ، صحت فيها غاضـبا ، ابتسمت فى دلال ووقفت ، جلس الاعرج مبهورا ، تذفتها بقطعة من الخشب تفادتها برشاقة وظلت واقفة ، راح الاعرج يغنى فى صوت طفل عن حبيبته التى يحبها ...

قام تيجر ، الذى كان يرقب كل ما حدث ، فى تثاقل وتمطى فى كسل ... لم يعد ذلك الـكلب الجرىء ، اصبح جبـانا يخاف من القطط والفئران ، ويظل قابعا داخل نفسه حتى يشم رائحة الطعام... الرجل الاعرج لايزال يغنى ...

حادثة قديمة القيمة ، ولكن يجب ذكرها :

تقدم نحوى وضرب صندوقه «الذى يمسك به فى يده اليسرى» ، بالفرشاة التى يمسك بها فى يده اليمنى ، وصاح :

ــ ياهوه ...

التفت ناحيته ، كنت اعلم انه هو ، كان يدور حولى منذ أيام . يهمس فى اذنى ببعض الكلمات ، واسبه ، كانت كلماته تسبب لى الشعور بالخجل والرغبة فى القىء ، ولكنى لم اكن املك شجاعة رفضه أو رفض الاستماع الى كلماته ...

كان يسهر مع ابى ويتحدث معه ، ويؤمن على جميع اقواله ، واحيانا يلقبه بألقاب رنانة تزيد ابى زهوا وتواضعا فى آن واحد...

يعمل ماسحا للأحذية ، ويعمل ايضا فى ميدان آخر يدر عليه ربحا افضل ، ولهذا كانت منزلته لدى الآخرين مرتفعة بحيث لايمكن عزوها الى مهنته الظاهرة كماسح احذية ...

دار حولى تلك الايام ، هامسا فى أذنى كلماته البذيئة التى تدفع الدم الى وجهى ، وكنت حدثا ولم اكن اعرف بعد ان حياتنا كلها هكذا ...

وفى احد الايام ، افصح عن رغبته فى ان يعلمنى لعبة الرجال ، كنت خائفا واطعته ، ذهبت معه الى حوارى الحى القديم المتطرف من المدينة ...

كانت الدنيا ظلامادامسا ، وانا أسير معه ، لا ادرى هل هذه منازل أم قبور ...

كنت خائفا ومع هذا ذهبت معه مسلوب الارادة تدفعنى الرغبة فى الاستطلاع ، ويدفعنى الخوف من عدم اطاعته ، وتتجاذبنى الرغبتان وتدفعان بى الى المجهول ...

توقف امام احد المنازل ... ونادى بأعلى صوته :
ـ شوق ...
انفرج الباب ، ورايت فتاة السوق ... شوق تمسك بيدها مصباحا ينير وجهها ، جذبها بعنف واطفأ المصباح ... شعرت بالارتباك ، ساد الظلام المعتم ...
سمعت صوت الباب وهو يغلق ... قالت شوق بصوت هامس :
ـ بابا ...
لكزنى فى جنبى بقسوة ، وامرنى ان اتبعه ، سمعت همس شوق اليه يأتى كحفيف اوراق الشجر عندما يعترضه الانسان ، مشيت والعالم يدور بى ، والرغبة فى الهرب تجعلنى احلم بالامن فى فراشى ...
اقتربنا من شريط السكة الحديد ، توقفنا ، كان القمر بدرا ، اشعته الواهنة لا تنير شيئا ، لمحت قضبان السكة الحديد تلمع ، وعيون شوق تومض ، امرنى ان امتطيها ، ترددت ، صاح غاضبا وقال : هذه هى لعبة الرجل ، لعبة الرجال ، الست رجلا ؟... كنت مرتبكا ولم اكن اعرف اللعبة ... خائفا ... بركت فوقها ... كانت عارية ... جذبتنى بقوة ...
شعرت وانا أعود الى منزلى ، اننى اضعت عالما رحبا مليئا بأشياء رائعة ... وطاهرة ...
عيسوى كان يغنى للقمر ...
«... تبرق فى السماء مثل شهوة الرجل ، وتعلو فى الافق مثل الطائرة الورقية لطفل الحارة ، تضىء نصف العالم وتترك النصف الآخر تأكله الظلمة والشر ، تذهب وتعود دون ملل ، دون الرغبة فى الثورة ...
ولكنى ابدا ما احببتك ...
لانك تهدى السكارى الى منازل زوجاتهم ... »
عيسوى كان يغنى للقمر ، ويعشق شوق ...
ـ شوق ؟ ... امنية السوق كلها ... شعلة الرغبة التى تبهر كل الرجال ، ولا احد ...
عيسوى يغنى ...
«تدور فى سرعة حول عربة الاله وهى ترقص بين الثيران المتوحشة ،

تتفادى قرون الثيران المدببة والمصوبة اليها فى مهارة ، تقفز بين ارجل الثيران بلا توقف ، باسمة الثغر مشرقة كالأمل ، موزعة ضحكاتها بينهم ، ولكن ابدا لم يستطع احدهم ان ينالها »

عيسوى كان يغنى لشوق مثل كل عشاقها ، كانوا جميعا يداعبونها ويتمنونها ، ومن بينهم ابى ، الذى كان يتحسس شاربه وهو يتملقها فى غزل مفضوح ، ولكنها كانت لى وحدى ، ودون ان اقول لها أو تقول لى شيئا ...

ويقهقه الرجل، ماسح الاحذية ، وهو يحشو مسدسه ويسألنى :

— هل نجحت ؟ ...

أطرق براسى خجلا ولا اجيب ...

— ولكنى سمعتها تصرخ من السعادة ...

— حقا ؟ !

اتم حشو المسدس ، دسه فى جيبه ، قال :

— لقد اصبحت تجيد اللعبة ... وهـذا يسعدنى ... كان هناك الكثير من الاسئلة اود طرحها على الرجل ، ولكن رؤية المسدس فى يده تجعلنى أسرع بالعودة الى دارى ، طالبا الامان ، واقسم الا أعود ، ولكنى فى اليوم التالى اعود ...

صاح عيسوى ، حينما رآنى مقبلا :

— أين كنت ؟ ...

— أزور بعض الناس ...

— بعضهم يقول انك تذهب الى دار شوق ؟ ...

— لا ، لم اذهب ، يكذبون ...

— انهم يؤكدون ، بعضهم يقسم انه رآك بعينيه ...

— ولكنى لم افعل ، انهم ...

— انت تكذب لانك جبان ...

— ولكنى لم ...

ضحك فى وحشية لم أعهدها فيه من قبل ، قذف حجرا بقدمه بعنف ، تدحرج الحجر وسقط بجوار الطوار ، حاولت ان أجعله يصدق كلامى ، ولكنه استدار وجرى نحو البحر ...

فى المساء ذهبت الى منزل شوق ، لم اجد احدا ، ظللت ادق على الباب ولا أحد يرد ، خشيت ان ينتبه الجيران ، عدت حزينا مهموما ... كانت بى رغبة قوية لرؤيتها ... فقط أراها ، شــعرت بالفشل ...

دخلت حجرتى وحاولت النوم ، لم استطع ، صورتها تحاصرنى خرجت الى الشارع ، ساقتنى قدماى الى دارها ثانية ، عدت ادق الباب ، انفرج الباب ورأيتها ...

— لا أحد هنا ...
— لايهم انت تــكفى ..
— لا أستطيع ...
— كيف ؟ ...
— ابى فى الخارج ...
— ولــكنه يعرف كل شىء ...
— لا ، لا ارجوك ، لا أستطيع ...
— ان عدم وجوده أفضل ...
— وأنا أفضل وجوده ...
— شوف ... اننى أريدك ... اننى احبك ...

اغلقت البــاب فى وجهى ، وددت ان أبكى ، أن احطم راسى فى الجدار ، ان اصرخ ...

فى اليوم التالى قابلت الرجل ، ماسح الاحذية ، ابتسم فى اشفاق حينما نظر الى يدى التى تــكومت فى توتر أمام وجهه :

— لا تحزن ...
— ولــكنها ...
— انت السبب ...
— كيف ؟ ...
— لأنك تجيد لعبة الرجل كالثور ...
— او ليس هذا يكفى ؟ ...
— لا ...
— وما العمل ؟ ...
— لا شىء ، الافضل ان تظل ثورا ...
— لــماذا ؟ ...

لم يجب ، اسرع بالابتعاد عنى ، تركنى حائرا ، يبدو انه يفكر فى شىء هام ، الأمر بالنسبة لى يزداد غموضا ورعبا …

ـ عيسوى … كيف يكون الرجل فارسا ؟ …

ـ يخطو فوق الزهرة ولا يحطمها …

ـ كيف ؟ …

عيسوى يا مجنون انا لا افهم كل ما تقوله ، تقول الفازا صعبة ، هز راسه ، جرى ناحية البحر كالعادة ، اقترب من الشـــاطىء واخذ يغنى …

«… لك ياشوق ، لك وحدك دون العالم اشدو، لأنك قديسة القرن الآثم ، ولأنك ، ايضا ملاك يعيش فى عش الغراب … لك وحدك اعشق رائحة النتن الذى يفوح من تحت ابطك … اغنى …

ولأننى اعشق صدق الرذيلة التى تمارسينها دون رغبة منك ، ايها الملاك الذىهبط فى وقت متأخردونموعده ، لك وحدكاغنى…»

ـ انت غاضب منى هذه الايام …

ـ لا …

ـ ولكنك لم تعد معى مثلما كنت …

ـ لم تعد الايام مثلما كانت …

ـ اشعر بالحزن …

ـ فقط ؟ …

ـ والكآبة …

ـ فقط ؟ …

ـ والسأم …

ـ فقط ؟ …

ضحك عيسوى كعادته ، رنت ضحكاته كأجراس الكنيسة يوم الاحد ، وراح يدور حول سور الشاطىء …

ـ اننى …

تركته وذهبت الى المسجد ، كان خاليا ، والبساط بارد يلسع القدم ، جلست بجوار عمود منتصف الجامع ، قررت ان اصلى ، ان الجأ الى الله ، ان افهم نفسي … اقوم بالتوبة ، فكرت فى شوق صورتها تبدو لى مثل الجمل الذى يجرى من الصياد ، حائرة مثل

فأر المصيدة ، احس لسعة النــار فى قلبى ... لهفتى الحارة الى احضانها ، الطريق الواحد ، الطريق الى شوق ...

ذهبت اليها ، أخذت ادق على الباب ... واطلت هى ، وجوم يعلو وجهها ، قلت فى توسل :

ــ هل أدخل ؟ ...

ابتسمت وافسحت لى الطريق ، كانت الشمس تملأ صحن الدار ... قادتنى الى حجرة بالداخـــل ، الحجرة مليئــة بالقش حتى منتصفها ... صــعدت على القش وجلست ، غابت عنى فترة طويلة ، ولـكنى كنت اسمع صوتها وهى تغنى ... تغنى للدار ، لفرحــة الصبى برغيف الخبز الملتهب والخارج توا من فوهة النار ، دخان الموقد المشتعل تحت اناء الارز واللحم المسلوق ، وسـعار الرغبـة يأكل احشائى ، كنت اشعر انها ترفرف بأجنحة ملســاء داخـل الدار ، وكانت أذنى تتابع فى سعادة غناءها ...

القش دافىء وحنون ، مددت جسدى ، شعرت اننى اقبض على لسان القمر ، واننى سعيد ، اعواد القش تدغدغ حواسى ، اتقلب فى تلذذ ، جاءت شوق ونظرت الى وابتسامة تعلو فمها ...

ــ ما الذى يأتى بك فى وضح النهار ؟ ...

ــ الشوق ...

ــ ولـكنك تأتى كل ليلة ...

ــ لم اعد اطيق الليل ، لا احب وجود ابيك ...

ــ ولـكنه هو الذى قربنى اليك ...

ــ ولهذا لا اطيق وجوده... اكرهه ، أريدك انت... برغبتك...

ــ ها .. لقد صرت رجلا ...

ــ شوق ...

ــ سأرتدى لك ثوبا شفافا ...

ــ شوق ... لم آت لـكى ... أنا ...

وضعت يدها على فمى ... رحت ملهوفا اقبلها ، معروقة جافة ولـكن دافئة وحبيبة ، أتمزق من الرغبة ...

ــ هل هناك آخرون يأتون الى هنا ؟ ...

ــ ولمــاذا تسأل ؟ ...

ـ فقط اريد ان أعرف ...
ـ انت وحدك الآن بالدار ...
ـ هل يأتى آخرون ؟ ... هل يأتى بهم أبوك ؟ ...
ـ أبى رجل مجنون ...
ـ انه ... انه يسعد بذلك ...
كفت عن الابتسام ، نظرت الى فى تحد ، علت الجهامة جبينها ، ارتعشت يدها الممدودة ، سحبتها بسرعة ، قالت :
ـ بماذا ؟ ...
ـ برؤيتك وانت ...
ـ وانا ايضا ...
ـ ولكن كيف ؟ ... كيف ؟ ...
اخذت ما وعدتنى به وخرجت ، تخففت عن بعض احمالى، ولكنى لم اتخفف تماما ، لا شىء ينتهى ، لا يعيش الانسان فى الفراغ ، نحمل كل اساه فوق ظهره ، ويمضى ...
عيسوى ينظر فى عينى مباشرة ، يعرف علاقتى بشوق ، انا اعرف انه يعرف ذلك ...
ـ عيسوى ... هل تصدق اذا قلت لك ...
ـ اننى دوما أصدقك ...
ـ دائما ؟ ! ...
ـ نعم ...
جرى ، خلع ملابسه وقفز فى البحر ، سبح بسرعة مسافة طويلة ... ثم عاد ، وقف عاريا على الشاطىء وراح يغنى ...
«... الشمس القادمة من الشرق يفوح منها رائحة زكية ، ولكن الرجل الآتى من الشرق تفوح منه رائحة البصل ... تحطم تمثال الفارس الذى كان يقف فى ميدان المحطة ...
قال ربان احدى السفن، وهو ينظر الينا ، انه يشم رائحة نتنة...»
ـ كاتى ...
ـ نعم ...
ـ احبك ...
ـ وانا ايضا ...
ـ ولكن ...
ـ ماذا ؟ ...
ـ لا شىء ...

بداية الطوفان :

عيسوى ذهب ... ولكنى بقيت ... اننى أتذكره دائما ، اشعر نحوه بالحب ، تجذبنى نحوه رائحة الطفولة ، والبراءة ويبعدنى عنه المصير المؤلم لطفولة العصر الحجرى الذى نعيش فيه ...

كانى تنظر الى فى بلاهة ولكن لا شىء مهم فسوف تعود الاحوال الى حالة الهدوء الاولى التىكانت تظلل الجميع ، وستكون شديدة الركود هذه المرة الى درجة الغاء العقل ، نعم ... لقد اصبح ذلك الشىء الذى يسمى عقلا لا نفع فيه ، وبالتالى يجب ازالته حتى لاينتج عنه ضرر ...

عيسوى كان يصرخ ، كان يبكى ، واحيانا يقول أشياء عديمة المعنى والجدوى ، ولم احاول أن أناقشه فيما يقول ، كنت أسمع وأضحك ، ما معنى أن يناقش الانسان البحر ... أو السماء ... أو الكلب « تيجر » ؟ ! ... لابد ان الانسان شىء آخر غير هذا الكائن الذى نتصور، والذى سبق أن تعلمناه فى مدارسنا ، ويجب اعادة التفكير فى تصور الكائن البشرى ، وفقا لحقائق هذا العصر، كما يجب اعادة صياغة المفهوم العام عن الانسان ...

لقد نسيت اشياء عديدة كانت تحتل مكانة هامة فى نفسى ذات يوم ، وما كنت اتخيل ، ذات لحظة اننى انساها مطلقا ...

هذا الكائن الانسانى غريب حقا ، يستحق اعادة الدراسة بعد كل فترة زمنية ، لأنه مثل الماء لا تراه مرتين على حالة واحدة

والكلمات فقدت معناها ، بل ان الذين يحاولون تفسيرها لنا نسوا مدلولها الحقيقى فى غمار البحث عن معناها ، لان معظم الكلمات التى تداولناها فى خلال الفترة السابقة ، ومن كثرة ترديدها فقدت الكثير من المعانى أو الدلالات اللغوية التى من أجلها خلقت هذه الكلمات ...

— عيسوى ، لماذا لا تصدقنى ؟ ... اننى اقسم لك ...

— ها ...

جرى كعادته ، مثل عنزة صغيرة سعيدة ، وقف على ربوة عالية اشار الى بعض الحشائش تغطى تلا صغيرا ، يبدو كقبر مهمل .. وراح يغنى ... « ... يقوم الرب حور من مرقده الامامى فى الجبانة الخلفية ، ويسأل رع كبير الآلهة حكمه فى هؤلاء ، مشيرا الى قوات رمسيس الاول ، رع كبير الآلهة ... كان مريضا ومتعبا ، تمالك نفسه وقال :

هؤلاء الذين يقفون على اليمين ، هم أهل اليمين ...
يدخلون عالم الخلود ، اما هؤلاء الذين يقفون ...
على اليسار فانهم يدخلون عالم الفناء ...
وتستقر أرواحهم فى النار ...

وسقط رع مغشيا عليه ، واسرع الرب حور الى تنفيذ تعليمات الرئيس ، ولكنه لم يكن قد استمع الى كلماته جيدا ، لانه كان مشغولا بالنظر الى الربة ايزيس وهى تبكى زوجها فأمر بأن يصرح لأهل اليسار بدخول عالم الخلود ، والقاء اهل اليمين فى النار ...

وعند ذلك رفعت منصة القضاء الالهى ولم يلتفت أحدهم الى ما حدث ، لأنهم كانوا يفكرون فى ارث رع بعد وفاته ... »

— عيسوى ، أحيانا اتخيلك تاجر قصص ...

— أنا أعشق الناس ...

جاء تاجر المسروقات وجلس فوق صدرى ، واخذ ينظر فى الثقب الذى أحدثه فى قلبى وهو يضحك ولأن الثقب كان متهدل الجوانب فانه راح يعبث بأصابعه لكى يرى جيدا ما فى الداخل ...

قال الاعرج ، وهو يمضى ، ان هناك بعض الاعمال التى تحتاج الى السرعة فى انجازها وان السيدة سوف تأتى لتأخذ كاتى معها ، حتى يمكننا القيام بهذه الاعمال ...

الشوارع خالية ، فقد رحل الجميع ، وتركوا عالمهم الحقيقى لكى يدفنوا انفسهم فى عالم خرافى من الأمن فى سبيل لقمة العيش الجافة ، استطعنا ان نمضى بسرعة عبر الشوارع فى طريقنا حتى مخازن الشركة ...

كان الشراب مر المذاق ، ولـكنى تجرعته فى سـهولة ويسر ، واخفيت امتعاضي وضحكت ، لأن الرجل ــ تاجر المسروقات ــ كان يود ان يرانى خائفا ومترددا ، كما كان يود ان يرانى وانا اترنح فى مشيتى ، ولـكنى لم اترنح ، بل مضيت فى المقـدمة ثابتا وكأننى قطعة معدنية ، مضيت فى خط مستقيم ، ولم اشعر بأن هناك ما يسوقنى ...

كانت حوائط الدور تفسح لى الطريق وتبتسم ، كما كانت المبانى تهلل فى سـعادة ، وبعض المصابيح الـكهربائية المتدلية من سقوف حجرات النوم تهتز من فعل الريح ، وكذلك الاسلاك وقطع الحديد البـارزة من الجدران المهدمة كانت تتمايل ايضـا بفعل الريح ، وكانوا جميعا يبتسمون ...

لم اتوقف ابدا ، بينما راح تاجر المسروقات الاعرج يحجل خلفى ويترنح ، وقد ظهر وكأنه فقد وعيه ويصدر صوتا غير انسانى ، كان يموء مثل قطة فقدت أولادها ، واحيانا يصرخ ، حاولت فى أول الأمر أن أكتم ضحكي ، مراعيا فى ذلك مشاعره ، ولكنى لم استطع ، ورحت أخيرا فى نوبة من الضحك المتواصـل ...

حاولت مساعدته ولـكنه رفض ، مثل دب غبى راح يرفس الارض فى عناد ... تركته ، وشعرت بالراحة ... كان القمر يسير معى ، ابتسمت فى سعادة ، راح القمر يهبط حتى صار بجوار رأسى ... ثم اقتحم جمجمتى ، وأصبح القمر يشع نوره من خلال رأسى ...

ــ القمر يبهرنى ، يدغدغ حواسى ...

ــ انا أعشق القمر ...

عيسوى كان يعشق الناس والقمر ، كان يعشق الحياة ، كان يغنى ويصرخ ، كان صغيرا يحلم بأشياء رائعة ، لم يعد يغنى ، ولم يعد يحلم ، كف الفم الباسم أبدا عن الابتسـام ، تحجرت البسمة على شفتيه ، وتوقف سريان الحلم فى راسه ... لأن راسه تناثر على أرض الشارع بفعل قنابلهم ، ومات عيسوى ...

صرخت بأعلى صوتى ، لمـاذا عيسوى ؟ لمـاذا يموت ؟ ولمـاذا هو ؟ كان شعلة النور فى حيـاتى أخذوها منى ، ووقفت متفرجا ابكى عليه ، آكل ، واتـكلم ، وأمارس الحب ... ولا اتذكره الا فى

اوقات الفراغ ... لم انتقم له ، لم أثار من أجله ، لم اتحرك من مكانى وقفت مشلولا حتى لم يعد عقلى يصدق ما ينطقه لسانى ، ولم يعد قلبى يتأثر لما يقرره عقلى ...

ــ عيسوى ، يا مجنون عد ... الماء بارد ...

ــ جبان ...

لا ، أرجوك ، لا تقل هذه الكلمة مرة أخرى ، لم أعد جبانا ، بل أنا الآن ... أنا الآن ... انا لم اعد الانسان الذى كنت تعرفه ، أنا لا شيء ، بل أنا شيء حقير دنس ، انا لص المدينة المهجورة ، قطع النقود التى تركها الجنود لا تزال تلمع فى الطريق ، حاولت ان التقط بعضا منها ، ولكنى تراجعت ، كنت أفكر فى نهاية الطريق ...

كانت بعض الافكار المتعبة والسوداء تتسلل أحيانا الى عقلى ، وساعتها كنت أترنح وأكاد أسقط ، واحس بلسعة السخرية ، سرعان ما أتمالك وأقف منتصبا لكى أظل فى المقدمة ، أسخر من الرجل الآخر الذى يأتى خلفى مترنحا فى كل خطوة ...

وقفت مشدوها ، كان البناء كبيرا ورائع المنظر ، بل كان يبدو مرتفعا ارتفاعا شاهقا ، درت حول البناء ...

عيسوى كان يرى الابنية المرتفعة ويصرخ فى فزع ، ويصدر انينا مذبوحا ويجرى وهو يردد ... النار ... النار ...

ــ عيسوى يا مجنون ... لا تخف ... توقف ...

ليس هناك نار أو حريق كما تتوهم ، مجرد بناء مرتفع ...

يقول أبى هذه المدخنة مات فى بنائها الف رجل ، وكانت المدخنة ، التى تقع أمام دكان أبى مباشرة وتتوسط محلج أقطان يملكه أحد أثرياء اليونان ، تقف فى شموخ وترتفع فى السماء عالية حتى كأنها تخترق السحاب ، رفيعة ومدببة ورشيقة ، كمسلة فرعونية تقف بين اطلال أحد المعابد ، زم عيسوى فمه وقال لأبى :

ــ كيف مات الالف ... ولم تذبحوا هذا الرجل اليونانى ؟ ...

ضحك أبى ، وهذا كان يحدث نادرا ، بل ونادرا ما حادث عيسوى باحترام ، ونظر اليه وقال فخورا :

ــ لقد شاهدت ذلك بنفسى ، كان نوعا من التحدى ...

ـ التحدى ؟ كيف يا أبى ؟ ...

هل تفشل المدينة فى بناء مدخنة ؟ نحن نبنى المآذن ونفشل فى بناء مدخنة ؟ هل نسمح له باحضار بناء من بلاده لكى يعلمنا كيف تبنى مدخنة ؟ لا والله ما يحدث ، اذا سقط بناء يصعد آخر ، يليه الآخر ، وكل منهم يبنى شبرا ...

ـ حتى مات الالف ... ؟

ـ لا يهم ياولدى ... من أجل كرامة البلد ...

ـ مدخنة ملعونة ، ورجل مخبول ، وكرامتكم جوفاء ...

لطمه أبى على وجهه لطمة قوية ، عوى عيسوى فى رعب ، نظرت الى أبى فى حقد ، تراجع الرجل الى الخلف أخذ يقول كلاما غير مفهوم فى تلعثم ، وقف عيسوى ينظر اليه فى تحد ، جلس أبى فى استكانة ، انصرف عيسوى مسرعا ...

يقول مدرس التاريخ ان الناس قديما كانوا يعبدون الجبال المرتفعة ولكنهم حينما صعدوا اليها ، أحسوا بأنها مثلهم ، ترقد تحت أقدامهم فى استسلام ،بعدها كفوا عن عبادتها ...

اخترقت المبنى ، لم استسلم لليأس ، مضيت فى طريقى ، تركت الرجل الاعرج يحجل خلفى ويدور حول المبنى ، لم يستطع اختراقه مثلى ، اسرعت قبل ان يهرب الزمن منى ، تقدمت نحو المخازن...

رحت اجمع الصخور القمرية ، اقترب الاعرج منى ، راح يمطرنى بالاسئلة عن كل شىء ، تناولت بعض الآلات ورحت انهش فى جسد الآلة المتربعة امامى ، حولتها الى قطع صغيرة يسهل حملها . شعرت بالتعب ورائحة العطن تملأ أنفى ، جلست فى استرخاء ... لقد انتهى دورى ، رحت اراقبه وهو يجمع القطع الصغيرة ويرصها فى عناية ...

كانت الرغبة فى القىء تهدد كيانى برعشة شديدة ، حاولت ان امنع نفسى من السقوط ، لم استطع ، زحفت حتى الظلام ورحت افرغ ما فى جوفى ...

صاح عيسوى حينما رآنى اشعل سيجارة :

ـ لن تصبح رجلا بدخان هذه ...

رحت اسعل بشدة ، راسى يكاد ينفجر ، قلت فى صوت متحشرج :

ـ و ... لكنى افعل مثل ما يفعل كل الرجال ...

ـ وهل كل ما يفعله الرجال صحيح ؟...

ـ ... ...

ـ كاتى ...

ـ نعم ...

ـ أنا رجل ... ؟

ـ طبعا ...

بداية حقيقية للسقوط ، من الملمح الأول :

وقف جندى الشرطة العسكرية امامنا ، وصاح :
ـ قف ...

حاول الاعرج ان يجرى ، ضحك جندى الشرطة العسكرية واطلق مقذوفا فى الهواء ، وقع الرجل الاعرج على الارض وهو يعوى ، تقوس ظهره وانقلب عدة مرات ... ثم تظاهر بالموت ...

جاءت عربة الشرطة العسكرية ، وهبط منها مجموعة من الجنود كانوا يضحكون ، رفس احدهم الاعرج وأمره أن يقف ، تقدمت الى الجندى وطلبت منه الكف عن الضحك ، نظر الى فى سخرية ... أطلق ضحكة طويلة أشبه بالعويل ، ثم كف عن الحركة واخذ يتفرس فى وجهى ، رجوته ان يكون انسانا ، لأنه ليس كذلك حتى الآن ، بصق فى وجهى واستعرض سلاحه أمام عينى ، صحت فيه بأنه لايفهم شيئا ، وليس لديه أية حقوق لكى يرفس الآخرين بقدمه...

كف الجنود عن الضحك ، راحوا ينظرون الى ما فى أيديهم ، ظهرت على وجوههم الحيرة ، تحركت أنا الى أمام ، كانت رغبتى قوية لضرب أحدهم ، ساقونا للرياسة ...

عيسوى كان عنيدا ، حينما صفعه الضابط لم يتحرك ، وظل ينظر الى الضابط فى شراسة ، اهتاج الضابط وانهال عليه ضربا ، ومع ذلك لم يتحرك عيسوى ، اندفعت ـ رغم خوفى الشديد من قسوة الضابط ـ الى عيسوى ورجوته ان يجرى ، ان يتحرك بعيدا ، ولكنه رفض ، ظل ينظر للضابط فى ثبات ، الضابط يتنفس بصعوبة ، وازدادت حمرة وجهه ، صراخه أخافنى ، جذبت عيسوى بقوة ، أجبرته على التحرك عدة خطوات ... ولكنه ظل ينظر للضابط الذى كف عن الصراخ ووقف ساكنا ، راح جسده يهتز بقوة ثم سقط على الارض ...

جرينا بكل قوتنا حتى اصبحنا داخل المظاهرة ، رحنا نعبر نهر الطلبة بصعوبة ، حاول أحد الجند ان يتصدى لتدفقهم المندفع فى رعونة ولـكنه تهاوى تحت أقدامهم ، تكوموا عليه ، راحوا يضربونه، صرخ عيسوى ، حاول الجندى الوقوف ، قذفه احدهم بحجر فى انفه ، اندفع الدم الاحمر قانيا ، تهاوت قبضة الجندى وسـقط مرة اخرى ، صرخ عيسوى بـكل قوته ليمنع تدفق الطلبة ، ولكن المجموعات الثائرة لم تسمع صراخه ، وكلما حاول الجندى الوقوف اسقطه تيار الطلبة المندفع دون نظام ، تساقط الدمع من عينى عيسوى وركع بجوار الجندى الذى رقد فى ضعف ، بينما وقفت انا اصرخ من الخوف ..

ــ ماذا تفعل فى السويس ؟ ...

ــ أعيش ...

ــ ولـكن اهلك هاجروا مع الآخرين ،وكذلك المصـنع انتقل الى مكان آخر ...

ــ كنت ...

ــ لقد راف بك القائد من أجل ...

ــ ولـكن كاتى ...

ــ اذهب الآن ، فى الصباح سينقلونك الى السجن الحربى ...

ــ وكاتى ؟ ...

ــ اذهب الآن ، ليس لدينا وقت ، سيظهر كل شىء فى التحقيق

قادونى الى السجن ، غرفة صغيرة ليس لها شكل معين ، أين كاتى ؟ لابد أن اراها ، لابد من رؤيتها ، انى أتلهف اليها ...

امى ، لقد تركتنى كاتى وحدى ، انا وحدى الآن ...

وجاء الليل ، وعم الظلام ، وراحت الافـكار السوداء تحوم حولى ... كاتى تصرخ رعبا ، تسقط فى بئر ، يدوسها ، يطحنها عذاب مجهول الهوية ، الدماء تقفز من عنقها ، فمها يعلوه الدم ... احاول ان أبعد عن عقلى صور كاتى المشوهة ، الجريحة ، المدفونة فى الطين، اتقلب ، أعوى كالذئب المجروح ، احاول أن أستحضر صـورتها العادية ... جميلة حبيبتى فى ازارها الاخضر ، فى مريلتهـا ذات المربعات ، فى لباس البحر الازرق ، فى ثوبها السماوى ... ولـكن الصورة تظهر غير كاملة الوضوح ، مشوهة ممسـوخة ، مملوءة

بالدم ، كاتى ... اصرخ من اعماقى بلا صـوت ، انا سجين ولـكنى لن أسمح بذلك ، اين انت ؟ ماذا يصنعون بك ؟ ما الذى يمكن أن يفعله معك ذلك الجندى المتقلص الوجه)

ـ عيسوى ، هل رايت أحدا وهو يموت ؟ ...
ـ ها ... كثيرا ...
ـ وكيف يبدو ؟ ...
ـ يبدو انه يموت ...
ـ وكيف يموت ؟ ...
ـ هكذا ... يصمت ولا يتـكلم ، ثم لا شىء ...
ـ أنا لم أشاهد ذلك ...
ـ انت مدلل ...
ـ ها ، ولمـاذا ؟ ...
ـ لا أدرى ، ولـكنك دائما تسخر منى ...

استدار عيسوى وانطلق يجرى ، جريت خلفه ، سوف اعذبه ولن اتحدث معه بعد ذلك ، سأسقطه من أصدقائى ...

ولـكن لا اعرف صديقا غيره ، فى ايام مرضـه أو غيـابه لا أجد من أكلمه ، حتى يمضى الوقت طويلا مملا ، لا أجد سوى كاتى ، وهى الاخرى تخرج معى بحساب ، ليس لى الا هذا الولد الأرعن ...

ـ قف ياعيسوى ...
ـ ... ...
ـ سوف أقول لك شيئا هاما ...

كان يجرى نحو البحر ، كان فى نوبة جنونه ، يغنى للأشياء التى لم تعد موجودة ، أو التى لم توجد حتى الآن ...

ـ هل سمعت عن بوذا المبجل ؟ ...

انا اصرخ فى فراغ ، أسبح فى بحر الامواج الخداعة حتى تتهدم جدرانى الرخوة ويتقلص من حولى حاجز الوهم ، وتظهر حقيقتى عارية لايسترها شىء ...

ـ مذنب أم غير مذنب ؟ ...
ـ لا أدرى ...
ـ لقد اعترفت أمام الشرطة ...

ـ لا ... لم أعترف بشيء ، لانى لم ارتكب شيئا ...
ـ ولماذا يتهمونك ؟ ...
ـ لأشياء خاصة
ـ ما هى ؟ ...
ـ لا أدرى ...
ـ من مصلحتك ان تتكلم ...
ـ لا أتذكر شيئا أقوله ، أنا مظلوم ...

عيسوى ، هل ترى ذلك القاضى الضخم ؟ انه أشيب الشعر ، تعلو كتفيه شارات حمراء ، يبتسم فى هدوء ، يبدو سعيدا ومستريحا هل يذكرك بأحد الناس ؟ ...

الحجرة كابية اللون ، والاوراق تبرز من ملفات صفراء ، وشاب نحيل يجلس على مائدة معدنية يدون ما ينطقه القاضى ، وشرطى خلفى تعبث أصابعه بصندوق الذخيرة ، والضوء يأتى من نافذة محطمة الزجاج ، والجو رطب وحار ، وانا اتنفس بصعوبة ...

ـ لقد ارتكبت خمسة عشر حادثا ، فما قولك ؟ ...

عيسوى ... قتلوك ، قذفوك بالقنابل ، وانا الآن اموت ، اقترب من الموت ، يسحبوننى حتى الحائط ويتبادلون اطلاق الرصاص...

ـ تكلم يابنى ... من مصلحتك ان تتكلم ...

أبى أقسم لك ، ولكن لا ... لن أقسم ، يكفى ان اقول دون قسم ، وأنا أرى بريق عينيك ، أرى فيهما اسطورة الزيرسالم ، اراك وقد ركبت الفرس الاشهب وفى يدك حسامك المسلول .. ها ياثارات كليب .. يا ثأر العرب .. يا ثارات الاجاويد الذين ذهبوا ، ضحوا فى الماضى لكى يأتى المستقبل ...

ولكن المستقبل جاء مر المذاق ، خرائب كنت ياسويس ... نام مهندس الاضاءة فترة أطول مما ينبغى وضاع الحب ...

ـ تأجل للنطق بالحكم ...
ـ انت ، لماذا تقف هكذا ، اركب ...
ـ انا اعرفك جيدا ، لا فائدة ، اركب قلت لك ...

تحركت السيارة ، وعدت الى الغرفة المظلمة مرة أخرى ...

هوت صفعة أبى على وجهى ، كان وجهه يميل الى الاحمرار ، نظرت الى عينيه ، كان قاسيا ، تراجع خطوة ... ثم عاد يهوى بكل

كفه على وجهى ، لم أشعر بالألم ، كنت افكر فى لون عينيه ... عيون الاسد ، قررت سؤال عيسوى ، ربما نذهب ـ ذات مرة ـ الى حديقة الحيوانات فى القاهرة ، هناك مظاهرة قادمة قريبا ، نخرج معها ونركب القطار الى القاهرة ...

ـ تسقط الحكومة ...

ـ تذاكر ...

ـ يسقط الاستعمار ...

ـ مظاهرة ؟ ... لا أحد يرد على محصل القطار ؟ ...

ـ يسقط ...

ـ لا فائدة ... اذهبوا الى القاهرة ولكن فكروا فى العودة من الآن ...

ـ عيسوى ... أين حديقة الحيوان ؟ ...

ـ لا ... انا ذاهب الى قصر الملك ...

اندس أحدهم بجوارنا ، راح يتزاحم مثلنا ، مسيرة الطلبة لا حدود لها ، تنساب فى الشوارع ، يهدر صوتها فى موج متلاطم ، انزلق معها فى طابور طويل متعرج ، همس الرجل فى أذنى :

ـ هل تأتى معى ؟ ...

ـ الى أين ؟ ...

ـ انظر ...

ابرزالرجل من جيبه مجموعة من الصور ، اجساد نساء عاريات ، سمراء ، سمينة ، نحيلة ، ملفوفة العود ، نهودها منسدلة على بطنها شعرها ينساب يستر نصف صدرها ... نساء من كل نوع ، همس الرجل :

ـ لن يكلفك الامر كثيرا ، هل هو معك ؟ ...

ـ عيسوى ...

ـ تسقط حكومة الخونة ...

ـ يسقط اعوان الاستعمار ...

ـ أرغب فى الذهاب معه ...

ـ تسقط حكومة القواد ...

ـ يجب ان تأتى معى ...

ـ يسقط الحزب الخائن ...
ـ لديه نساء و ...

جذبني عيسوى من يدى ، صاح ببعض الـكلمات ، اختفى رجل الصور فى زحمة مسيرة الطلبة ...

ـ عيسوى يا مجنون ، ألم تـكن ترغب فى ...

سقط حجر أبيض بالقرب من رأسى ... لم أستطع تبين مصدره ، شعرت بالخوف ... وجريت ، انهالت الاحجار من كل مكان ، تفرقت صفوف الطلبة ... هجم الجند بالهراوات ، اطلق جند الخيالة بعض الاعيرة النارية ، احسست بالخزى وأنا أجرى كالارنب المذعور ، رأيت الناس تجرى فى الشوارع ، تسبقنى ، أصـوات مختلطة ... يسقط نيرون ... الخوف ملأ قلبى ، أبحث عن عيسوى ، شـعرت باليتم ... النار تحرق المدينة ... يسقط نيرون ... يسقط الخونة ... يسقط عملاء الملك ... الاصوات تأتى من كل اتجاه وتتضارب ...

أبحث عن مكان آمن ، هـذا الشـارع مسدود ، رجال يصرخون فى نشوة ، هراوات الشرطة ضاعت ، رصـاص بنـادق الخيـالة يدوى فى الهواء ، سيـارة تأتى مسرعة من الشارع الجانبى ، وقفت فجأة وقفز منهـا بعض الرجال ، اسرعوا نحو زجاج الفترينات ، حطموه وأشعلوا النـار ، صرخ بعض العمال وحاولوا اخماد النيران المندلعة فى شراهة ، تجمع النـاس سريعا ، شعلة اقتربت من رداء حريرى يتراقص بفعل الضجة ، لمعت عين رجل راح يرقب اقتراب النـار من الرداء فى اشتهاء ... آه ... ملابس أخرى تحترق ، انهـا ملابس نسائية تبرق والنار تلتهمها فى سهولة ... اندفع الرجل ، قبض على كتلة القماش تحسسها ، لملمها بسرعة ، اندفع خارجا ، سعيدا كان ... اندفع الآخرون يتقاسمون هبة المولى ، ساعة يد ، حصان خشبى ، قطعة ماس ، قطعة صابون ، كل شىء يصلح للأخذ حظ طيب ، رجل الشرطة وقف مشدوها برهة ثم تنـاول رداء الطفل ، دسه بسرعة تحت قميصه ...

ـ عيسوى ... ماذا تفعل ؟ ...
ـ احرق كل شىء ...
ـ ولـكن الناس أولى بها ...
ـ لا ، انها خيانة ...

آه ياعيسوى ، الجمرة فى القلب ، المدينة المحروقة تصرخ فيها النيران ، تولول باكية ... انقاضها تتهاوى ، فئران مدينتنا تجرى ، تسرق ، تنهب كل الممتلكات ، الحب حرام ، يسقط الجلاد ... تسقط حكومة الانقاض ...

ـ ياغريب مدد ...

امدد يدك الى ، ارفعنى فوق اكوام التراب ، انزعنى من جلدى أود أن أفر من نفسى ، لأنى اكـره هـذا الرداء الـذى أرتديه ، يا غريب مدد ، أمدد يدك لتشـد على يدى ، لأنه من الخير ينبع الخير ، ومن الشر ينبع الشر ، ولانك خير مطلق فأنت قادر على بث الخير فى كل مكان تحل فيه ، ولانك تعشق ، فأنت تعرف كم يتعذب العشاق ، يتألمون ...

... ياغريب مدد ...

من فوق اسطح بناية السوق ، جلست نسوة حارتنا ، تـكومن كقطعة من سحاب الليل الاسود ، تتجمع لتبكى مطرا ، وصـوت المنشد يعلو ... يأتى من اعماقه ، والدف يدق ، والناس تهيم مع الـكلمة الممدودة ، الممطوطة فى شوق ... ياغريب ...

البحر غدار ، يطلب قربانا من لحم البشر ، والمركب من شجر الجميز ، ثقيلة ترغب فى نوم الاعماق ، وأسـماك القرش تـكبر ، وسنارتنا يأكلها الحوت ، يتسلى بمضغها ، والى البر يعود الرجال خاوية سلالهم ، ها هى أيادينا نمددها اليك ، بكرمك تملأها رزقا ، تضعه فى وعاء الارز على النار ، ورداء يستر أجساد الصغار، حتى تـكف النساء عن العويل ...

... ياغريب مدد ...

ـ انت ... انت هناك ؟ ...

ـ ماذا ؟ ...

ـ زيارة من أجلك ...

ـ من ؟ ...

ـ لاندرى ...

الأيام التى سبقت السقوط :

قررنا الذهاب الى جزيرة الرمل ، اعترض عيسوى :
ـ غدا اضراب ...
ضحكنا جميعا ، استمرت قهقهة أحدنا فترة اطول ، سببه عيسوى فى عصبية ، اتفقنا على الذهاب الى المدرسة ومن هناك ، وبعد الاشتراك فى أول مظاهر الاضراب ، ننطلق الى جزيرة الرمل، تم الاتفاق ، عيسوى لا يزال يعترض ؟
ـ يجب ان نسير فى المظاهرة حتى مبنى المحافظة ...
ويجب ان نتسلح ونستعد لمعركة مع الشرطة ...
ـ هذا افضل ، الغياب عن المدرسة يعلم به أبى ، ولن أسلم من عقابه ، أما المظاهرات ...
ـ خونة ...

***

ـ قف ، حضرة الضابط يريد أن يراك ...
ـ لماذا ؟ ...
ـ لماذا تسأل ، اسمع ونفذ ... خائن
ـ لا .. ارجوك ، لا داعى لهذا ..
ـ الافضل أن تأتى معى وكفى ..

***

ـ عيسوى ... لماذا لم يحاول البوليس اطفاء الحريق ؟
ـ ليست لديهم أوامر ...
ـ ولكن هذا لا يحتاج الى أوامر ...
ـ ربما لديهم اوامر باشعاله ...
ـ لاندرى ...

***

ـ لماذا تقف متصلبا هكذا ، انت أبله ؟ انك ماكر حقا ولكنك لن ترعبنى ، سر أمامى حتى حجرة الضابط ...

كان تيجر يحاول الامساك بفراشة ملونة ، سعيدا ومنتشيا مثل ربيع هذه الايام ... لقد اقترب عيد الربيع ، عيد شم النسيم ...

رحت افكر فى طريقة مبتكرة لاحراق بعض الملابس والادوات القديمة ... كان الضابط واقفا حينما دخلت حجرته ، استدار عندما سمع وقع أقدامى ، نظر الى جيدا ، قال :

ــ يجب أن تتكلم معى ...

ــ أود ذلك ...

ــ اجلس ، نحن اصدقاء ، أو على الاقل لسنا أعداء ...

ــ لن يكون حديثنا مؤثرا على سير المحاكمة ، كل ما أرجوه ان أعرف ...

ــ أريد كوبا من الماء ...

ارتفعت علامات الاهتمام على وجهه ، دق جرسا ، جرى أحد الجنود ، مد يده بكوب الماء ، تساقطت بعض القطرات ، تناولت الكوب ، فشلت خطة هروبى ، ماذا أقول له ؟ ليس لدى شىء معين يمكن التحدث عنه ، بل لا توجد كلمة واحدة على فمى يمكن نطقها ...

رفعت الكوب الى فمى ، زجاج الكوب يلامس شفتى ، احسست بالبرودة ، الضابط يدخن سيجارته وينظر الى بانتباه شديد ، اخذت جرعة ماء ، يمكنهم تحويلى الى طبيب ، انا لم افعل شيئا ...

جاء الاعرج وطلب منى مساعدته فى انقاذ محتويات مخازن الشركات من التلف بعد ان قصفها اليهود ، كانت نهبا مشاعا لكل الناس ... هوجة ... الامر لا يحتاج الا لبعض الشجاعة ، بعض الناس لديهم هذه الشجاعة ، وانا كنت فى حاجة الى ... الى بعض المال ، لا ... ليس فقط المال ، كنت فى حاجة الى بعض البطولة ، الى شىء ذاتى يمكن ان ينسب لى ...

ــ كاتى ، هل أنا رجل ؟ ...

ــ طبعا ...

***

ــ عيسوى ، انت دائما تتهمنى بالضعف ، أنا رجل ...

ــ ها ...

... ذاتيا ؟ لا ... كنت من هؤلاء الناس ، لم افعل شيئا ذاتيا ، لم اقم بشيء غير عادى ، فقط ... فعلت ما يفعله الآخرون ، واكلنا خبزا ،وشربنا بعض انواع الشراب الردىء ...
ــ يجب ان تتكلم ،يجب ...
ــ ...
وضعت الكوب جانبا ونظرت اليه ، كان نحيفا وحزينا ، يدخن بشراهة وبسرعة وعلى عجل ، فى عينيه لمحت بعض الشفقة ، شعرت بالاهانة ... قررت الصمت ، سأدعه يمضغ كلماته مع الشفقة البادية فى عينيه ، انه يحاول ان يثبت لنفسه قدرته على العطف...
ــ كاتى ، أين انت ؟ ...
ــ هنا ...
ــ اشعر بالاختناق ...
ــ لقد أكلت كثيرا ...
ــ انت ماهرة فى الطهى ، سوف نقيم معا أجمل بيت ...
ــ ها ... لقد سقطنا فى حفرة القاذورات ...
ــ كيف ؟ ...
ــ ...
ــ انت جبان ...
ــ سيدى الضابط ، ارجوك ...
قفز الضابط فجأة ملتاعا ، اشار الى الجندى الواقف بجوارى، جرنى بقوة وعدت حيث السلام والرطوبة والوحدة ، وأحلام اليقظة التى تسبب لى صداعا دائما ، رقدت فى حجرتى بالسجن ...
اكلت قطعة الحلوى ، فى نهم ، هللت أمى فى سعادة ، حاولت أن أجلس بجوارها فى وقار ، لم تكن بى رغبة فى الحديث ، أردت ان اذهب بعيدا ولكن نظرات أمى امسكت بى ، كانت تود ان تقول لى شيئا ، تراجعت عدة مرات ، ثم ...
ــ لقد أصبحت رجلا ياسمسم ، كما صرت موظفا فى المصنع وتحصل على راتب كل أول شهر ...
سقطت أقنعة الطيبة عن وجه أمى ، ارتفع حائط الانانية فى نفسى، شعرت بالماء البارد يتصبب من جبهتى ، والغضب المشلول يعتصرنى ، أمى ما زالت تنظر الى ، وما زالت تتكلم ...
ــ ماذا تعطى لأمك ؟ قطعة حلوى ؟ قرشا أشترى به رغيفا ؟... ماذا تعطى لأمك ؟ ...

أمي ما زالت تتكلم ، اني افهم ما ترمى اليه ، ولـكنى أتظاهر بالبراءة وعدم الفهم ، أمى كانت تخفى القرش الذى يسقط من جيب أبى ، كانت تقول ربما يتركنا يوما ، ليس هناك أمان لأحد ، الكل يفعل ذلك ، ولم يتركنا أبى حتى الآن ، ولـكن أمى ما زالت تخفى القرش عن أبى ، هو يعلم أو لا يعلم ، لا أدرى ، ولـكن أمى ، ما زالت تخفى القرش وتخاف أن يهجرها أبى …

ماذا تعطى لأمك ؟ … لمـاذا لا ترد ؟ … هل نسيت ؟ …

كنت تقول ـ وانت لا تزال صغيرا ـ أن أول راتب لك سيكون كله من نصيبى ونحن الآن فى …

امى ، هل حقا صرت رجلا ؟ هل حقا مرت ايام الطفولة ، وصار الولد الخائف دوما رجلا يأمر ؟

ـ كاتى ، هذه من أجلك ، لقد ترقبت المركب اسبوعا حتى جاءت من الهند اليوم ، انظرى … ان بها رائحة تاج محل ، قصر العشق والهوى …

ـ … … …

ـ لمـاذا لا تتكلمين ، كنت أظن انك تسرين من ذلك ؟

ـ أنا مسرورة بالفعل …

ـ لايبدو عليك ذلك ؟ !

ـ وكيف اظهر سرورى ، الصراخ يعجبك ؟

ـ هه ؟ لا ، فقط أود ان اشعر بأنك سعيدة …

ـ سوف امشى فى الشوارع أهتز كسمكة الرعاش …

ـ الرعاش ، ما هذا ؟ …

ـ الرعاش ،التى مشيت معها حتى الميناء وجلست تتحدث اليها

ـ ولـكن …

ـ هذا يكفى ، لا شىء ، هذا من تاج محل اذن ؟

ـ فعلا …

ـ كيف تركتها ؟ كان فى امكانك المبيت هناك …

ـ لن ابكى ، لمـاذا أتيت ؟ …

ـ انا برىء يا كاتى …

ـ ولـكنى رأيتك ، انا ايضا اشتركت معك ، انا ايضا اخطـأت ، يجب ان انال جزائى …

— لا ، يكفى أحدنا ...
— انا أحبك ...
— وأنا أيضا ...

ابتعدت قطرة الدمع عن انفراجة الفم الباسم ، اهتزت كتلة الشعر الاسود ، ارتفع الصدر يعلو مع تردد الانفاس المتلاحقة ، ابتسمت كاتى فى فرحة حقيقية ، شعرت بحبها يسرى فى كيانى ، شعرت بالنشوة ...

— أحبك ...
— ولكنى أصبحت اقضى الايام وراء القضبان ...
— لم تتركنا القضبان ، كنا نسير بها ، نحملها فوق الاكتاف ...
— كنت أود ان أحطم ما أحمله ، ان اتحرر ...
— لا تيأس ، كن رجلا ...

محكمة :

عالم الرجل الاطول ، خرج بعض الناس ، وقف آخرون، جلس القضاة ، المنصة مرتفعة وعالية ، اهتز روب المحامى ، اعتدل الرجل فى جلسته ، ران الصمت فى القاعة ... نظرت حولى فى تطفل هه ... المرأة المترهلة تجلس مثل كومة اللحم ، عجوز نتنة ، تتنفس بصعوبة وكأنها على وشك البكاء ، دفعها الرجل بكعب بندقيته ونهرها بفلظة ،صاح الاعرج مسترحما ، انه يبدو صفير السن وسط الرجال الذين وقفوا بيننا وخلفنا للحراسة ، وتبدو عليهم علامات البلاهة ، صرخ الحاجب ، وقف أحدنا يجيب ...

كاتى تقف امامى ، أبى ينظر حوله فى شرود ، أمى تبكى ، اخى الصفير يحاول ان يقترب منى ، الضجة فى القاعة ترتفع مستغلة انشغال القاضى بالنظر فى الاوراق التى أمامه ... كاتى هل يمكن أن تأتى ؟ ...

نظر القاضى ، ذو الشارات الحمراء على الكتف ، الى من القاعة تلاشت الضجة تماما ...

« ... رع يحكم فى الاعالى ، حيث يقف حورس بجانبه وتقف ايزيس بين يديه ...

عيسوى يغنى ، عيسوى المجنون يغنى ..

أيها الاله المتوج ، رع ...

عادلا صار حكمك ، ببركتك أقام ابنك العدل بين الرعية ، بكلماتك اهتدى الكهنة الى الحقيقة ، قم حيث انت وانظر حولك ، ذلك مكتوب فى اللوح ...

لك الرأى واليك ترجع كل الأشياء »

دق القاضى بعصبية ، لا احد يتكلم ، كف القاضى عن الدق وعاد ينظر الى كل الاوراق التى تكومت أمامه فى شرود ، ساد جو القاعة نوع من عدم المبالاة ، همس القاضى الى زميله ، تقدم احد المحامين من المنصة وناول القاضى ورقة من الاوراق ، ابتسم القاضى فى ضيق، رجع المحامى فى خيلاء ، نادى القاضى على المتهم الاول ، وقف الأعرج ، القاضى يكتب بقلم رصاص بسرعة ، اندفع محام آخر ، وحاول ان يشد القاضى من كمه ، ولكن القاضى كان مشغولا بالكتابة ، كنت اترقب الحكم وانا انظر الى كاتى ...

ـ متى نتزوج ؟ ...

سألتنى كاتى فجأة :

ـ حين يأتى القمر ...

ـ ومتى يأتى القمر ... ؟

ـ عندما يأتى دوره ...

نطق القاضى باسمى ، ارتعش أبى فى جلسته ، صرخت أمى فى هلع ، ارتفع عويل اخى ، حاولت كاتى ان تمسك بيدى ، شعرت ان اذنى تشتعل ، كنت افكر فى كل شىء قبل دخولى الى هنا كنت اعلم اى حكم سوف يصدر منتظرا فى لامبالاة ، غدا أتصور مدى تعاسته ، بعده ينسدل من حولى ستار من الاستسلام ...

أشعر وكأنى اسير فوق السحاب ، او فوق رمال متحركة ، اغوص الى الاعماق ، احاول أن اصعد ، ولكن الرمال تتهاوى من تحت قدمى ، جسدى تحتويه طبقات الرمل الخادعة ، يبتعلنى الرمل ، صدرى يضيق واكاد اختنق ، اتنفس بصعوبة ...

ـ كاتى ...

ـ لا تخف ، كن رجلا ، تماسك ...

احاول أن أراها ، القاضى لا يزال يتكلم ، الجندى يمسك بى بقوة وعنف ، احدهم امسك بيدى ...

ـ كاتى …

ـ تماسك ، مجرد لحظات وينتهى كل شىء ، كن رجلا …
اغوص فى الظلمة ، مساء ضحل ، أشم رائحة العطن ، اتقزز …

ـ أرجوك ، ليس هكذا …

يشدنى الجندى ، ارغب فى رؤية أمى ، اتلهف اليها ، اتمنى ان تضمنى …

ـ أمى …

الناس يتكلمون فى بساطة ، راح أحدهم فى سبات عميق، انفاسه تتردد فى انتظام ، بذلة الجندى قبيحة الشكل ، سرواله لايصل الى قصبة رجله ، تتدلى منها خيوط بيضاء رفيعة ومتآكلة ، حول جيوبه تجمعت نقط سوداء من القاذورات ، من فمه ينبعث عاليـا صوت تنفسه فى حشرجة خشنة ، تفوح منه رائحة كريهة ينفثها من فمه فتملأ المـكان …

ـ لماذا فعل كل هذه الجرائم ؟ لا يبدو عليه سمات المجرمين …

ـ انه أخبثهم ، شكله فقط هو الذى يوحى بهذه الثقة ، ولكنه…

ـ هذا هو الرجل الذى باع حى الاربعين …

ـ نصاب …

ـ مخرب …

ـ عسكرى …

محكمة !

ـ كاتى …

ـ اصعد …

عربة سوداء ، القيد الحديدى اسود اللون ، ضحك الجنـدى بخشونة وأشـار الينا ، انه يريد ان يدخن … ناوله الاعرج علبة سجائره ، ولـكن الجندى زام ، تلاقت نظرات الرجل الاعرج مع المرأة التى تـكومت فى قاع العربة ، وقف الجندى ينظر اليهما فى بلاهة ، ناولته المرأة ورقة مالية ، صاح زميله وسبها ، غضبت المرأة وسبته أيضا ، حاول ان يضربها ، كانت تقذفه باللعنات ، اقترب الاول وصفعها ، بصقت فى وجهه ، انهالوا عليها ضربا ، السيـارة السوداء تمرق فى شوارع المدينة ، من الشارع تأتى الاصوات …

فى داخل السيارة كان الجو حارا وخانقا ، والقيد الاسود يغل يدى ، يبدو ان الصوت يقترب منى ، اضيق بالحياة ، أشعر وكأنى ذبيحة تساق الى المذبح ، دون ان تناضل ، ان تستغيث ، ركلت الجندى الواقف أمامى ، لكزنى فى جنبى بمؤخرة بندقيته ، شعرت بالكراهية الشديدة له وبصقت على وجهه ، كانت المراة تجذب رأس الجندى بينما هو يشهق بصعوبة ، كان سمينا أرهقته حركة المرأة ، تدخل الآخرون ، اشتعلت الدنيا عراكا شرسا من جانب واحد … قذف الاعرج بكيس من النقود ، توقف الجميع لحظة ، حك جندى ذقنه وابتسم فى وجه الاعرج ، أخذ الجندى الذى تعذبه المراة فى تأوهه ، ارتبك الجنود ، وصاروا يصرخون فى وقت واحد

زحف الاعرج وهمس الى قائدهم ببعض الكلمات ، انبثقت حبات العرق من جبينه وتوقف مذهولا ، نظرت أنا الى كتفه الذى يحمل مجموعة من الاشرطة ، صعدت نظراتى حتى حافة معطفه ، كان جرح رقبته قديما وغائرا ويبدو كقناة جافة ، حول فمه مجموعة من البثور ، هدأت العربة من سرعتها ، دس فى جيبه رزمة الاوراق المالية ، ووقف منزويا على نفسه ، كان ذليلا ومكسور الجناح ، وحزينا ، نظر الى زملائه متوسلا …

اعطى الرجل الاعرج أمرا بالهدوء والكف عن الحركة ، يبدو زعيما فى عربة السجن ، كف الرجال عن الحركة ، والجند أيضا ، ساد السكون ، وراحت العيون تبرق …

ـ أبى مفتش التموين جاء يسأل عنك …

ـ لماذا ؟ … لم تمض فترة على حضوره فى المرة السابقة … ؟…

ـ ربما يؤدى واجبه …

ـ واجبه ؟.. لن يشبع ابدا ..

ـ يقول انه يريد مقابلتك لأمر هام …

ـ لقد تعبت من الدفع ، مالى ينساب من يدى كالماء بسبب هؤلاء الذين لايشبعون …

خرجت السيارة من المدينة ، يبدو انها تصعد تلا ، نامت المرأة ، وارتفع صوتها فى أنين موجع ، اغمض الاعرج عينيه ، تجمع الجنود وكونوا حلقة صغيرة وراحوا يتهامسون ، ساد التوتر جو العربة ،

السيارة تعبر التل ، والجبل يبدو على قرب ، انفضت دائرة الجند ، توقفت العربة ...

قفز أحد الجنود خارجها ، خلفه تدحرجت المرأة ، لكزني الاعرج في صدري ، جذبني أحد الرجال الى خارج السيارة ، سقطت على الأرض ، ركلني الجندي الذي كرهته وبصقت عليه ، وقف متحفزا ، صرخ الاعرج وأمرنا بالجري ، تدحرجنا هابطين التل ، ارتفع صوت الرصاص في شلال جنوني ، تبعثرنا في الوادي ، الرصاص يغمر المنطقة ، كانت بي رغبة في النوم ، وكنت جائعا ...

بعض الملامح التي تظهر في الأحلام :

عندما استيقظت فى الصباح ، شعرت بالارهاق ، مضيت الى الحمام فى تثاقل ، بل اننى حملت نفسى مشقة السير ، وانتابنى فى ذلك الصباح شعور بالذنب وفكرت فى الصلاة ، جهر أبى بصلاته وكبر عدة تكبيرات ، أشعلت أمى موقد الفاز وبدا طنينه الرهيب يملأ الجو ، بكى أخى الصفير ، وقعت كوب الشاى من يد أمى ، رفع أبى عقيرته وهو يسجد ، انتابت أمى نوبة بكاء ، وضعت قميصى على كتفى واندسست داخل سروالى على عجل وجريت خارج الدار ...

ـ الملك لله ...

جذبتنى بائعة الجميز من يدى ، فاحت منها رائحة عطنة ، انسللت منها واسرعت فى السير ، وقفت قطة سوداء تتمطى فى كسل ، لمحها كلب من بعيد ، اندفع نحوها نابحا بقوة ، استدارت القطة وصعدت الى داخل احد المنازل ، وقف طفل يتبول وهو يبكى ، قذفته اخته بحجر ، خرجت احدى النسوة وسكبت جردلا من الماء القذر على ارض الشارع ... صاح رجل فى تأفف :

ـ يا فتاح ياعليم ...

اجهزة الراديو تتجاوب بتلاوة القرآن ، يجلجل صوت المقرىء فى سكون الصباح ، احد البحارة يترنح من شدة السكر ... ويغنى ...

(هل هناك من يستطيع ان يقول كلمة واحدة فى حق امراة طاهرة؟ شريفة كانت حبيبتى ، تنظر فى البحر دوما حتى ترى اعلامى مرفوعة وعندما اقترب من الميناء ، ساعتها ... كانت تخرج ... تتزين مثل عشيقة القبطان ...

لم تكن تتركنى انتظر ، كانت تقبلنى على رصيف الميناء ...

وكانت تأخذنى بين أحضانها ،كذلك كنت انا،مخلصا لها كل الاخلاص، ... فى رحلاتنـا البعيـدة ، وحينما كنا نهبط فى الموانى كنت ــ على خلاف الآخرين ــ اتعفف ، أصد بنـات الجزر البحرية اللاتى كن يتلهفن على قبلة واحدة منى ...

كنت أقول ، وأنا اشيح بوجهى عنهن ، حبيبتى تنتظر عودتى هناك فى الميناء ...

وكما كانت حبيبتى تنتظر عودتى ، وكانت طاهرة نقية ، كنت انا أيضا أحافظ على طهارتى ...

ولكن الآن ، حبيبتى ماتت ، تركتنى وحدى أنتظر)

تجمع بعض صبيـة المدارس حول البحار الذى يغنى ، راحوا يمطرونه بالاسئلة الساذجة ، ويتهمونه بالـكذب ، وبعضهم راح يقذفه بالطوب ، والبعض الآخر يسبه ويهينه ، اقترب البحار واتجه ناحيتى ، عيونه حزينة حمراء ، معطفه الابيض ممزق ، غطاء راسه يحتل مؤخرة راسه ويكاد يسقط ، فمه تفوح منه رائحة الخمر ، وقف بجوارى ، وراح يغنى مرة أخرى ، وقفت انا استمع اليه فى دهشة ...

« حبيبتى ماتت ، لم تعد طاهرة ، لانهـا لم تعـد لى وحـدى ، صارت لـكل الرجال ، وأنا أيضا ، أصبحت ملك كل النسـاء ، وأصبح لى فى كل ميناء نرسـو عليه ، امراة تبحث عن رجـل ، واكون انا هذا الرجل ...

من منكم يستطيع أن يتحدث عن حبيبتى ؟

لن يجرأ احدكم على ذلك ، لأنكم جبناء ، لا ... لأنكم تستمتعون بها من دونى »

سألنى البحار بعد ان كف عن الغناء أن اساعده ، وان أجيب على أسئلته ...

ــ هل هى خائنة ؟ ...

ــ لا أدرى ...

ــ لا ... هى ماتت فقط ...

اقترب عيسوى وانقذنى ، نهر البحار وأمره بالابتعاد ، مشينا نحو المدرسة ، كنت حزينا ، أضاف البحار حزنا جديدا الى حزنى...

ــ ماذا بك ...
ــ ياه ... حلم مزعج ...
ــ خير ...
واذا بثعبان هائل الحجم ينقض على ، يكاد يلتهمنى ، صرخت فى فزع ، هرب الثعبان ، جريت خلفه ، مشى يتلوى فى حقل اخضر ، صرخ مزارع الحقل وجرى ، شعرت بالرعب ، عدت فوجدت أبى ميتا ، نظرت الى عينيه ، ارتميت على جسده ، ناديته :
ــ أبى ...
ــ بسم الله ، ماذا بك ياولدى ؟ ...
ــ أنا ...
تلفت حولى ، كنت واقفا على فراشى ، وابى ينظر الى فى توجس هب صائحا بعد فترة صمت :
ــ عقلك ذهب ، انت ابن شيطان ، علامة نحس فى دارنا ، وسيكون حظك عقيما وتكون كثير المصائب ...
جاءت أمى مضطربة ، توسلت الى أبى ان يدعنى ...
ــ لا تبشر على الطفل ...
تركنى ومضى ساخطا ، صاح فى وجهها ولعنها ، وصف أهلها بالخسة والوضاعة ، لعن اليوم الذى رآنى فيه ، واليوم الذى رآها فيه ، لعن كل الناس ، لعن نفسه ، خرج ...
ــ انه رجل شرس ...
ــ احيانا ...
ــ دائما تشكو منه ...
ــ له قلب رقيق ... احيانا يبكى مثلنا ...
ــ انا لا أحبه ...
ــ كيف ؟ ...
ــ لا أدرى ...
ــ ... ...
ــ انت تفار منى ... لان لى أبا ...
ــ طظ ، لم أكن اتمنى ان يكون لى أم ولا اب ، عمتى تكفى...
ــ المرأة الكفيفة ! !

ـ هذا أفضل ... لأنها لا ترى ما افعل ...
ـ عيسوى ، ماذا لو كان لك أب مثل ابى ؟ ...
ـ كنت سأقتله ...

بعض الناس يفسرون الاحلام ، ويقولون ان الثعبان علامة المجد والرفعة ، وهذا يعنى اننى ... حينما أصبح رجلا سيكون لى شأن عظيم ... قصصت على أمى ذلك ، نظرت فى أسى ، قالت :

ـ ربما ...
ـ ولـكنهم يؤكدون ...
ـ بعض الناس يرى غير ذلك ، لا تهتم ...
ـ كاتى ، ماذا تتخيلين مستقبلى ... ،
ـ عالما عظيما ، قائدا عاما ، ملـكا ...
ـ ها ... انت تبالغين ...

(اشترى أبى كمية كبيرة من الشاى ، كان الشاى مهربا فى احـدى السفن ، فرح أبى فرحا شديدا ، ولـكن الشرطـة عثرت على الشاى واستولت عليه)

ـ متى ولدت يا أمى ؟ ...
ـ فى العيد ...
ـ أى عيـد ؟ ...
ـ العيـد الـكبير ...
ـ ولهذا ، يا أمى ، سيكون حظى كبيرا ...
ـ ولدى ... لقد ذهب والدك مع الشرطة ...

(خسر أبى ثمن الشـــاى ، وكذلك المبلغ الذى دفعه للشرطة ، وحزن حزنا شـديدا ، نام مريضا مدة من الزمن ، وكنت وقتهـا أشعر بالسعادة والحرية)

ـ اذهب الى هناك ...
ـ وماذا افعل ؟ ...
ـ أنظر كيف حاله ، ربما يود شيئا ...
ـ لا أرغب فى الذهاب ...
ـ ارجوك ... اذهب من أجلى ...
ـ من أجلك فقط ...

وجدت أبى جالسا امام الضابط ، كان يدخن فى شراهة ، تأثر حينما رآنى ، ابتسم الضابط فى وجهى وراح يمطرنى بالاسئلة...

حينما جاء وكيل النيابة وقف أبى ، شعرت بالمهانة ، كان مرتبكا لايدرى ماذا يفعل ، وكيل النيابة كان يزورنا احيانا ، بل كانت تربطه بأبى بعض الصداقة ، ابتسمت أنا فى وجهه ... ولكنه تجاهل ابتسامتى وأشاح بوجهه ، جلس وأخذ يدخن ، ثم أشار الى أبى بالجلوس ...

ـ ماذا هناك ؟ ...

ـ لا شىء ...

ـ ما معنى لا شىء ؟ ...

ـ أبى خرج من ...

تنهدت بارتياح ، جلست ، أخذت تنظر الى مربعات الصالة ، تساقطت من عينيها بعض القطرات ...

امى كانت تبدو مترهلة بثوبها المنزلى المائل الى السواد ، تبدو عروق يدها نافرة ومائلة الى الزرقة ... كفها متشققة وخشنة ، وبدو لامعا باطن الكف ...

ـ قلت له من قبل ، لا داعى لذلك ، مستورة والحمد لله ... نحن افضل من غيرنا لدينا ما نحتاج اليه واكثر ، لم يستمع الى كلامى ...

امى يبدو عليها الحكمة وهى حزينة ، كما تبدو وكأنها امراة اخرى غير زوجة ابى الهلعة دائما والخائفة دوما ، حاولت أن احترمها او ان احبها ولكنى لا أستطيع ... انها تبدو عادية ، وعلى مرور الأيام يتكتشف لى الكثير من عيوبها ...

ـ الآن كان من الممكن ان يذهب ولا يعود ... كنا سنخسر كل شىء ، كنا ... لمعت قطرة عرق على جبينها فى وضوح ، بان بريق عينيها ، اسرعت ونكست رأسها بعد أن احست بنظراتى متجهة اليها ، وكأن تيارا من اللهب أشعل حريقا فى جوف الجب ، وظهر ذلك الرجل الراقد فى داخلها ، ظهر واضحا وبانت ملامحه جيدا ...

حاولت امى ان تبكى ، لم تستطع ، صدرت منها بعض الاصوات

الحادة ولكن ليس لها معنى ولا تعبر عن شيء ، اسرعت الى ادواتها وراحت تعد الطعام ...

بعد فترة ظهر أبى فى منزلنا ، كان مهدودا ومهموما ، لا ينظر الى أحد ، تحس ان به رغبة لأن يتوارى ، أمى ارتدت ملابس مزركشة ، يفوح منهـا رائحة الورد كما يفوح منها رائحة الطعام الجيد ، اخى الصغير راح يحبو على بلاط الصالة فى اتجاه أبى ، تلقفته أمى وحملته الى أبى الذى تناوله وراح يقبله ، صرخ فى فزع:

ــ يا أهل البيت ...

ــ من ؟...

ــ ضيوف ...

ــ يامرحبا ...

صاحت جارتنا الشابة التى كانت تساعد أمى فى تلك الليلة ، فى صوت ممطوط :

ــ تفضلوا ، يا مرحبا ...

امتلأ المنزل بالناس ، اكواب الشربات تدور ، والكلمات مكررة ومعادة ، ولهجة التأثر بادية التصنع ، ضقت ذرعا بالبيت وخرجت الى البحر ... وحينما عدت فى وقت متأخر كان المنزل هادئا ، ولكن فى الصبـاح الباكر ارسلتنى أمى لأحضر طبيبا على وجه السرعة

سألتنى كاتى فى اليوم التالى :

ــ لماذا يرتكب والدك هذا الفعل الآثم فى حق الناس ؟ ...

ــ لا اعرف ! !

ــ لقد بكيت امس وكنت حزينة من اجلك ...

ــ من اجلى انا ! ... وانا ما دخلى فى هـذا الموضوع ! ! ...

ذهبت الى احد الدراويش ليفسر لى الحلم ، نظر الى وقال :

ــ لقد ذهب الايمان يابنى ، ولى عصر الروح وتغلبت المادة ، واصبح هم النـاس جميعـا جمع المـال ، هـذا زمن ملعون ، اقتربت نهاية العالم ... كم تدفع ياولدى ؟ ...

ــ أملك بعض القروش ...

ــ هذا لايكفى ، قطعة اللحم عسيرة المنال والجزار رجل لايرحم ، وكذلك الزوجة والاولاد لايرحمون ...

هــذا الدرويش سمين بدرجة كبيرة ، وتبـدو رقبتـه وهو يترنح كجذع شجرة الجميز ثابتة وقوية ، كما يبدو نضرا موفور الصحة ...

ـ ولـكنى لا أملك سوى هذا المبلغ ...

ـ هه ... على قدر المستطاع ، لن نخيب لك رجاء ، قص على ما رأيت فى نومك ...

دخلت فتـاة وهمست للدرويش ببعض الـكلمات قام بعدها مسرعا ...

ـ ولـكن ياسيدنا أنا لم أقصص عليك رؤياى بعد ...

ـ غدا يابنى ، غدا لا تقلق ...

ضحك عيسوى حينما أخبرته ، وتظاهرت أنا باللامبالاة ، ولكنى حقدت على الدرويش ...

ـ كاتى ... الرجل الاعرج يشكو من سوء الحال ...

ـ انت رجل طيب ...

ـ ويقول ان رجاله لايستطيعون بيع ما لديهم ...

ـ ... ...

ـ ويقول انه يجب علينا ان نسافر ...

ـ هذا الرجل خبيث ...

ـ استدرجنا الى مصيدة شريرة ...

ـ انا حزينة من اجل ذلك ...

ـ كاتى ... أنا أحبك ...

ـ وانا أيضا ...

ـ ولـكنى اشعر بالضيق ، وكأن حبلا يلتف حول رقبتى ...

ـ تخلص منه ...

ـ كيف ؟ ...

استدرت ، رقدت على الارض ، حومت فوقنا طائرة ، انتظرنا القصف الجوى ... انبطحنا على الارض ، ذهبت الطائرة وتركت ذيلا من الدخان ، لم يحدث تبادل لاطلاق النـار ، الصمت يعم المنطقة ، رقدت على ظهرى ، كاتى ترقد بجوارى ، أشعر بالقلق من اجلها ، أتمنى ان احملها بعيدا عن هـذا العالم ، الذى لا أحبه ، والذى

علمنى الشر قبل ان اعرف نفسى ... استقامت واقفة بسرعة نظرت اليها ، حبها يجرى فى دمى ، الرغبة فى خنقها وكتم انفاسها تجعلنى ارتعد ، أخاف من نفسى ، عيسوى كان يملأ حياتى بحيويته يستهوينى بتصرفه التلقائى والعفوى ، تشجينى كلماته الجديدة المعنى ... كنت انظر الى كليهما — عيسوى وكاتى — واشعر بالحياة سعيدة ممتدة من حولى ، ادير فى عقلى خطط المستقبل ، واسبح فى تصوراتى ، وعيسوى يغنى للحياة ، وشعر كاتى يتطاير مع الريح الآتية من البحـر ، وتيجر يقف فى رشاقة يرهف سمعه لغنـــــاء عيسوى ...

« السلام جاء ...

الرب فى الاعالى يرى وينظر ... وينتظر الانسان ...

تهمس أصوات الشيطان ...

تنبعث من تحت الارض ، تعفر وجـه الحق ، تطلق سـحب الدخان ، والرب فى الاعالى ينتظر الانسان ...

ولهذا جاء الذى يمسح عن العالم أدران السنوات التى مضت ، طوبى لأبناء الرب الذين صبروا عذاب السنوات ... تلك السنوات »

— عيسوى يا مجنون ، لمن تغنى ؟ ...

— لنفسى ...

— ولـكننا لا نفهمك ، ولا نفهم كلماتك ! ...

— لا يهم ...

قتلته شظية حرب ، ارقدته فى جوف الارض ، بينما كان يغنى للحياة ...

— كاتى ... أين انت ؟ ...

— ... ...

ايضاحات جديدة لحادث تكرر حدوثه :

عندما سألت الرجل الاعرج :

ـ كيف تخرج الاشياء المسروقة من السويس ! ؟ ...

اجاب فى دهشة :

ـ فى السيارات طبعا ...

ـ ولكن نقط الحراسة ، والتصاريح ! ...

تحسس بطنه ، ابتسم فخورا بنفسه ، نظر الى المراة المترهلة ، صاح :

ـ الوقت يمضى...

هزت المراة راسها ولم تتحرك ، نظر الرجل الى ساقه الملتوية ، قال :

ـ ابى ، رحمه الله ، كان ملاكا ...

تشاغلت عنه ، لم احترم هذا الرجل ابدا ، كان يذكرنى بوالد شوق ، شرير فى تبجح ، متعال فى وضاعة ...

ـ ابى كان يقول ، سوف تسير معك مجموعة من الأغبياء تفسد عليك عقلك وتورثك الكفر ...

ـ اصمت ياغبى ...

قذفته المراة بحصاة صغيرة اصابت يده التى يدلك بها قدمه المشوهة ...

ـ يا مخبولة ! !

كانى تنفر منهما ، لا تكاد تراهما ، أو ترى أحدهما ، حتى ينتابها الحزن والقلق ، وتسرع فى الاختباء ...

الاعرج يواصل حديثه رغم تحذير المراة له ، يحاول ان يتحدى نفوذها ، يخرج عن دائرة سلطتها ، يقول :

ــ ابى تنبأ لى بمستقبل عريض ، ولـكن حذرنى من الاغبياء ...

كان رحمه الله ، حبيبا واخا ، وكان لموته أثر سيىء علىمستقبلى شعرت باليتم والقهر ، ولهذا فأنا دائما حزين غاية الحزن ، احمل هما كبيرا فوق راسى ، واصبحت وحدى أفـكر فيما يجب ...

ــ لم تقل كيف تخرج كل هذه الاشياء من هنا ؟ ...

ــ هل تود أن تعرف حقيقة ؟ ...

ــ نعم ...

ــ لـماذا ؟ ...

ــ لـكى ...

(تقدمت بعض القطط فى ثبات ، نظرت الينا فى تحد ، قذفها الرجل بحجر ، تشاءبت القطط ومضت)

ــ لـكى تفعل مثـل ما افعل ... أليس كذلك ، انا فقط الذى يفهم فى كل العمليات ، بدون موافقتى لا يتم شىء هنا او هناك ، أننى أستخدم الاغبياء لـكى أستفيد من غبائهم ، كما أسـتخدم المـال فى افساد عقول الاذكياء ...

ضرب قدمه الملتوية ، وقف ، توكأ على الحائط ، وقفت المرأة المترهلة ثم مشيا فى الظلام ...

ــ كاتى ، أود ان أطوف حول العالم ، وأرى كل البلدان ...

ــ أود ان ارى كل الناس ، وان المح السعادة فى عيونهم ...

ــ أعبر كل البحار والمحيطات ...

ــ هل هذا ممكن ؟ ...

ــ ممكن ... عندما نصبح أغنياء ...

ــ أو أحرارا ...

عدت الى المنزل مرتديا زى الـكشافة ، احمل بعض الادوات ، سعيدا كنت ، شهقت أمى ، سـألتنى عن ملابسى ، ابتسمت فى اشفاق ، أشرت اليها لترى شرائطى الخضراء والحمراء ، كنت متباهيا بنفسى ، لم الحظ خيبـة الأمل والفجيعة المرتسـمة على وجهها ، صحت :

ــ سوف نقيم ليلة فى الصحراء ...

ــ صحراء ! !

ـ وفى المرة التالية سنقوم برحلة لاكتشاف جزيرة فى البحر ...

قصصت علىّ أمى أحلامى ، رغبتى فى رؤية العالم ، اكتشاف المجهول ... اختـــراق حاجز الاماكن المعروفة والاندفاع نحو عالم المجهول ، عاد ابى متأخرا فى تلك الليلة ، تظاهرت بالنوم ، تقـدم ابى من ادواتى ، تحسسها ، قالت أمى فى صوت خنقه الخوف :

ـ سيسافرون ، وسيبيتون فى الصحراء ...

لم يجب ، نام ، فى الصباح وجدت ملابس الـكشافة وادواتها محطمة وممزقة ...

ـ كاتى ، هل تذكرين ؟ ...

ـ نعم ...

ـ أمى هى السبب ...

ـ وأبوك ايضا ...

ـ قال انه من العيب ارتداء هذه الملابس والسير بها فى الشوارع...

ـ أمى قالت ان ذلك فساد للأخلاق ...

فى الصباح وقفت أمام قائد الـكشافة خجلا ، ابتسم هو فى حزن وقال بعض الـكلمات ، كان العرق البـارد يغمرنى وانا أنصـت اليه ، ثم استدار وتركنى ...

اقتربت كاتى ، وقالت ... انها مريضة ، وتشعر بنهاية العالم وضعت يدى فوق جبينها ، كانت تهتز وحرارتها مرتفعة ...

كان خالى يتلو بعض التعاويذ ، واحيانا يتثاءب وهو يتلوها ... ويضع كفه على راسى ، يكرر كلمـات منغمة عن بقرة محمـد التى اعرضت عن الطعـام ، واتظـاهر بالنوم هربا فتحملنى امى وهى حريصة كل الحرص ، ترفعنى فى تمهل ، خالى لا يزال يتلو فى تشنج ، أمى تضمنى فى حنـان ، اتصور عالما مليئا بالملائـكة يحوم حولى ، تضعنى امى فى الفراش ، أود ان اضحك ، النور يأتى من النافذة ، يخترق الستائر ، تتضخم عرائس الستائر ، التى نقشت وهى ترقص ، الوسـائد باردة ... تدور فى عقلى افـكار حـول الجنة ، أحاول النوم ، صـوت سيـدة تنـادى ، عرائس الستائر بدأت الحركة ، شعرت بالخوف ...

لـكزنى رجل ضخم ، صحوت من النوم وانا اشـعر بالألم ، الاعرج عاد ، صاح :

ــ تحرك ...

ــ الى اين ؟ ...

نظر الى فى شراسة ، قال بعض الـكلمات فى عصبية ، تسللنا فى الظلام ... جاءت سيـارة نقل الاثاث ومضينا فترة طويلة حتى وصلنا الى أحد الدور وتركونا نعود الى النوم ...

جاءت كاتى حزينة ، مرهقة ، جلست فى وهن ، ثم كانت احلامنا جميلة ...

بيت فوق الربوة ، الربوة عالية وتتكون من الصخور الحمراء ، يختلط بهـا تلال صـغيرة من الرمال البيضـاء ، وبحـر ازرق ، شجيرات خضراء صغيرة تتخلل الصخور والرمل ، وناقوس يدق ، مائدة كبيرة طويلة ، كاتى تجلس فى أولها وأنا فى الجهة المقابلة ، وعشرات من الزوار والضيوف تتناول أطباقا متعددة ومتنوعة ، وحمام ساخن ، وفراش دافىء ، نزهة فى سـفينة صـيد ، نزرع شجرة ، نرويها ، تنمو الشجرة ، ملاعب أصدقاء ، نتحرك ، نجرى نعمل ، نعيش ...

ــ كانت مجرد احلام ...

ــ لم يعد لتحقيقها من سبيل ...

ــ أصبحت هاربا من السجن ...

ــ انتفض لرؤية شرطى ...

ــ وحيدا تقتلنى الوحدة والقهر ...

ــ ولـكننى احبك ...

ــ وأنا ايضا ...

ــ لا تخافين ؟ ...

ــ لا ، لم أعد أخاف ، لم يعد هناك ما اخاف عليه ...

كان رحمه الله ، رسولا يأتى بالخير ، ولـكنه الآن مات ، من أحكى له من بعده ؟ لقد ذهب عيسوى ولن يعود ، ولن أسمع اغانيه ولا ضحكاته ، ولن يعرف هو ما حدث لى ...

احضروا لنا ملابس جديدة ، كنت قد نمت نوما طويلا ، وخفت

حدة آلام جسـدى وشعرت ببعض الارتيـاح ، طلب منى الرجـل الاعرج أن أرتدى ملابسى الجديدة واسـافر مع احد أعوانه ، الى بلدة أخرى حتى تخف عاصفة البحث عنـا ، يجب ان يموت الحماس والاهتمام بموضوع هروبنا ، وبذلك نساعد من يساعدوننا على الفرار، وبعدها نعود الى حياتنا الطبيعية ...

ـ كل شيء يمكن تناسيه ، لا احد يشعر بآخر ، امامنا الـكثير لنقوم به سعا ، لن يقـدروا على سـحقنا ، هنـاك آلاف الطرق للهروب ، وكذلك للـكسب ...

كان الفجر مع نسماته الرطبة يرسم صـورة حزينة ، ورائحة البحر عطنة ، وصـفارة مركب صيـد تعزف ترنيمة نوبة عمـل ، والضوء الاصفر ينعكس على الورق امامى ، وكتاب قد صدع رأسي، والشعور بالخطيئة يسلبنى راحة البـال ، وجرمى يتضخم ، يزحف على راسى ، يحتوينى...كنت قد انتشيت فى أول الليل مع شوق ، والرجل يرفع عقيرته بالأذان ، الليـل يزول ، يأخذ معـه النشوة ، يجرف معه غشاوة الحلم الليلى ، وكتاب الجغرافيـا يقف أمامى متحديا ، والخوف من الفشل والرسوب يعصر قلبى ...

ـ كاتى ، انا أعشق الرجل الحر ...

كانت تجرى نحو المدرسـة ، وكأنها تسرع هربا من شيء ما ، استوقفتها ، هزت كتفيها ومضت :

ـ الرجل الحر نظيف القلب يفعل ما يعتقده ، وهو لهذا يشعر بالاطمئنان الى نفسه ...

انفاسى تلهث ، الاحقها ، الدنيـا تجرى منى لو ذهبت كاتى ، تتطاير جدائل شعرها ، تهتز ... تميل برأسها ...

ـ حقا ... اقول لك ، اشعر وكانى كبرت ، صرت رجلا كهلا ...

ـ ... ...

ـ كنت ...

تتجمع تلميذات مدرستها ، اشـعر وكانى منبوذ هنـدى تحق عليه اللعنـة ، عيسوى يشدنى ، يجذبنى ...

ـ كنت أود ان أسمع منك ...

بائع حلوى مكتنز اللحم ، يضحك ، تتـكور الـكلمات فى فمـه

ـ كنت أود ان أقول لهما ...

تتجمع حول البـائع مجموعات من الطلبـة ، راحوا يأكلون فى ضجيج ، اقتربنا ، صاح البائع مناديا ، وقفنا بينهم ، تناولنـا ما قدمه لنا ، عيسوى يفحصنى بنظراته ، فى عينيه عتاب ، استدرت واخذت أمضغ بسرعة ...

هى تعلم حتما ، الـكلمات تجرى فى المدينة ، تخبر كل الناس ، ترتد نحوى ، تذبحنى فى الفجر ، والرجل يؤذن ، تعلو عقيرته بالتوبة يتهدج صـوته ، يرتفع ويعلو ، الرغبة فى المغفرة ، اشعر بالضعف اتناسى واضحك فى سخرية ، فى فمى قطعة حلوى ...

ـ حسنا يارجل ...

ـ سنمكث هنا حتى يأمر الرئيس ...

ـ الرئيس ؟ من ؟ ... ذلك الرجل الاعرج ! !

ـ انت رجل عاقل ...

وكما أمر الرئيس ، كان علينـا ان نعيش ، سرنا فى دروب وحوار ، نحمل فوق ظهورنا أحمالا ، نأخذ عليهـا أجورا ضئيلة ، نلهو بها طول الليل ، حتى اذا جاء الصبـاح نعود لنحمل احمالا جديدة ...

اقترحوا علينا السفر ببعض الاشياء ، سافرنا ، جرى المال أكثر ، سـافرنا ... تحركنا خارج الحدود ، نذهب ونعود ، مال سـائل يجرى ونجرى خلفه ، لا حدود لشىء ، المـال ينتظر قبضه ...

ـ عيسوى ، اعتقـد اننا ضللنا الطريق ؟ ! ...

ـ لا ، ليس بعد ...

ـ ولـكن المنازل غير تلك التى الفناها ...

شوارع متشابهة ، نفس النـاس ، نفس الصيحات والـكلمات والشتائم ، نفس المرأة التى تقذف بوعاء المـاء القذر ، طفل يتبول... ولـكنى أشعر اننا ضللنـا الطريق ، ليست نفس الرائحة ، شىء ما مختلف تحس به فى قلبك ، وتشعر انك على خطأ ، فتقول كلاما لا تصدقه ، تضحك ، تتظاهر بالضحك ، ولـكنك خائف ... الخوف الابدى الراسخ فى اعماقك ... أمك تهمس فى اذنك ... اجعله خيرا يارب ، تبتسم فى استحياء ، تخشى على نفسـها من السـعادة ،

فالسعادة وهم خادع يخفى خلفه بؤسا ، علامة شر ، كفا مرسومة بالدم على اشرعة الابواب ، يراها القادم من الاعداء والاحباب ، السعادة سرقها اليهود مع مجوهرات وحلى نساء مصر الفرعونية ، صنعوا منها تمثالا لبقرة …

ـ ها هو المنزل ، لم نضل الطريق …

ـ البيت مظلم ، يبدو ان لا أحد هنا …

ـ سنحاول معرفة الأمر ، هل تأتى معى ؟ …

ـ لا … اخجل …

ـ جبان …

وحدى وقفت ، الشارع كالسرداب المظلم ، قط وقف فى جراة محتميا فى الظلام ، نبش الأرض وتبول ، اخذت اغنى خوفا ، غاب عيسوى اكثر من اللازم ، رحت اغنى بلا صوت ، لابد ان البيت هو البيت المقصود ، لم تفتح نافذة ولا باب ، ولم ينبعث منه ما يدل على وجود حياة بداخله … تصورت فراشى دافئا ، تمنيت أن أكون هناك … ابى رجل قاس ، ولكنه طيب القلب ، يضربنى ويعطينى بعض النقود وقطعة من اللحم ، أرغب فى الفراز …

أود أن أعود ، لقد اتيت الى هناك ولم أفكر فى الطريق ، اعتمدت على رفيقى ولم احسب حساب العودة ، كنت أثرثر متظاهرا بالمعرفة ، أحشو فمى بالعبارات واطلقها ، انطق الحكمة والتفسيرات ذات المعانى المختلفة ، ونسيت خلال ذلك كله التفكير فى طريق العودة ، اعتمدت اكثر على رفيقى ، والآن تركنى هذا الرفيق ولا أدرى كيف أعود ؟

… و … جاء احد الجنود ، قال انهم رموا تيجر بالرصاص ، قررت تقديم شكوى للقائد العام ، ضحك الجندى وقال : ان حضرة الضابط هو الذى أمر بذلك ، وقال ان الكلب قد تلوث…

ضايقنى الجندى بحديثه عن « تيجر » بهذه الطريقة ، كنت أود تأديبه ولكن القيد يغل يدى … القيد داخل نفسى ، يحز فى منطقة صنع القرار ، يحطم كل قوة نشطة للثورة ، يعمل على سحب الثقة كلما أقدمت على خطوة ايجابية …

هربت ، هربت معهم وتحت اشرافهم ، لا ادرى ماذا أفعل الآن ، كل ما أقوم به هو تنفيذ تعليمات هذا الرجل الاعرج ، مهربا ولصا ، وحامل سموم ...

... أسيرا ولدت ، واسيرا اعيش ، واسيرا ــ حتما سوف أموت...

كيف أهرب من نفسي ، كيف أمزق الشلل الذى التف على كيانى ، كيف أثور ، أفعل ما أقره انا ، افعل شيئا ينبع من ذاتى ، يخرج منى مباشرة ، واراه واسرع خلفه ، شيئا عاديا أو غير عادى ، صحيحا أو غير صحيح ، شيئا حقيقيا اعرف من خلاله نفسى ، لا يتحكم فيه أبى ، ولا أمى ولا عيسوى ، ولا كاتى ، ولا هذا الرجل الاعرج ، ولا الشبح الرابض داخل نفسى ...

انى أرغب فى الثورة على نفسى ...

سرداب داخلى لم يطرقه أحد :

وقف الرجل الاعرج ، قال صائحا :

ـ اغبياء ، كلكم اغبياء ...

لم يحاول احدهم أن يرد عليه أو يعترض ، شعرت بالمهانة وثارت فى داخلى اعاصير الغضب والرغبة فى الانتقام ، حاولت ان أصرخ فى وجهه ، ولكن صوتى لم يخرج من فمى ، كنت مترنحا اكاد اسقط على الارض ، لاحظ الآخرون ذلك ، راحوا يضحكون ، حاولت ان اتحرك نحوهم ، يبدو ان الارض تدور بى...

... حينما دخلت من الباب ، كانت السعادة ترفرف حولى ، اندفعت سعيدا مقتحما دارنا ... رايت امى بقرة هاربة من الجزار، ابى يهوى على ظهرها بعصاة غليظة ، وكلما ابتعدت عنه ، لحق بها وانهال عليها ضربا وركلا ورفسا ، وهى لا تملك ان تهرب ودون ان تواجهه ، تجرى وتهرول فى خطا هوجاء مضطربة ...

باغتنى المشهد ، اخاف سعادتى فهربت منى ، مضت لحظات وكأن العالم توقف ، رايت عين أمى منكسرة ، ذليلة ، حزينة ، تتراجع فى وجل ...

بعدها لم احترم امى مطلقا ، بل لم اعد احبها كما كنت احبها من قبل ، وكلما نظرت اليها ، عادت الى ذاكرتى صورة البقرة الخائفة التى تفر من ثور هائج يحاول قتلها ، كما ظل ابى يتمثل لى ثورا مخيفا ، اراه فى كل الناس ذوى السلطان ، أراه فى مدرس اللغة الانجليزية ، فى ناظر المدرسة ، فى مدير المصنع ، فى محصل القطار ، فى جندى السجن ، كما أراه فى ذلك الرجل ، الذى احاول أن اسخر منه ، الرجل الاعرج ...

تقدم الاعرج وجذبنى بشدة ، نظر الى عينى ، كان وجهى

يرتعش من الانفعال ، فتحت فمى لـكى اسبه ، تركنى وهو يقول :
ـ لم تعد تصلح لشىء ...

حاولت أن امسك به ، كان قد حجل عدة خطوات ، تقـدمت نحـوه ، سقطت ، احسست أن العـالم يدور بى ، كنت قد شربت قليـلا من الـكحول ... وقفت مرة أخرى واقتربت منه ، صـاح فى خشونة :

ـ لم يعد منك نفع ، انت تشرب طول اليوم ، ولا تفيق مطلقا... جبان ...

ـ ولـكن انا ...

قهقه الآخرون ، التفوا حولى فى دائرة ، قال احدهم كلمة بذيئة ، كنت واعيا لـكل ما يدور حولى ، ثرت وصـفعته على وجهـه ، سقطت مرة اخرى ، تملـكنى الاحسـاس باليأس ، قمت سريعا ورحت اتخبط فى وحشية اقاتلهم جميعـا ، اضرب كل من يقترب منى ...

الاعرج يصيح فى الرجال ، كفوا جميعا عن الحركة ، تسللوا الى الخارج ، رقدت أحاول أن التقط أنفاسى ، جلس الاعرج وقال :

ـ نحن نأكل من عرق الجبين ، لم نرث مالا لننفقه ...

ـ هم الذين ...

ـ انت ذراعى اليمنى ، انت تعرف ذلك ...

ـ ولـكن هم الذين يحاولون ...

ـ كف عن الشراب ، وانتبه لنفسك ...

اقترب احدهم وصاح :

ـ انه علامة النحس ، سيجرنا الى السجن مرة ثانية ...

تشجع آخر وقال :

ـ انه لا يفيق من الخمر ، ويتحدث أثناء سكره بأشياء خطيرة .. تهددنا ...

قال ثالث فى سخرية :

ـ انه يحلم بالمجد ...

ومرة أخرى التفوا حولى ، وراحوا يمطروننى باللعنات ، والاعرج ينصت لهم ، واشعر انه يشجعهم ...

.. آه المجد ، يا لكم من مجانين سكارى ، انى أراكم جيدا ، وارى عيونكم ، ملأى بالخوف ... عيونكم ــ لأنكم ــ جميعا خونة ... مرضى ، تصرخون ، وتضحكون ، تحاولون نسيان ماضى نفوسكم من خوف اسطورى مزمن ...

... المجد ، ماذا تعرفون أنتم عن المجد ؟

أن يترك الانسان اسمه باقيا على الارض مقرونا بفعل طيب أو قول طيب ؟ يا لكم من فقراء مساكين ، لا تعرفون سوى حقائب المهربات ، وأجهزة المنازل المسروقة ، انتم يا أبنائى البررة ...... لصوص ...

ــ لصوص ! !

حملقوا فى وجهى ، تقلصت عضلات وجوههم ، فتح الاعرج فمه فى دهشة ، اقترب منى ونظر الى وجهى ، قال :

ــ وانت يامولانا الكريم ؟

تلعثمت ، انهم ما زالوا يحملقون فى وجهى ، استدرت .. صاح الاعرج ثائرا :

ــ انت أيضا مثلنا ، ولكنك متكبر ، تنظر الينا وكأننا مجموعة من الكلاب الضالة ، ماذا تظن نفسك ؟

أخذ يتنفس بصعوبة ، تبدو فى عينيه بعض الدموع ...

ــ هل تظن نفسك ملاكا ... دائما تنظر الينا من فوق وكأنك ...

ارتعشت يده اليمنى ، يتجمع الرجال حوله فى تصميم قوى على فعل شىء ما ، ينتظرون اللحظة المناسبة ...

ــ تأكل مما نأكل ، وتعمل مثلما نعمل ، ولولانا لمت جوعا مثل الكلب الضال ...

صمت برهة ، الرجال تتقارب أكثر ...

ــ هل هذا لأنك موظف ؟ أو لأنك حصلت على شهادة ؟

طظ ... هذا لا شىء ... بدونى كنت مت جوعا ، أو عشت حياتك داخل السجن ... همهمة الرجال ترتفع ، لقد أطال الاعرج فى خطبته ...

ــ هؤلاء الذين تسخر منهم ، أليسوا هم الذين حملوك مريضا مثل الطفل ؟ ولم يتركوك فى الجبل حتى تأكلك الكلاب ؟ وراحوا

يسهرون عليك حتى شفيت... هم الآن لصوص وانت المحترم الوحيد هنا ... هه ؟

ـ جبان ...

ـ مجنون ...

ـ يجب قتله ...

صاح الاعرج وهو لايزال فى قمة انفعاله :

ـ اقتلوه قبل ان يقتلنا هو ...

أخرج أحدهم سكينا ذا نصل حاد ، أحسست بالخوف يرفعنى الى أعلى ، التمع امامى وجه كاتى دامعا ، قبضة النهاية تقترب منى ، أنفاسى مذعورة لاهثة ، لم يعد قلبى ينبض ، استسلمت للموت ، رحبت به ، ارتفع حاجز الخوف من نفسى ، تصورت الموت حلا رائعا لجميع متاعبى ، الراحة بعد العناء ، الدخول فى عالم مجهول ...

مضى الوقت ، تلفت حولى ، كانت المراة تجلس بجوارى ، والاعرج يتحسس ذيلها ، جسدها مثل اسفنجة مبتلة ، تفوح منها رائحة العرق ، يتهدل جسدها فى طبقات بترولية هلامية الشكل حاولت ان أتخلص منها أمسكت بى ، تلعثم الرجل الاعرج ، قال :

ـ هو الذى ...

ركلته المراة فى بطنه ، سكت وابتعد عنها زاحفا وانزوى جالسا فى ركن بعيد ، تراخت أذرع الرجال ، استداروا وتحركوا بعيدا...

مال راس المراة على صدرها ، نامت ، أو ربما تظاهرت بالنوم ، ارتفع صوت الهواء الخارج من انفها فى رتابة ، وقفت حائرا ...

الاعرج يجلس فى ركن الحجرة ، أشار على بالاقتراب ، تقدمت منه عدة خطوات ، رفع يده بكوب من الشراب ، كنت أشعر بجفاف فى حلقى ، تقدمت وأخذت الكوب من يده ، ارتشفته فى جرعات سريعة ، ناولنى الكوب الثانى ، شعرت بالنشوة ، ضحك الاعرج وهو يعب أكوابه الواحدة اثر الاخرى ... نظرت الى يده اليمنى كان بها ندب اسود ، ضحكت وضحك هو أيضا ومضى الوقت ...

« ... كانت احدى ليالى الاعياد ، الجو بارد ، رياح البحر محملة برائحة السمك ، وصفارات المراكب تهوى بالقلب الى أسفل

وتشعره بالوحدة ، مشينا ، عيسوى وانا ، حتى باب الجمرك ، اقتربنا من العمال ، صرنا نغوص خلال صفوفهم دون هدف ..

كان عيسوى صامتا ، وانا افكر فى أشياء لا رابط بينها ، تقدم منا أحد العمال ، واشار الى زجاجة كانت بيده ، ولم تسترع انتباهنا فى أول الأمر ، اخذ الرجل يلح علينا لنشاهدها ، تناولتها اخذت أقلب فيها ، لم أكن قد رأيت زجاجات الخمر عن قرب ، يبدو ان الرجل لمح الرغبة فى عينى ، همس فى اذنى بالثمن ، اخذت أتحسس الزجاجة عدة مرات ، ملمسها بارد ناعم .. شعرت بالرهبة والعظمة ... عيسوى يساوم الرجل ... وانا أحتضن الزجاجة فى فرح مشوب بالقلق ...

اخذ الرجل ما عرضناه عليه وأسرع هاربا ، فرحنا نحن بالصفقة ، كان أمرا خياليا بالنسبة لنا ان نحصل على زجاجة خمر ، اقترحت انا بيعها ونحصل على الكثير من النقود نقضى بها عيدا رائعا ، ولكن عيسوى اعترض على ذلك واقترح ان نقضى بها ليلة عيد رومانسية ، انتشيت وانا اوافق على اقتراح عيسوى ... ورحنا نتأملها فى ضوء مصابيح الميناء ...

ــ رائعة ، لها لون النار ...

ــ ماذا نفعل ؟

ــ نشربها كلها ، اليست هذه ليلة عيد ! !

ــ ولكن أبى ؟

ــ انت دائما تخاف ، ملعون ذلك الرجل الذى تحمله فوق راسك ، ضمه بعض الوقت ودعنا له ..

اقتربنا من مكان مهجور ، رائحة الزيت الخام تفوح بشدة ، صفحة السماء داكنة ، تبرق احيانا بعض النجوم ، حشائش تنمو وسط برك الزيت المخلوط بماء البحر ، تتسلل من خلاله ، تتكوم فى مجموعات ، تقف فى وحشية ملقية ظلالا سوداء ، صوت محرك للنش يدور فى رتابة ، أسنان عيسوى تصارع غطاء الزجاجة ...

ــ الدنيا برد ، يكاد ظهرى يتحطم ...

بصق عيسوى حطام الغطاء ، تشمم رائحة الزجاجة فى نشوة ، انطلقنا نضحك فى وقت واحد ، ران الصمت فجاة ، قطعه عيسوى :

– مولای الامیر ، دعنا نشرب نخب انتصاراتك ...
– سیدی القائد الشجاع ، نشرب نخب سقوط روما ...

لم تـكن هناك اكواب ، رفع عيسوی الزجاجة الى فمه ، ولكنه سرعان ما أعادها سريعا وهو يصرخ ... كنت متشوقا الى ان أفعل مثله ، ولـكن صراخه الحاد جعلني اترفق وانا أرفع الزجاجة الى فمی لأتذوق أولا رشـفة صـغيرة ، يبـدو الطعم مرا ولاسعا ، ابتلعت ما فی فمی دفعة واحدة ، أحسسـت وكأن نارا ملتهبة تشتعل فی أمعائی ، أخـذت اطرد ما فی جوفی من لهيب ، يخيل الى انه يخرج من أنفی واذنی ، صاح عيسوی فی سعادة :
– انها خمر حقيقية ! !

تظاهرت بالمعرفة والدراية ، قلت :
– فعلا جيـدة ، ولـكنی لن اشرب ثانية ...

رفع عيسوی الزجاجة ، قال وهو يتأملها :
– بل نشرب حتى نهايتها ... فی صحة مولانا الامير ...
– فی صحة القائد الهمام ...

ورحنا نتبادل الزجاجة ، وكلما مضينا فی الشراب ، كلما شعرنا بالظمأ ، واخذتنا النشوة ، ورحنا نغنی ...

الارض لم تعد صلبة ، ونجوم السماء تبدو كوجوه ضاحكة ، وكفی صـارت بعيدة أحاول أنأقربها من وجهی ، ولكنی لا اراها ، قلبی يزداد خفقـانا ، اعلو فوق السحاب ...
– عيسوی ، أريد أن أنام ...
– لا ليس الآن ، هذه الليلة حرام فيها النوم ...
عيسوی يغنی ، يرقص طربا وهو يغنی ، رجلست فوقالسور، انه يرتفع فی الهواء ، ينشـد وخلفه مجموعة من المنشدين يدقون دفوفا ترتفع أيديهم فی الهواء ثم تهوی علی الدفوف ، دقات الدف تلطم وجه البحر ، وتجعل الهواء حارا ...
« ... مولای السور العظيم » ...

لك انت اغنی ، لأنك ستظل هكذا راقدا فی احضان هذه الحقول العطنة ، نری ما حولك دون أن تتكلم ...

سوف أغنی لك اغنية العيد الذی يأتی ...

العيـد الذى يأتى لليتامى ، حيث يأتى الشـتاء ، واليتامى يقهرون ، يبكون أبا لم يعد ، وأما لن تعود ...

مولاى السور العظيم ... حين يكون العيـد تـكون انت ، صموتا تقف ، وحزينا يأتى العيـد ولا أحـد يشعر بالآخر ، لأن الآخر لا أحد يشعر به ، فالـكل تجزأ .. صار أشلاء ..

وحيث لا يـكون هناك نقود ، ولا طعام ، ولا أدوية تستر العورة يصبح العهر قانونا ...

مولاى السـور الابدى ، الذى يبقى حيث هو ما لم يهدمه الانسان ، قاوم قدر طاقتك ...

يذبح الفقراء فى ليـلة العيـد ، وحينما يطلع فجر العيد لا يبقى منهم أحد ، ويصبح العالم بلا فقراء ...

... لك وحدك اغنى ، لأنى ... لأنى أيها السور العظيم وحيد...

انخرط عيسوى فى بكاء متشنج ، خرجت كلماته من فمه مبتورة وناقصة ، راقبت دموعه وهى تتدفق من عينيه ، وشعرت بالحزن...

غلبنـا النوم ، لم نشعر الا بشمس اليوم التالى وهى تتدفق فى سخونة ، والصـداع الحاد يمزق رأسى ، وهم ثقيل يجثم فوق صـدرى ، والشعور بالخطأ والذنب يهد كيانى ، نظرت حولى لم أجد أحدا ، قمت متثاقلا أبحث عن رفيقى ، ولـكنى لم أجده ...

بداية الملمح الأخير :

كان علينا ان نحمل مجموعة من الحقائب ونسافر بها من بلد ساحلى الى العاصمة ، وكنت لفرط شعورى بالتعاسة قد شربت أكثر مما ينبغى ، ولهذا كان العالم يدور من حولى ويموج بالصور المضطربة العديدة ويدور معها عقلى فى هوس متلاحق ...

راحت سيارتنا الحديثة الطراز ، تعبر الطريق الصحراوى فى سرعة جنونية ، نظرت من النافذة فلم أجد سوى مجموعات من الحشائش البرية تنبت فى اصرار حيوى ضد هذا الفراغ الصحراوى الهائل ، والرجل الاعرج ، منبعجا فى جلسته ، يصدر صوتا مثل نقيق الضفدع :

ـ العالم يسير الى الخلف ، لا يتقدم ، كل الناس تتصور أشياء لا وجود لها ، يجب النظر الى هذا العالم على انه يدور حول نفسه ، مثل قواديس الساقية ...

أسفلت الطريق الصحراوى يدور ، يلف ، يمشى الى الخلف ، يلتف مع عجلات السيارة ، تنبشق على الطريق ، فجأة ، قطعة حجر بيضاء صغيرة تدوسها عجلة السيارة تقفز هلعة ، تتطاير فى خوف ، ثم تهبط على كومة من الرمل الابيض ، جالسة فى استكانة ، شاعرة بالأمان ، الاعرج لايزال يتكلم .. قطعة حجر أخرى تندفع ، تدوسها عجلة السيارة ، لم تكن قوية رقدت فى استسلام بعد أن هشمتها عجلة السيارة ، شعرت بأسى من أجلها ، ياله من طريق وحشى ، يمتد طويلا بلا نهاية ، كأنه السراب ، يرتفع فى السماء حتى يتلاشى للحظة فى السحب ولكنه يتجدد دائما ولا ينتهى ، الاعرج لايزال يتكلم ..

ـ أليس كذلك ؟

ـ نعم ...

ـ ما هو الذى نعم ؟

لا شيء حقيقى غير هـذا الوجود الصحراوى ، انه وجود عبقرى صامد ، أبدى ، حلقى جاف وأشعر بالاختناق ...

ـ انت لن تفيق أبدا ! !

ـ هه ؟

ياه ... منزل صغير ، ضئيل ، أبيض منفرد ، يقاوم اللاشيء ، ينبعث من التلال الرملية صوت آدمى ينادى :

.. العالم هو انا ، لا يقـدر أن يعيش وسـط هـذا العالم الا انا ، ذلك لأنى وحيـــــد ، فريد نوعى ، كائن اختلف عن كل الـكائنات ، انفرد بوجودى ، واشـعر به ، افعل ما أرغب فيه ، أهيم على وجهى ، أصرخ ، أجلس ، أنام ... كلما حلا لى ذلك ...

... ها ، انت مسجون داخل علبة من الصفيح ، الصفيح صدأ ، تراكمت عليه قاذورات الآخرين ، تبولوا عليه ، بصقوا فى داخله ، ولذت انت بالخوف ، جعلته درعا يحميك من خطر الشجاعة ، رغم هذا فانت لا تعترف بأنك خائف ، جبان ..

ـ ادخل فى هـذا الطريق ، سوف نسترح هناك ...

ـ انت ...

ـ نعم ؟

ـ كن يقظا ، سوف تعرضنا للخطر ...

ـ ها ... انت جبان ، تخشى كل الاشياء ، ولا أدرى ماذا تملك حتى تخاف عليه ؟ !

ـ كاتى ...

ـ هه ... ماذا ؟ ... لقد ذهبت

ـ انها تنتظرنى حتى أعود ...

ـ انت سجين ياصديقى ، لقد هربت من سجنك المحدود الى سجن غير محدود ، وستظل سجينا حتى الموت ...

ـ ولـكن كاتى وعدتنى ...

ـ وعدتك انت ، ولـكنك لم تعد انت نفسك ، لقد سقط الوعد

ـ لابد أن أراها ...

– هل تعرف طريقها ؟

– نعم ، انها ... لست اتذكر تماما ، ولـكنى حتما سأجدها هناك حيث ابحث عنها ...

– كفى أحلاما ، انتبه الى ما فى يدك ...

– ها هى كاتى ، انى أراها جيدا ، انها حقيقة ...

وقفت السيـارة فجأة ، اهتزت بعنف ، ارتج عقلى ... صرخ الاعرج وخرج يحجل ، خرج الآخرون ، كانت هناك اسـتراحة صغيرة تعودنا ان نقضى فيها بعض الوقت ، خرجت من السيـارة وشعرت بدوار فى رأسى ، ولـكن كاتى كانت تقف هناك ، استعدت حيويتى ، انطلقت خلفها ...

– كاتى أرجوك ، انتظرى حتى الحق بك ...

صاح الاعرج على رجاله :

– امسكوا هـذا الرجل المخبول ...

جريت ، كنت أراها ، لم يستطع احدهم أن يلحق بى ، ها هى كاتى أمامى ...

– دعونى ، كاتى سوف الحق بك ، أخشى عليـك من الفـام الصحراء ...

تراجع الرجال ، صاحوا :

– سيأكله ذئب جائع ...

انفاسى تضطرب ، أشعر بألم ، انفرس نصل حاد فى قلبى وراح يحز فيه ، أقاوم من أجلها ...

– مجنون ، الخمر ذهبت بعقله ...

– كاتى لم أعد أحتمل ، انتظرى يامحبوبتى الجميلة ، ياربة عالمى ، يا سـاحرة العينين ، أنا أسرع اليك لـكى أركع تحت قدميك طالبا الرحمة ، أطلب عفوك ، رحمة بى ...

الرمال سـاخنة ، كاتى لا تقف وكأنها تصم أذنيها عن توسلاتى، لابد من معاودة الجرى ... الحشائش الوحشـية تعوق طريقى ، أتعثر ، ولـكنى أتحامل ، سأضع يدى على جدائل شعرها الاسود الناعم مرة أخرى سأتحسس ذلك الرأس الجميل ، سأشم رائحة حبيبتى ، اقرب فمى من فمها ، أشعر بأنفاسها ، ألمس صـدرها

النافر فى وحشية ، احكى لها – وحتما – ستضحك ، نعم ستضحك ، وارى غمزة عينيها ، سأقص عليها كل شىء ، ستشعر بالاطمئنان ، حينما ترانى ، ستضع يدها فوق راسى ، ستأخذنى بين أحضانها ، ستهدهدنى حتى اغفو ...

ولكنها ستغضب لان راسى قذر من رحلات الصحراء ، وملابسى أيضا ، ورائحة فمى ، ستنهرنى بشدة ، ولكن ستعفو عنى ...

يا أميرتى الحبيبة فى القلب ، يا فاكهة مصر الطيبة ، يا ايزيس الأم والاخت والزوجة ، بالحب اتوسل اليك ، سأذهب الى معبدك المقدس ، وسأروى على مسامع الكاهن الاعظم قصة انتصارى ، سأقف على حجر الرخام الذى يبدأ به سلم معبدك على ضفاف النيل ، وأرسل لك من غابتى انغاما حلوة ، حتى تشفع لى عندك ، وتبتسمى ثانية ..

آه ... هل تذكرين ذلك اليوم ، يوم عدت من المدرسة ... كنت مثل الزهرة فى صباها ورائحتها ، وكنت جالسا فى أول السلم ، وجلست بجوارى وتهامسنا وتلامست شفتانا فى أول قبلة كانت سريعة ، دافئة حلوة ...

لابد أن الحق بك ، لا أستطيع نسيان ذلك أبدا ، لن افقدك مرة خرى ، سأموت تحت قدميك ولن أتركك مهما حدث ...

كاتى حبيبة القلب ، اقسم بك ، ان القلب لايزال يدق مسبحا بحبك ... آه ... عيسوى مات ، ألم أقل لك ، عيسوى مات ، ذهب وتركنى والآن تتركيننى انت أيضا ..

الرحمة ، السماء مليئة بالغيوم ، ستمطر ، لا ، بل يبدو ان الظلام سيحل ، ولم أجد كاتى بعد ، لابد ان اجدها قبل حلول الظلام ، تظلم الدنيا أو تمطر ، سأظل أجرى حتى اجدها ، انها لى ، انها تخصنى لى وحدى مهما حدث – هذه الاشياء الكريهة التى قمت بها – ستظل ملكا لى ، وانسى ما حدث ، بل لقد نسيتها فعلا ...

كاتى .. لقد عدت ملاكا طاهر اليد ، نظيفا . رجعت الى مدينتى طاهرا ، ذهبت الى مسقط رأسى ، هل ترين ؟ ... هذا هو منزلنا ، وتلك هى مئذنة مسجدنا ...

قلبي يؤلمني ، لابد ان هـذا من الفرح ، لأني عدت اليك يامدينتي المقدسـة ، ارى خليجهـا ومياهه الزرقاء ... وسفينة نوح تبحر منه ، ها هم اخوتي يرفعون أعلام المدينة لتحية نوح ، يا رجـل المعبد ... اشـعل عوداً من بخور الرحمـة ، وانت يا كاهن قدس الاقداس ... اتل دعاء الرب ، لـكي يبارك أولادي وهم يعودون ...

طوبى لـكم يا ابنـاء الرب ، يا عائدون الى مدينتـه ، طاهرون أنتم ، تصبرون ، الحرير الاخضر يكون لباسكم ، شهـد العسـل يـكون طعامكم ، بركة الرب تظللـكم ، يا أبناء الرب ... أنتم تعودون الى احضانه في مدينتكم حيث تقيمون أبداً ، لا تخرجون منهـا ، ذلك مكتوب ، وأنا أتلوه عليكم ...

ـ كاتي ، ها هي الايام تعود ...

ـ أيام الحب تعود ...

يبـــدو ان السماء تمطر ، وربما هـذا رذاذ البحر في قوته العاتية ، السفينة تبحر ، وها هم يدشنونها ، يصبون الماء العذب على مقدمتها ، ويضعونها في المـاء لأول مرة ...

يا صائدي حيتان البحر ... باركوا هذه السفينة ...

... باسم الرب الواقف هناك ينظر الى كل الاشياء وهي تبعث...

باسم ملاك البحر ، الحارس لخلجان البحر الاحمر ، الجالس في مملـكة الصخور المرجانية ...

باسم هذا الرجل الملاح ، ساكن مدينة السويس ، مريد الشيخ الغريب ...

باسم أطفال حي الاربعين ، المساكين الساقطين في وحـل البرد والرطوبة ...

باسم الحب الواقف فوق رءوسنا ..

باسم الخوف ، الرابض فوق قلوبنا ...

ندشن هذه السفينة ، نقذفها في البحر ، تجري في مجراه ...

وتسبح في أمواجه ، وتمخر في عبابه ، لتأتي لنا بالخير ، ليعم لحم السمك ويأكل الاطفال وتعلو الحمرة وجناتهم ...

« ... الاطفـال يهللون ، يجرون خلف عربة الرش ، يقذفهم الحوذي بطرف كرباجه ، ويبتعدون قليلا ثم يتجمعون مرة أخرى ،

الماء يندفع من فتحات صغيرة تغطى ماسورة ملتوية فى مؤخرة العربة ، يتدفق الماء وتبتل الاجساد السمراء الرقيقة ، يصرخون فى متعة ، يحدثون اكبر قدر من الضجة ، يرتفع كرباج الحوذى ، يسبهم ، يتنسمون رائحة السمك من السوق المجاورة ، يخطف أحدهم سمكة من يد طفل آخر ، يجرون خلفه ، تتفتت السمكة فى يده ، تتناثر فى الرمال ، تغوص أيديهم فى الرمل بحثا عن فتافيت السمكة المهروسة فى الرمال ... »

اقتربوا يا رجال ، تعاونوا ، ارفعوا السفينة الى الماء ، صيحوا صيحة رجل واحد ، اصرخوا فى قوة ، اعبروا جسر الرهبة ، اقذفوا بأحزانكم فى البحر ، خليج البحر كبير ، تلتهم أسماكه الحوتية كل الاحزان ، لن ينتهى ذلك الطوفان ، سيعم الارض كلها ، حيث يبعث رسول جديد يبشر بعالم جديد ...

اندفعت السفينة ، ارتطم مقدمها بطرف الماء فتطاير زبده ، تمايلت عدة مرات ثم استقرت رشيقة متهادية على صفحة البحر ، عروس كانت سفينة نوح لبحر ممدود الذراعين ...

« ... يا كاهن معبد منف ، اصمت الآن لتستمع الى ترنيمة الفجر يتلوها منشد الاميرة ... وانت يا كاتب المعبد ، سجل لديك كل ما ينطقه هذا المنشد ، لكى تقراه فى الصباح على مولاتى الملكة ، لكى تعمل به وتتخذه دستورا ، يحكم على أساسه ووفقا لبنوده ، حتى يتحقق عدل الارض وحتى تنام الآلهة مستريحة البال ...

اقترب الكاهن ، نظر الى وجهى ، ابتسمت لان وجهه كان ضاحكا ويحاول ان يتظاهر بالشراسة ، كان يود أن يسألنى ولكنى اجبته قبل ان ينطق السؤال :

ــ نعم ، انى تائب ابحث عن الغفران ، امدد يدك لى ، انقذنى من هوة البؤس التى أعيش فيها ... ارفعنى من وحل العار الذى أتمرغ فيه ، ذلك ما أنشده ، وأبحث عنه ...

هز الكاهن رأسه ، اخذ يتلو بعض تعاويذه ، صب فى فمى شرابا حينما ذقته رحت فى غيبوبة ، ولم أشعر وهم يحملوننى الى داخل المعبد حيث استيقظت ثانية ، ورأيتهم جميعا ، كانوا ينشدون ترانيم الشكر للرب ...

« .. تباركت حيث تـكون ، تسود العالم وتقوده وترشده ، لك الحمد ، ولك الشكر ، لك ومنك الخير ... »

أردت ان اقف ، ذلك دورى يجب ان أقوم به ، اقف فى اول طابور المنشدين ، واقودهم فى انشاد ترانيم الشكر ...

... لك الحمد انت وحدك ، لك ومنك الخير ، امدد يدك الينا ، انا عائدون اليك بعد ضلالة ، نهتدى بنورك ونطلب عفوك ...

— اعذرنى ، يا اخى هل يمكن لك مساعدتى ؟

ساعدنى على الخوف ، نظرت اليهم جميعا ، كانوا بررة ، حزانى من أجلى ، ابتسمت لهم ، رأيت كبيرهم يقف فى الوسط ، تقدمت اليه ، وهمست :

— النور يخرج منك يعم العالم ، رأيت ذلك ...

ضحك فى سـعادة ووقار ، ضحكوا جميعا ، انتشيت بسرورهم ، هتف كبيرهم ... حيوا الرجل المبارك ... زادت سعادتى ، كان فى قلبى كلمات كثيرة وددت لو بشرتهم بالاشـياء التى اراها الآن مرتسمة على رءوسهم ... وقف ابن كبيرهم شـاردا ينظر فى وجوم ، لمحت طيفا فوق رأسه ، نظرت الى عينيه وأنا أقول :

— لك حاجة عند الرب ، سوف يقضيها لك ، وستكون سعيدا طوال عمرك ...

ارتمى على قدمى يقبلهما ، وكان يبكى من التأثر ، حاولت ان ادفعه فقد كنت اشعر بالخجل ، ولـكنهم ، جميعا ، راحوا يطوفون حولى ويهتفون فى سعادة :

— لقد حل بنا السعد بحلولك يامولانا ...

... لا ، لا ... لست مولاكم ، انما انا عبد الله ، فقير اليـه ، انتظر عفوه ... انا شيخ الخطائين المساكين ، لا أريد ذنبا آخر يضاف الى ذنوبى ...

رأيت طيفا يتقدم منى ، يحملنى الى مكان بعيد ...

« ملعونون انتم فى كل مكان ، ملعونون حيث تكونون ، وتـكون ذريتكم ، سوف أرحل عن دياركم » ...

تراجعوا فى خوف ، ركعوا من حولى يبكون فى ندم ، لفحنى وهج حار ... شعرت بعده بصداع حاد ، افـكارى صـارت مشوشـة

هوجاء ، فقدت لحظات الوضوح التى كنت أستمتع بها ، رقدت فى أستسلام وخوف ...

كنت منذ قليل أشعر بالصفاء الذهنى وارى عالما يموج بالحياة والحب ، حيث تجلس كاتى فوق ربوة من اللون الاخضر يتدلى من حولها عناقيد العنب ، ويقف بجوارها غزال أشهب فى أمان ينظر اليها ، وجموع كثيرة تقف بالقرب منهما تغنى فى سعادة ، ولكنى الآن أشعر بصداع فى راسى وحلقى جاف ، وامعائى تتمزق من الألم ، ظمآن ، أرتميت على الارض ، بكيت ، لو أن الارض تدور وتنقلب على جنبها ، تشتعل بنار الحرب ، ويسود الخراب مدن العالم ، ويزعق البوم فوق كل الدور ، ليسود الظلام، ويحل ناموس النهاية ، ويرتفع علم الحزن ...

ولكن لا ، لا أريد هذا حقيقة ، لتكف الصور الخربة من عقلى ، وليحل محلها صور الاطفال ، السعداء ، يبتسمون دائما ، صور الحب ، عالم المدينة الفاضلة ، حيث ترفرف الرفاهية

فقط أريد بعض الماء ، الظمأ يكاد يقتلنى ، قرب الرجل قربة الماء الى فمى ، شربت كثيرا ، ولكنى لم أرتو ولم اشعر بالشبع تلفت حولى ... زجاجات سوداء تلمع فى ضوء الشمس ... عادت الافكار السوداء الى عقلى مرة أخرى ...

اقترب كبيرهم ، نظر الى عينى ، قلب جفنى ونظر خلالهما ، همس الى أحد أعوانه ، اسرع الرجل واحضر بعض الاعشاب وراح يحرقها امامى ، شممت رائحتها النفاذة التى راحت تسرى مخترقة أنفى الى راسى ، بدات اشعر بالهدوء ، ذهب الشعور بالظمأ ...

تراخت عضلاتى ،ورقدت فى سلام ، اخذت اغنى :

... المذنبون يقفون يتامى أمام الرب ، لا أحد يشفع لهم ،

يتألمون ، يندمون ،

ولكن ما جدوى الندم ؟ !

لم يأت فى وقته جاء متأخرا ، والرب يعلم هذا ،

ولهذا ، فانهم يقفون أمامه ... يتامى يتألمون ...

ملامح سريعة لنهاية العام الأول :

آه ... هاهم يحيطون بى ، عيونهم تبرق ، والسنتهم تتذبذب فى حلوقهم ، هذا هو الخطر الاكبر ، يدورون حولى ، يســألون فى الحاح...

ـ من أين ؟
ـ من عند الرب .
ـ ما اسمك ؟
ـ عبد الله
ـ ولماذا جئت الى هنا ؟
ـ بأمر الله
ـ وماذا تريد ؟
ـ الحب ! .
ـ يجب ان تـكون واضحا وصريحا ...
ـ الصدق اقول لـكم .
ـ ولـكن مظهرك لا يدل على ذلك ! !
ـ وكيف يظهر الباطن فى المظهر ؟
ـ قل شيئا آخر
ـ قولوا انتم .

يسألون واجيب ، اشعر بالجفاف فى فمى والرغبة فى الهرب ، انهم ضعفاء العقل والايمان ، لا يصدقون ما أقوله لهم ، ولا يرون ما أراه ، وانا لا أقول الا الصــدق ولا ارى الا الرؤيا الصادقة ، ولـكنهم لا يصــدقون الا ما يحلو لهم وما يعجبهم ، قلت لهم ان ما يصنعون بأنفسهم يعد كفرا ، قالوا هكذا نشأنا ونحن على عادات آبائنا سائرون ... وان قلت لهم ... انى أرى المطر يمتنع عنكم هــذا

العام لجفاف ايمانكم قالوا ... هـذا هو السحاب يأتى من الشمال مثل كل الاعوام ورؤياك باطلة ، وان قلت لهم ان عشقهم للفتيان دون الفتيات شر باطل ، قالوا .. ما دخلك انت بمتاع الدنيا وانت الزاهد الراهب ، كل ما أقوله أصبح لغوا لا طائل تحته واخذوا يستهزئون منه ويتندرون عليه ، ولهذا فانى أنتوى الرحيل

بعض الاطفال يقذفوننى بالحجارة ويصرخون فى وجهى :

ــ مجنون ...

كاتى قالت لى يوما :

ــ انك تبدو ، احيانا ، مثل المجانين .

كاتى لم تحضر بعد ، كانت قد وعدتنى بالحضور ، فأرسلت لها عن طريق الهواء الخارج من انفاسى اللاهثة والمملوءة برغبتى الحارة لرؤيتها ، ناديت عليها من داخلى ، انها حتما تسمعنى لا ادرى أين هى الآن ، ولكنها تسمعنى وسوف تأتى ، سأظل انظر الى كل الطرق حتى أراها وهى قادمة وعندما تقترب منى سأضمها الى احضانى ، واشدو كطائر سعيد ..

... اسمع صوتك ينادينى ، يشدنى ، يجذبنى ، لأدور فى الهواء الساخن بالقرب من فمك .

فى الليالى ، حينما تدنو السماء من الارض ، ويصبح الكل فى واحد ، ويأتى العدم على حياة البشر المتناثرة فى الصحراء ، وتجمعهم بيوتهم المدفونة فى الرمال ، اشعر انهم تركونى وحدى ، بالامان ، اتسلل خارج نفسى وانتظر قدوم حبيبتى ، ولكن القمر يأتى ولا تأتى كاتى ، ولكنى لن افقد الامل ، سأظل انتظرها أبدا ...

اعود الى تجمعاتهم ، يتكاثرون حولى ، يدورون سائلين فى اصرار :

ــ من تكون ؟

ــ حبيبتى

ــ هل فقدتها ؟

ــ لا .

ــ أين هى اذن ؟

ــ فى مكان ما .

ـ انت لا تعرف مكانها ؟
ـ بل أعرف
ـ ولماذا لا تذهب اليها ؟
ـ انى أنتظرها هنا
ـ ماشكلها ، ما لون عينيها ، سمراء أم بيضاء ؟
ـ هى نفسها
ـ هل تسمعك وانت تنادى عليها ؟
ـ نعم
ـ وانت ... تسمع صوتها ؟
ـ نعم
ـ ولكننا لا نسمع شيئا
ـ لأنكم لا تحبونها
ـ بل نحبها .
ـ ها ... انتم لا تحبون احدا .
ـ ولكننا نحبك انت ، انت بركة قبيلتنا .
ـ انتم تسخرون .. البركة عند الرب .
ـ انت مدد الرب .
ـ انصرفوا ياغيلان الارض ، سوف تثور عليكم نفوسكم وتحطم جدرانها الخربة . يتفرقون ، انهم يأتون فجأة ويذهبون فجأة ؛ لقد ضقت بهم ، جوفى ملىء بالكلمات الوليدة ، التى تود ان تخرج ، أريد ان أهلل ، ان اصرخ ، اجرى واصعد تلا ، يجب تحذير كل الناس حتى لا يأتى اليوم الموعود وهم نيام ، يجب ان اخبرهم جميعا ، ان أخلصهم من عذابهم ، الألم يعصف براسى ، ولكنى سوف اجرى لكى أبلغ كل الناس ، العالم سوف ينهار، يجب على الناس ان يتحصنوا ، فهم جميعا مساكين ، اشفقَ عليهم ، سوف يدمرون أنفسهم لو طلبوا الاحلام وراحوا فى النوم ، أنا حزين من أجلهم ...
ـ لماذا تبكى ؟
ـ من الألم
ـ ومما تشكو ؟

ـ من نفسي
ـ وهل نفسك تتعذب الى هذا الحد ؟
ـ ليس من اجلي ، بل من اجل الآخرين .
ـ ولكنك لم تخبرنا ، كيف اتيت من عند الرب ؟ وهل ارسلك لنا ؟
ـ لا .
ـ اذن كيف أتيت من عنده ؟
ـ انتم جميعا جئتم من عند الرب
ـ نحن أيضا ؟
ـ كل البشر تأتي من عنده ، حتى أنتم .
ـ انت تسخر منا ، تهزأ بعقولنا .
ـ ها انتم تكذبونني مرة اخرى .
ـ نحن لا نفعل ذلك ، فقط ... نسأل
ـ عيونكم تكذبني ، ولكنكم تخافون ، انتم جبناء ضعاف ، اني أرى ما يدور في عقولكم فتخشون على انفسكم الخروج الى حيث هواء الحقيقة ...
ـ وماذا بعد ياشيخنا المبجل ، انت لا تهدأ ابدا ؟
ـ سوف تحملون على صدوركم الكثير من الاوزار .
ـ لقد عدت الى اتهامنا بالباطل .
ـ دعوني .

... أرى حمامات بيضاء ترفرف من بعيد ، سوف استقبلها واعد لها مكانا تهبط عليه حتى تتطهر نفوسكم ، وبعدها تقف فوق رءوسكم علامة الحب والخير . يصرخون في وجهي ... مجنون ، الحمامات تقترب ، اجرى لاستقبالها ، يحاولون منعي ...

... دعوني اصلي للرب لكي يرفع عنكم هذا الوهن ، لكي تعرفوا الحقيقة ، رقدت الحمامات فوق كتفي ، يالها من طيور وديعة رقيقة ، انها تنظر الى قلبي ، وانا أيضا استطيع ان أرى قلبها ...

ـ أين كاتي يا حمام الحب ؟

الحمام ينقر جبهتي ، يهمس لي ... « مكتوب فوق الصخر ، الساعة القادمة افضل من التي مضت ، وان اليوم القادم أسعد ، وان كاتي سوف تأتي » .

حينما تأتى كاتى ، سوف أعبر وديان الصحارى حتى أصل الى البحر واتطهر من رجس نفسى ، واعود نقيـا أحرق بخور الود والاخلاص فى معبدها وارتل مع المنشدين ...

... ياشيخ طريقتنا اصمت ، كف عن الـكلام لأن حديثك أصبح مملا ومعادا ، دع قلوبنا تنشد بلا صوت ، نطلب المدد من الرب لينقذ أرواحنا من الهلاك .

ياشيخ طريقتنا ، لقد ضللت الطريق ، لم تعد تعرفه ، ولقد كف بصرك عن الرؤيا لـكبر سنك ، ماذا لو استرحت ، ليحل محلك صف من الشبان الاشداء يقيمون ذكر الرب على الارض وليجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد ، فان أصـابوا فان الله محسن اليهم ، وان جانبهم الصواب فان الله يغفر لهم ...

ارتج الرجال ، اهتزوا ، راحوا يكبرون ، على وجوههم حبـات العرق ...

— ماذا تفعل هنا ؟

— أنشد بعض الشعر .

— وهل تقول الشعر ؟

— أشعار عن حب الله

— وهل يمكن سماع هذا الشعر ؟

— نعم ، فى منتصف الليل ، نقف وسط التل ، نرفع ايدينـا الى السماء وننشد معا .

جاء الليـل ، اقترب النـاس ، عيونهم النهمة تأكلنى ، وقفت حائرا ، ارتفع صيـاحهم من حولى ، يتمايلون ويهتزون ، انهم يتعذبون ، انى أشفق عليهم ، مصيرهم مجهول لقد تخلفوا عن العالم ومضت سفينة نوح دون أن تحملهم ...

— ارفع يدك الى الرب واسأله المطر .

— والخبز

— والـكساء

— وبعض يسر الحال .

— ارفع يدك الى الرب ، فاذا كنت مباركا ، سيجيب دعاك .

أدور حول نفسى ، تتلعثم الـكلمات وتتعثر فى فمى ، الدوار يلف

راسى ، وتتكرر الصور أمام عينى ، أرى عيسوى يخرج من بين الموتى ؛ يتكلم ، أصغى اليه :

ـ يا ابن النجسة ، كيف تمد يدك الى الرب وانت لص ؟

يشدنى عيسوى ، يجذبنى اليه ، أرتفع معه ، الناس من حولى يلوكون كلاما فى أفواههم ، يصرخ رفيقى …

ـ اذهب حيث البحر للتطهر ، اذهب لتنجو بنفسك من عالم قديم سوف يحترق . الرجل الاعرج يأتى ، يتمايل ويحجل ، يقهقه فى سخرية …

ـ الليلة سوف نرحل الى بلد آخر .

ـ لا ، لا اريد رؤيتك ، ولا أريد مجرد تذكرك ، سوف أهيل عليك التراب وأخنق روحك .

ـ كيف تنسانى وانا اصبحت داخل جسدك ، لقد اتحدنا فى عالم واحد .

ـ انى اتوسل اليك ، لا تأت ، لقد قررت ان أتخلص منك .

الرجل الاعرج يسقط ، تدوسه الاقدام ، يتمدد جسده طريحا على الارض ، ينبت جسده شوكا يتفرع ، يبتلع الناس ، يتمدد ، يأكل كل الاشياء ، يلتهم الرمل ، يطوقنى من كل ناحية ، يرفعنى فوقه ، الألم الحاد يمزق جسدى ، انى أرقد فوق الشوك ، حلقى جاف ، هذا ماء البحر تعكس عليه صورة مقبرة مدينتنا ، أبى يرقد فى مقبرته حزينا ، امى تقف هناك ، بجوار القبر ، تنحنى وتأخذ قبضة رمل تنثرها فوق القبر …

… امى اقتربى منى ، انا لست وحشا ، انى انمو مثل الشجرة ، انثر حولى شوكا مثل الاحزان ، انا لا ادرى كيف يصير الانسان ، ينقلب الى صور شتى ، تتقمصه كل الارواح ، لايتوقف يمضى فى وادى القرية شاهرا سلاحه ، خائفا فزعا يقتل كل من يقابله ، لا ينتظر الكلمة ، حتى لا يقتله الآخر .

ولكن حتما يا امى سوف يقتله آخر بعد قليل ، لأن الآخر خائف هو ايضا ، ويشهر سلاحه هو ايضا ، ويقتل كل من يقابله هو ايضا ، ذلك قدر الانسان الخائف أبدا …

… امى ، انثرى كثيرا من الرمال فوق القبور ، لأن الرمال تطهر الارواح الشريرة …

ولـكن حذار يا أمي ان تنثري فوق قبري رملا ، ذلك لأني نبت خاص ، لك ان تنثري فوق قبري زيتا وشعلة نار ...

ارتفعت صيحاتهم اكثر ، ازدادوا اقترابا ، لابد ان اهرب ، انهم يبتغون موتي ... جريت ، خرجت حيث الفضاء الممتد من حولي يعطيني الاحساس بالامان ، حيث لا أحد ولا شيء ، عالم فضائي متسع ، ليس هناك من يرفع سيفه ، لا شيء سوى الظلام والوحدة

اشعر بالرغبة في النوم ، أتوســد رملا أبيض ، ارقد حيث اكون استلقى وأنا انظر الى نجمتي الحبيبة وهي تطل نحوي ...

يا نجمة الليل لو تعلمين كم احبك الآن ، وانت بعيدة ، في الصباح ابحث عنك فلا أجدك ، ولـكنني في ذات صبــاح ســوف أعثر عليك اني ارى ذلك منقوشا فوق الصخر ... اليوم القادم أفضل...

ـ كاتي انا احبك .

ـ وانا ايضا .

ـ ولماذا الفراق اذن ؟

ـ لانك تنساني ، تبعد عني

ـ كبريائي تمنعني من الاعتذار .

ـ وانا ايضا .

البحث في أجزاء متفرقة في الملح الأخير :

كان ذهني صافيا حينما رأيت البحر ، وشممت رائحته ، است نظراتى على زرقته اللانهائية ، وتدفقت الافكار الطيبة من حولى ، راحت تنساب فى هدوء ، وصور العالم الذى يحيط بى ، والذى سبق لى رؤيته تتوالى فى خيالى ... بدت لى واضحة جلية ، ابتسمت لنفسى ، فقد ظهرت كل الاشياء كما هى على حقيقتها ...

تندفع الموجة لتنكسر على صخور الشاطىء ، وتنحسر ثانية لكى تعود أشد قوة وتهاجم من جديد ، فى رتابة واصرار فى محاولات أبدية لاحتواء الشاطىء .

مددت ساقى ، استرخيت ، تركت روحى تغفو ... بعد لحظات رأيت طيفا يحوم حولى ، وهو يغنى فى صوت عذب ، تنبهت الى الصوت ، حاولت معرفة مصدره ، ولكنه اختفى ، عدت الى الاسترخاء ...

يضايقنى هذا الى حد كبير ، حاولت ان أجد تفسيرا لكل ذلك فلم استطع ، وفكرت ان اعرض نفسى على طبيب ، ثم قررت ان أعالج نفسى ، بعد ان أتم رسالتى ...

عبرت سحابة داكنة اللون السماء أمام عينى ، ضحكت ، كانت كاتى تفزع من السحب ، وتقول انها محملة بالشياطين ، وانها ذاهبة الى الحرب ، وكلما رأيت سحابة داكنة ، احاول ان انظر اليها جيدا لعلنى أهتدى الى معرفة ما تحمله .

ـ كاتى ، ها هى سحابة داكنة تحمل شياطين الحرب

ـ أما زلت تذكر ذلك ؟

ـ وكيف أنسى كل كلمة قلتها لى ؟ !

ـ ها ... أنت دائما تقول كلاما طيبا ، وتفعل عكس ذلك .

اختفت ، حاولت ان ابحث عنها ، كان الشارع مظلما ، لا اريد ان اناديها حتى لا يسمعنى أحد ، ورحت أفتش عنها فى الظلام ...

ـ كاتى ، انت قطة طيبة .

ـ ولكنى شرسة احيانا .

ـ لا ... لا أصدق .

ـ هل تود أن تجرب ؟

لمحت نظراتها تعاتبنى ، أحسست بالكلمة من المذاق ، اخفيت على نفسي ما اكتشفته فجأة ، حاولت ان اكتم الحقيقة ، ولكن انتابنى ذعر ...

ـ انت تذهب خلف الجدران كثيرا .

آه ... انها تعلم ، الجدران السوداء التى تحدد طريق الوصول الى شوق ، الجدران التى اتحسسها فى الظلام لكى أذهب الى دار شوق ، ولكن ، ليس هذا صحيحا ، انها لا تعلم ، انها تقصد جدران السجن ، نعم جدران السجن الملطخة ببقع الدم ... ولكن ليس هذا أيضا انها تقصد شيئا معنويا .. شيئا عاما ، انها لم تعد..

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ رأيته

ـ لم يكن يبدو عليك شيئا ؟

ـ وماذا تتوقع أن يبدو على ؟

ـ الغيرة ، الحقد ، شيء من الشر ، من العتاب ؟ !

ـ أو لم يظهر كل ذلك على وجهى ؟

ـ لا .

ـ هذا لانك لم تكن تنظر الى وجهى .

ـ كنت تنظر الى كاتى التى صنعتها بخيالك فى لحظة ما واستمرت صورتها كما هى ، ولهذا لم تر كاتى الحقيقة .

ـ معنى هذا ، انه لم يكن هناك كاتى ... حقيقة ؟

ـ نعم .

ـ ولم يكن هناك حب ؟

ـ نعم .

ــ وكل تلك الاشياء ، تلك الـكلمات ، تلك اللهفة فى اللقــــاء والحيرة فى الفراق ، والســـهد ، والتفكير ، والشعور باللوعة ... والجذوة المتقدة المجنونة فى القلب تجعله يقفز فوق المستحيل ... كل هذا كان خداعا ؟

ــ نعم .

ــ وكيف مضى الزمن على هـذا الحال ؟ كنا نياما نرى بعض الاحلام ؟

ــ لا بل هو واقع ملموس ، مثلما كنت تشعر بالبرد أو بالحر ، مثل لسعة الدفء المنبعث من حرارة القبلة ، من ...

ــ كفى لا أريد ان اسمع المزيد

ــ ولـكنك لم تسمع شيئا بعد

ــ لا أريد .

ــ انت تبحث عنى .

ــ هذا صحيح .

ــ وانا بين يديك الآن ، لم الحزن اذن ؟

ــ يائس الى حد الموت .

ــ هل تحبنى ؟

ــ وهل تحبيننى ؟

ــ نعم .

ــ انت تـكذبين الآن .

ــ نعم ، وانت تعرف ذلك ، لأنك تـكذب أيضا .

ــ لمـاذا ؟

ــ لا ادرى ، كل ما أعرفه ، انت وانا كنا دوما نعيش فى عالم واحد يدور بنا ، يأخذنا فى دورانه ، لا ندرى أين ومتى يجب ان نتوقف ، وتدور أجسادنا حول نفسها ونعشق أنفسنا ، نتلمس بصيصا من أمل ، نحاول ، ولـكن عالمنا عالم مخدر يلد العجزة .

ــ لا ، لا أريد ان افقد كل شىء ، دعى لى شيئا أتذكره .

ــ لمـاذا ؟

ــ لأنى اريد ان أظل أحلم ، اظل كما انا على الاقل .

ــ لأنك جبان ، ولدت من لحظة مخدرة ، وجئت نتاج لذة المخدر

.. آلاف الاشياء الناعمة البراقة غير الحقيقية التى اطلقتها اللذة الوقتية ... هى التى انجبتك ... ولم تولد كانسان ، بل كدمية ، علامة الرجولة لكائن آخر ، برهان الخصوبة الذى يجب الحفاظ عليه .

ـ وانت ؟ كيف جئت الى هـــذا العالم ؟ بمفردك ؟ بالرغبة الصادقة فى الحياة ؟ أنها نفس القصة ! ! ولهذا يجب ...

ـ أن أموت .

ـ نعم .

ـ كان ما بيننا خداعا ، نوعا من الاحلام .

ـ نعم .

ـ ولكن لماذا لم تكتشفه من قبل ؟

ـ كنا نعرفه ولكننا اخفيناه على أنفسنا .

ـ وداعا .

ـ ... ...

ـ انت يا رجل .

ـ ماذا ؟

ـ هذه منطقة عسكرية ممنوع التواجد فيها .

ـ ولكننى هنا من زمن طويل .

ـ لم يرك أحد ، والا منعك .

ـ وأين كانوا اذن ؟

ـ انت تثير اعصابى ، وسوف تخلق لنفسك المشاكل .

ـ هذه الارض ملك لأحد ؟

ـ لا .

ـ اذن ما المانع من الجلوس هنا ؟

ـ ذلك ممنوع منعا باتا .

ـ ولماذا ؟

ـ لدواعى الامن ، لأن التعليمات تقول ذلك .

ـ حسنا ، لن اترك هذا المكان وخاصة ، ان تعليماتك تقول انه ممنوع .

ـ سأضطر لاستخدام القوة ، بل ربما أقتلك لو اضطررت

ـ ها ، انت لا تقدر على قتلى .

ـ لماذا ؟
ـ لانى من عند الرب اتيت .
ـ ماذا تقول ؟
ـ اقول ... انك ولد طيب ، وانا سوف ادعو لك بالرزق والولد الصالح .
ـ انت ؟!
ـ نعم ... سوف اجعلك شجاعا تقدر على القتل .
ـ لقد عرفتك ، انت الدرويش ... سيدنا الشيخ اغفر لى وادع لى بالبركة ان زوجتى ستلد الليلة ، كنت اتمنى أن اظل بجوارها ... انها وحيدة ...
ـ انظر دوما الى الشمال يابنى ، فاذا وجدت نورا يشق السماء ، فاعلم يابنى ان زوجتك وضعت وليدها سعيد الحظ .
ـ شكرا لك ياسيدنا الشيخ ، شكرا لك .
ـ اذهب الآن ودعنى وحدى ، اتأمل ، ربما أعرف سرا من الاسرار ، اكتشف طريقا الى الحقيقة .

الشمس تهبط ، الريح الباردة تأتى من الشمال ، عواء الهواء الصحراوى يأتى من الجنوب ، صفير مركب بعيد فى البحر يأتى واهنا ضعيفا .

تحول الحب الى اشياء صغيرة مبعثرة مثل قطع الثلج فى اناء الماء ، الحب موجود فى كل مكان ، ولكن لا وجود له مستقلا بذاته ، انه ينمو مع الاشياء الاخرى ، يتعلق بها ويكبر معها ، فى كل مكان تذهب اليه تجد الحب ، فى الهواء حيث يتنفس ملايين الناس ، فى البحر حيث ينظرون ، فى الارض حيث يمشون ، ولكنهم لا يجدونه فى قلوبهم لأنها لا تتسع له ، تقتله ، تضغط عليه ، تعلق عليه آمالا كبيرة ، تستخدمه ، تريده لمنفعتها لتركبه ، لاتريده لذاته ، وهو لهذا يهرب من الناس ولكنه لايختفى من العالم ، فانه يعيش ، حيث الرحابة والضوء والنظافة .

انى اتحرر ، اشعر بالرغبة فى الصراخ ، فى الجرى ، فى الغوص تحت الماء ، اسمع أصواتا مختلفة تأتى من بعيد ، لابد أن أواصل المسيرة حيث أجده ، ابحث عنه حتما سأصل اليه .

أوراق أخيرة فى الملمح الأخير :

أصبحت وحيدا ، تأتى الريح من حولى من كل الاتجاهات ، لا أحـد يسألنى ، اختفت نظرات الشك من أعين الناس ... لأنه لايوجد أحد ينظر الى ...

... أتحرر انا ، أمد يدى ما وسعني ذلك ، أمد خطاى ، أجرى انطلق ... انى أتحرر ... يمكننى ان أضحك لأنى صرت وحيدا ، اعانى من الجوع أو الظمأ ولـكنى سعيـد ، أخلع عن نفسى هذا الزيف ، عشت فيه وبه ، ولم أستطع التخلص منه الا هنا فى عالم الرمال الواسع الممتد دون نهاية ...

أنا شيخهم ، أنا لص المنـازل والمعامل ، اباركهم وارفع يدى بالدعاء ، من أجل المطر ، والمطر لايسـقط ، ذلك لأنه يحتاج الى دعاء من رجل طاهر ...

عيسوى كان يصيح :

ـ ياشيخنا المبجل ، هل لاعب السيرك ، المتمرس على تخطى الحبال يمكنه ان يسير فوق الصراط دون ان يقع ؟

مدرس الدين فى مدرستنا يبتسم ، يضع يده فى جيبه ، ينظر فى رثاء الى تلميـذه الخبيث ، يقول :

ـ لا ياولدى ، لأن المهارة لا تنفع ، الذى ينفع هنا هو عمـل الانسان من خير أو شر .

يحك عيسوى ذقنه فى غباء ويخرج دون اقتناع ، وحينـما نتمشى معا يقول :

ـ ولـكنهم الآن يسقطون المطر بطرق صناعية .

ـ ماء المطر فى هذه الحالة لا يـكون طاهرا .

يقف عيسوى فجأة وينظر الى وجهى ... ثم ينفجر ضاحكا ...

ـ حقا ! ! لماذا لا تصدق احدا ؟ كاتى تقول ان المطر يسقط من عيون الملائكة ، وهم يستعطفون الرب من أجل البشر ، ولهذا فهو ماء طاهر .

يجمع عيسوى بعض الاحجار الصغيرة ويأخذ فى قذف الطيور التى تقف على الاشجار .

عيسوى مات ، قتلته شظية قنبلة منفجرة ، لم يكن يقصدونه كانوا يقصدون المسجد ، سقطت بعض أحجار المسجد ولكنه لم يتهدم ، ظل المسجد مرتفعا وتناثر عيسوى أشلاء ، مات وتركنى وحيدا .

كاتى ايضا لم تعد ، فقدتها فى خلال بحثى عنها ، اصبحت يائسا ، أبحث عن الحب ولا أجده ، لم تكن كاتى تحبنى ، كانت تتظاهر بالحب ، تلهو ، وانا ايضا لم أكن احبها ، يبدو ان هذا صحيح .. لا ادرى ما هو الصحيح ، لم اعد املك القدرة على المعرفة .

كنت اذهب متلصصا الى منزل شوق ، فى المساء متدثرا بالظلام ، اقضى رغبتى وأعود ، أجتر الندم حتى الصباح ، اقف متلهفا انتظر كاتى ، ينتفض قلبى فرحا لرؤيتها مقبلة نحوى ، أتمتم فى صلاة :

ـ أحبك ، أحبك ، أحبك .

ينفجر شيطان السخرية من نفسى ، أرتعش ، كنت فى احضان شوق أمس ، واليوم أمشى مع كاتى وانظر اليها فى حب ، أيهما تعشق يا مجنون ؟ يا وليد النزوة العاجلة ، انت على خطأ ، أين الصواب ؟

كاتى لم تكن تقول شيئا ، كانت صامتة ، تبتسم فى بلاهة ، يصرخ فى أعماقى مارد يود أن يحطم كل شىء ، ولكننى لم أتحرك أمضى فى نفس الطريق أدور حول نفسى .

ـ كاتى ... احبك .

ـ وانا ... أيضا .

ـ اشعر فى نظراتك بعض العتاب

ـ هل فعلت شيئا يستوجب العتاب ؟

ــ ولـكن ... انا أقصد ، انك تغارين ؟
ــ ها ... الغيرة نوع من الـكراهية .
ــ ... والحب ؟
ــ ربما .

مضت ، تركتنى فى منتصف الشارع ، بائع خبز سـقط منه رغيف ، انحنيت التقطه ،كان الرغيف دافئا تنبعث منه رائحة القمح رفعته بيـدى وقبلته ، ابتسم البائع فى ود ، كان ذهنى مشغولا بأشياء غريبة .

الريح باردة ، تصفر فى اذنى ، انظر الى الشمس ، كانت بى رغبة فى البكاء ، خلعت بعض ملابسى لـكى أتحرر ، أشعر بالظمأ الشديد ، اتخيل بئرا على بعد ، قلبى يحدثنى بقرب نهايتى .. اجلس فى يأس ، أتذكر لمحات الحب فى حياتى ...

آه مبروكة ، مبروكة فتـاة السوق ، لم اكن أحبهـا فى أول الأمر ، كان أبى يحبها ، وكانت هى أيضا تبـادله الحب ، وكان ذلك يبـدو واضحا من نظراتهما ، من اهتماماتهما المشتركة، حتى راجت القصص حول حب أبى لمبروكة ، وكنت أسمع هذه القصص تتناقلها الألسن وتحوم حول بيتنا .

انظر الى أمى فلا أجد أثرا لهذه القصص عليهـا ، هى نفسها لم تتغير ، تبتسم فى سـعادة حينما يقبـل عليهـا ، تصمت حين يتكلم ، تنـدفع اليه تخلع نعليـه ، تقف حاملة كوب المـاء فى انتظار أن يشرب ، خاشعة فى انتظار اشارة منه ، يشع الحب من عينيها ، تضحك فى سـعادة لـكلماته الباسمة ، أو التى توحى بذلك .

كنت أقف بينهما حائرا ، لا أدرى من منهمـا يحب الآخر ، اسمع قصص العشق عن أبى ، أصرخ فزعا ، ويحاول الاطفـال اثارتى ، ابتعـد ، أجلس مع الرجال بجوار أبى ، ومع لفـائف الدخان المتصـاعدة من أفواههم يتفاخرون بالعشـق ، بالعـدد ، بالـكثرة ، بالدوران حول الفريسة لاقتناصها ، بالهرب منها بعـد ذلك للدخول فى مغامرة جديدة ... ويمتلىء رأسى بالاقاصيـص ... اقاصيص عالم الرجال والعشق .

... مدرس التاريخ يحكى لنـا قصـة جارية الخليفة ، وجارية

السلطان وجارية الوزير ، وجوارى الأمراء والاغنياء من الاعيان والتجار ، وسوق الجوارى فى كل مدينة ، تاريخ الجوارى ، والجوارى اللائى صنعن التاريخ .

الرجل الذى يبيع الاقمشة فى البيوت ، يجلس فى أول الدار، يتربع ، يحمل الهدايا ، بجواره كتاب اصفر اللون ، به قصص الجوارى ... هذه جارية الخليفة هارون الرشيد ، لقد اشتراها بألف الف دينار لأن بها سحرا ، على فمها ابتسامة تذيب الجبال ، وشعرها جدائل كالحبال ، واردافها رجراجة ، العظم منها لايظهر، ولأن النظر اليها يبهر ... فقد أشاروا على النخاس ان يبيعها للخليفة ، وها هو ذا الخليفة ينظر اليها لاهث الانفاس .

الخبر جرى بين نساء وجوارى القصر ، وكلهن تزين واعددن العدة لاستقبال العروس الجديدة ، التى سوف تشاركهن منذ الليلة حب هذا الرجل الواحد الذى يتسع قلبه لكل هؤلاء ، ويطلب المزيد .

وتسأل صبية تقف خلف بائع القماش :

ـ الم يكن الخليفة متزوجا ؟

ويستدير الرجل برأسه ليرى صاحبة السؤال ، تفور فى قلبه شهوة الرغبة ، فيمسح على شاربه مستعرضا فحولته، ويجيب :

ـ نعم يا جميلة البنات ، كان متزوجا من أجمل نساء الارض ... زبيدة اسما وجسما ، وكان مدلها فى حبها .

كف عن هذا يا بائع السوء ، فأنت تدخل الشيطان فى قلوب النساء .

تنطلق شرارة الغيظ من عين الرجل حتى تكاد تحرق المرأة العجوز التى جاءت تنغص عليه لذته ، ولكنه لا يملك الا أن يقول :

ـ مالك انت يا .. الرجل الآن لايقدر على امرأة واحدة .

وتتكوم المرأة بجواره ، وقد رغبت فى استعادة احلامها ...

ـ فى الماضى كان الرجل يقدر

ـ أيام النساء الحقيقيات .

ـ نعم ، حينما كانت المرأة تدفع الدماء الى عروق الرجل ... أريد هذه القطعة .

— انها من الحرير الوارد من بلاده ، لا ابيعه الا ... للجميلات .

— اذن ستبيعه لى ... ولـكنى اخشى أن أكون قد كبرت ؟ !

— انت ؟ ! لقد نضجت واكتملت لك أنوثة ليست لاحدى اللائى يتغذين على السمن الصناعى

— كنا نعب من السمن البلدى عبا ، وكنا ...

فى اليوم التالى تأتى امرأة تبيع هى الاخرى أقمشة للسـيدات فى بيوتهن ، تحمل معها كل شيء ولـكنها لا تحمل كتابا مثل الرجل ، بل تحمل الأمل معبأ فى أحجبة وادوية واعشاب لرجالهن ...

هـذا لـكى يكون رجلا حقيقيا ، وهـذا لـكى يحد من رجولته حتى لا يذهب بعيـدا ، هناك آلاف من الاعشـاب تصلح لاعادة امجاد تاريخ الجوارى ، وبين هـذا كله فهى — البائعة — تحمـل فرصـا للتجربة ، يمكن للمرأة ان تجرب هى الاخرى ، فلتكن جارية لرجل آخر علها تشعر بالمتعة ... فزوجها قد خانته قوته ولم يعد رجلا ، ولـكن الآخر الذى ارسل لها مع البائعة لايزال فى كامل رجولته ، حتى لو كان زوجهـا لايزال يحمل بقية رجولة ، فلن يضر شيئا ، التجربة تتيح المتعة ...

فى المساء تنعقد مجالس الرجال ، وتشتعل النار ، وتدور الغاب على أفواه الرجال ، وتفرط الألسن بالحديث عن غزواتهم فى عالم الجوارى الاحرار ، وهم جميعا يعلمون أو لايعلمون ، يتبـادلون الزوجات ، هـذه زوجة هـذا وجارية الآخر الذى يتحدث وسوف يتحدث الاول عن جاريته بعد قليل ...

انى اتبرأ من هـذا العالم ، انى ابتعد عنه ، الرمال سـوف تحجب عنى وجوههم ، يكفينى هذا الخلاء الواسع لـكى أذوب فيه ، لـكى اتلاشى .

ولـكنى لا أستطيع ، أنا أحمل حبـا غير محدود ، ما زالت هناك آمال لم تتحقق ، آمال للحب ، لغزو العالم من جـــديد برسالة حب .

«.. اذا لم تقاتل الناس ، فان أحدا لن يقاتلك ، قابل الاساءة بالاحسان ، فأنا طيب مع الطيبين ، وطيب أيضا مع غير الطيبين ، فبذلك يصيرون كلهم طيبين .. هكذا يقول « لاو — تسى » .

« ... ان احببتم الذين يحبونـكم ، فأى فضل لـكم ، فان الخطاة أيضا يحبون الذين يحبونهم ، واذا أحسنتم الى الذين يحسنون اليكم ، فأى فضل لـكم ، فان الخطاة أيضا يفعلون ذلك ... هكذا يقول المسيح ... »

كان أبى يحب مبروكة ، وكانت هى تحبه ، وكنت انا انظر اليهما وابتسم .. كنت اقف بجوار أبى وتأتى مبروكة ، متعطرة تفوح منها رائحة عطر خاص بها ، يملأ دائرة من الهواء تـكون رسولا فى مقدمة ركبها ، سمراء ممشوقة القوام ، ترفع راسها فى خيلاء ، شعرها طويل اسود متموج فى جدائل غجرية الحركة ، يحاول ان يفلت من غطاء للراس محلى بالزهور ، أنفها دقيق فى استقامة ، تنفجر من خديها الاسمرين كرتان من الدم الاحمر عندما تبتسم ، يدها دقيقة رقيقة تحركها دوما فى تفاخر ، حديثها عذب يهفو القلب الى سماعه ، تخطر فى مشيتها فيهتز صـدرها فى دلال ، تقف بجوار أبى وتنظر اليه فى وله وشوق ، ترفع عينيها فى خفـر وخجل ، تنفجر السعادة فى وجه أبى ، ويزداد زهوا .

لم يقل لها أحبك ، ولم تقل له ، كانت تمتهن تجارة الفاكهة ، ولهذا كان حديثهما عن التجارة ، يسمع منها ويشير عليها ، تسمع منه وتشير عليه ، لم تحدثه عن الحب ، كان يكفيهما ان تنظر اليه وترى نظرة العشق فى عينيه ، وكان هو لا يقول شــيئا ، ترتفع ضحكته مجلجلة فى سعادة لرؤيتها ، يتحسس وجهه ، يسوى شاربه يشد كم جلبـابه وعروتها ، يتنهد فى ارتيـاح ، ويشعل سيجارته ، يظل صامتا حتى تبداه بالتحية ، يقفان جنبا الى جنب وينظران الى الافق ، وربما تمضى عليهما لحظات دون أن يتحدثا ، يضع أبى يده على شعرى ويتحسسه ، تأخذنى هى بين أحضانها وتقبلنى فى فمى ، ثم يبدأ بينهما الحديث .

أنا أحب مبروكة الآن ، وكنت أحبها من قبل دون أن أدرى ، كانت تتمثل لى فى الايام القاسية فى السجن ، فى حالات السـكر الشديدة التى كانت تلم بى ، وفى هذا الخلاء الواسع الذى أعيش فيه الآن ، يمكننى ان أكتشف حبها .

... شعرت بالدوار ، سقطت على الارض مريضا ينزف الدم من

أنفى بغزارة ، ليلة العيد والسوق على اشدها ، كل تجار مدينتنا ينتظرون هذه الليلة ، مبروكة تعمل وهى فى دورة حماسها تدور حول الاقفاص ، تنهر بناتها ، تتملق زبونا ، تضحك فى دلال ، تقبض الثمن وتدسه فى جيبها ، ينعكس الضوء الباهر على ثمرات الفاكهة ، تبدو حبات العنب متوهجة ... الايدى تلتقط الحبات بمهارة فائقة ، تقذفها داخل الاكياس الورقية ، تميل كفة الميزان ، السمراء ترفع عقيرتها بالغناء ، ولكنها تسمع الصوت ينادى ... تندفع تاركة عالمها الملىء بالحركة ، تهرول تحتضن الغلام ، تأخذه فى صدرها ، الدم يندفع بغزارة من أنفى ، أشعر ببعض الامان... تمسح مبروكة الدم المتجمد حول وجهى ، تلمس قطعة الثلج فى يدها خدى وجبهتى ، اشعر بالانتعاش ، اتنفس ، تجلس مبروكة وتأخذنى لانام فى حجرها ، تمسح الدماء المندفعة من أنفى بيد ، وبيدها الاخرى ترفع راسى ، ملهوفة كأم ، شجاعة كمنقذ ، ماهرة كطبيبة ...

ـ اذهب انت ودعه لى .

ـ ولكن .

ـ قلت لك اذهب ودعه لى ، هذه ليلة عيد

ـ وتجارتك انت ؟

ـ هذا الولد أغلى عندى من كل مال الارض .

ـ يجب أن أساعدك .

ـ أرجوك ... اذهب لعملك ، انت وحيد ... سيكون بخير ...

احببتها ، انفجر بركان حب الابن المتشوق الى حنان أمه ، نظرت الى وجهها ، من خلال دموعى ونقط الدم ، لمحت دمعة صغيرة تحاول ان تسقط من عينيها ، حاولت ان أفتح فمى ، ضمتنى بحنان ، شعرت بالدفء يسرى فى جسدى وغفوت ...

حتى الصباح وانا راقد فى حجرها ، كانت الشمس ، حينما تنبهت الى نفسى، تشرق باسمة ، حاولت ان أقف شاعرا بالخجل، ولكنها رفعتنى فوق كتفها ، حملتنى حتى الفراش ، وضعتنى فيه برفق بينما وقفت أمى تتثاءب فى دهشة ، لقد كانت أمى نائمة...

من اجل هذا احببتها ؟ أم ان هذه القصة كلها لم تحدث ؟

وليست سوى خيالات ؟ لماذا لا اقدر على حفظ توازنى ، لماذا اجد نفسى دائما انزلق الى حافة النار ، حيث تلسعنى فى كل مرة ، لاعود مرة اخرى مسلوب الارادة ، فاقد السيطرة ؟ لماذا لا أقرر حقيقة نفسى ، ماذا يمنعنى من الوصول الى اليقين ، الى معرفة حقيقة نفسى ، الى خلاصها ؟ يجب ان اتحرر ، ان أصل الىالخلاص

الطريق الى الخلاص ، بلا نهاية ، ومن حولى تتسع الصحراء وتتمدد ، رائحتها نقية ، ولكنها مملوءة بالاشباح التى تتقافز وتتفامز من حولى ، واحيانا تثب الى كتفى ، وتضع أظافرها الخشنة على رأسى ، لا ادرى اى اتجاه أسلك .

رائحة البحر ما زالت فى انفى ، أستشعر معها الأمان ، أتجه صوبها ، تزداد الرائحة وضوحا ، يخيل الى اننى أقترب منهدفى، تبدو السماء صافية الآن ، الشمس فى كامل استدارتها ، انى ابتسم لها ، اضحك ... هذه الشمس حبيبة الكل .

« آتون يارب الكون ومنبع الحياة ، انى ارفع يدى نحوك لكى تمدنى بالقوة ، والسعادة ، والحب ، اقف عاريا تحت وهجك لكى يتبارك جسدى ويتطهر ...

.. آتون يارب الخير والنماء ، ياعادل فىحكمك ، هب لنيلنا الخير، ولأبنائه الرزق ...

... اتون يارب الزمن الاوحد ، تعاليت فى سماك ، هب لأبناء نيلك الشجاعة لكى يتطهروا ... »

انا حر ، لايوجد بشر من حولى ، اسير فى كل الاتجاهات ، اعبر فوق متاهات البشر ، أتخلص من ملابسى ، كما اتخلص من اكاذيب العمر كله ، من اكاذيب البشر ، من أرقامهم ، من خوفهم الابدى.

انا وحدى اعبر طريق المجهول ، اتخبط فوق التلال المرتفعة واهبط فى الوديان الجافة الرملية ، اسمع صوت الريح ، وأشم رائحة الرمل ، الملايين من حبات الرمل ، الرمال التى لا تنتهى ابدا ، اجرى فوقها ، أصرخ لنفسى ، انادى فى البرية ...

« آتون ، يارب الارض ، ياخالق نهرالنيل ، ياواهب الفيضان ، انظر نحوى ، اجعلنى طيرا لأغرد فى الفضاء ، ارفعنى نحوك لكى ارى بهاك ، لكى اطوف فى كل البلدان ، وارى كل الكائنات التى

تستمتع بدفئك ، وترتوى من نورك . لكى أجعلهم يقدمون لك الفجر قربانا لشروقك فوق الارض التى من صنعك ...

... آتون ، انت عاشق للحياة ، ولهذا انت لا تخاف الموت ، وانا ايضا ، بفضلك صرت لا اخشى الموت .. »

— كاتى ، حبيبتى كاتى ...

لا احد يرد ، لايجيبنى أحد ، ولكنى لن أكف عن الصراخ ، لن اكف عن النداء ، النداء لكل النـــاس ، لكل البشر ، لكل الكائنات ...

« طوبى للمساكين أبناء الرب . طوبى للفقراء ، طوبى للعرايا ، للتائهين فى وديان المعرفة ...

... هناك أمل ان يأتى اليوم القادم ، كما هو مكتوب فوق الصخر ، انه يوم أفضل ، تأتى فيه رسالة حب ...

وحتى يأتى اليوم القادم ، سأظل اصرخ فى البرية ، انادى ، حتى يسمعنى ، انى صرت حرا ...

« ... باسمك يا آتون ، أقدم هذا القربان اليك ، لانك علمتنى طريق الحرية ، واعطيتنى الشجاعة لكى أتحرر ، ووهبتنى القدرة على معرفة نفسى من خلالك ...

... اليك يا آتون ، يارب مصر ، أقدم لك هــذا القربان . وأرجو أن تتقبله ، انى أذبح جسدى قربانا من اجلك ، ذلك لكى أتحرر تماما ، انى أذبح جسدى ... »

اليوم الأول من العام الاول :

عدت ...

مدينتى تزغرد ، الضيـــاء يبعث الفرحة فى القلب المـكلوم ، تنادى ... يا عشاق ... يا أحبـاب ، ويدفن الفتى وجهه المعروق المخذول فى حضن المدينة ، تهدهده أمواج البحر ، تهمس فى أذنه... اليوم ياولدى قد صحوت ... ودمع الليـل آن له ان يجف ، لتصبح العين قادرة على الرؤية .

ــ عيسوى ... اين انت ؟ ... أبحث عنك ، اتشمم رائحتك فى كل مكان ، أرى وجهك فى كل الوجوه ، ارغب فى وجودك معى ... انى اصرخ فى طلب العون ...

وجدتهم من حولى ، ينظرون الى فى ود ، اخـــــذونى بين أحضانهم ، عرفتهم ، هم ياعيسوى ... أتذكرهم ؟ ... هؤلاء الصبية الذين كانوا يلعبون معنا فى حارتنا ، لم نعد صبيـة ياعيسوى ، اصبحنا رجالا نرى الدبابات تقف على أبواب مدينتنا ، وحصـــار مضروب ، وذل مرتقب ، وفى القلب ومضة نار .

تحركنا نحو دار المحافظة ، مزقنا العلم الابيض ، الرجل الجبان ذهب الى المستشـــــفى ، نار الزيتية تثير الحمية فى النفوس ، اخذنا السلاح .

سألنى الرجل ، ودوى الانفجارات لا ينقطع ، وقال :

ــ جائع ؟

ــ لا .

ــ منذ يومين وانت لم تأكلَ ! !

ــ لا أريد طعاما

ناولني صندوق ذخيرة ، امرني أن أقف مترصدا اول الطريق ، كانت السويس تقف من خلفي ، تضحك ، جسدي يهتز وحلقي جاف ، جلست على الارض ...من خلفي بدت عمائر الحاج ونيس عالية في كبرياء ، كان عيسوى يذهب ويقف أمام الحاج ونيس ويضحك ، وعندما أحذره من عنف الحاج ، يقول وهو يجرى :

ـ أنا أحبه ... لقد ابتلع قاذورات المدينة في بطنه ... ولهذا تجد السويس نظيفة .

ومات الحاج ونيس وبقيت عمائره شامخة قوية لا تخشى دانات المدافع ولا قصف الطائرات ، الاشخاص يذهبون وتبقى الاشياء .

جاء « الشيخ » قائد مجموعتنا ، سألني الاخبار ، قلت له ان الامور تسير سيرا حسنا ، على العموم ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لي ، حتى الآن لم اشتبك معهم ، لم .. قاطعني الشيخ قائلا :

ـ سيأتي دورك ... فقط اصبر .

سمعت صوت جنازير الدبابات ، ضحك الشيخ وقال :

ـ جاء دورك ... لاتدعهم يمرون .

مضى مهرولا ، تحسست مدفعي ، سمعت شرح الجنود عن كيفية استعماله ، ولكني لم أستعمله ، سرى في جسدي ومض سريع ، شعرت بعده بآلام حادة في مناطق متفرقة من جسدي ، كان جسدي مريضا ولم أستعد بعد صحتي كاملة ، شعرت بالخوف من الفشل ، وقفت مشدودا ومنتبها ، كنت راغبا في الموت .. اتمناه واشعر في قرارة نفسي بضرورته كمطهر لي وخلاص لروحي ، الآن جاء دورك ... يا بليد الفصل ... عيسوى هل تراني وانا اقف في أول الطابور ، ممسكا بمدفع حقيقي منتظرا الدبابة الاولى ؟ ... عيسوى ... أنا هنا في مدخل مدينتي الحبيبة... عيسوى لماذا لا ترد ... هل تسمعني ؟ ... لقد ذهبت الى داركم أمس ... أقصد عشتكم ... تصور انها سليمة ولم تمس ، انها شامخة كالطود ... وانا الآن كذلك ... اقف في المواجهة ... اتحرك... أنا موجود ... انا اقف في طريقهم ...

بذلت جهدا كبيرا لكي اتمالك نفسي ، لكي أعي ما حولي

وأخرج من غيبوبتى ، رأيت الدبابة الاولى ، تتـــدحرج على اول الطريق ، تطلق من مدفعها الامامى استعراضا ناريا على كل شىء ، أحسست بأن قائدها خائف ، نظرت اليها جيدا ... تذكرت سلم بيتنا وبلاط الصالة ذا المربعات الحمراء والســوداء ، كاتى تصرخ فى وجهى ثم تجرى غاضبة ، عيسوى يقفز فى المـاء عاريا ، يشكل جســده عدة دوائر فى المـاء الساكن ، يرتفع زبد المـاء ويلمع فى ضوء القمر ، ينشـد عيسوى نشيـد القمر الابيض ... ترتفع كف أبى وتلطم وجهى ... تظهر الدوائر الحمراء حول درجات الامتحان، تمتد الصحراء الى ما لانهـاية ورمال مفروزة فى الخبز ... ودور النجع المدفونة تحت كثبان الرمل ، وصبية تخرج من خلف ستار الخيمة ... وتقترب الدبابة تصدر فحيحا ناريا ، يلســع وجهى ، أرى صــدر الدبابة فى مقابل وجهى ... اشعر وكأن جنازيرها تمشى على صــدرى ، أثور ... أرفع مدفعى وأستعيد ما قاله لى الجنود ... اضع يدى على الزناد واجذبه ... تخرج الطلقة ... أراها ... أتبعها بعينى ، تصطدم بجسد الدبابة ، تحفر وتفوص ... تعوى الدبابة فى ألم ، يرتفع لهبا أزرق من جوفها ، يتقافز أربعة جنود ... كانوا بالامس وحوش الغاب ، كانوا بالامس ذئابا .. أتذكر وجه عيسوى مطحونا مفروزا فى أسفلت الشارع ، نتف اللحم الطازج عالقة برمال الطوار حمراء وبيضاء ، اشعر بالحمى .. أطلق مقذوفا آخر ، ترقد الدبابة بلا حراك ... تتراجع بقية الدبابات ، أصابنى سعـار كنت فى شــوق الى رؤية عيسوى ... احمل مدفعى وأجرى صوب الدبابات أرقد وأطلق مقذوفا ثالثا ، يزأر فى الهواء ، ينفرز فى جنزيرها وهى تستدير ، تنطلق بقية الدبابات بأقصى سرعتها ، أجرى ... أصــابنى وهج الحياة ، أصرخ ... عيسوى يا ابن القهر استيقظ ، قم ... أنا أدفنهم قربانا من أجلك ... ينفلت المقذوف... تشتعل النيران فى الدبابة الثانية ... يتحول اللهب الى لون رمادى ، اسمع صــوت النـار ... النـار تغلى فى قلبى ... عيسوى يامجنون يا رجل اليوم الاســـود ... عد لأن القلب تحرر ... اصرخ بأعلى صــوتك ... يا سويس مهندس الاضاءة عاد يعبث فى الازرار ... والصبح وشيك الظهور ... الم اقـل لـكم ... ذلك مكتوب فوق

الصخر ... ان اليوم التالى افضل ... وتفر الدبابات ... بينما ترقد اثنتين تلعقهما النار ... يجتاحنى فرح غامر ... بيـــان شخصى رقم واحد .. اليوم ولدت .. لا.. بيان عام رقم واحد.. اليوم ولدنا.. لا ... بيان مصرى رقم واحد ... اليوم صحونا .

عدت أنا ، لست مجنونا أو مخبولا ، بل أنا الرجل الذى يود ان يعيش فى مدينته ، وأن يجلس ساعة الظهيرة فى بيته يتحسس ثوب ابنه القادم من ظلام الرحم ... ولـكن كاتى ذهبت ...

ــ كاتى ... انا موجود ... انا احمل سلاحا غير مسروق ... أحمل قهرا اطلقــه على أعدائى لـكى أتحرر ... ولهذا صرت قادرا على الفعل ... قادرا على الحركة ... قادرا على الحب

ــ انت ما زلت تحلم

ــ لا ... لم اعد ذلك الولد التائه فى صحراء الصبار المتحجر بل انا الرجل القادر على الحب

ــ والحب عطاء ، عطاء مدرار لا يتوقف

ــ والحب عطاء

ــ والحب مدينة .. شارع مرصوف وحانوت

ــ ورغيف وقطرة زيت ... وكساء

ــ ومدفع وصنــدوق ذخيرة

ــ واليد اليمنى قوية ... تشد زناد مدفعها لتواجه الشر حتى لايأكل الحب ... لأن الحب عطاء .

الحب عطاء مدرار ، الحب عطاء ومدينة ...

ــ ماذا تفعل يا بطل ؟

ــ من ؟ ... أنا ؟ !

ــ ومن غيرك هنا ... يا بطل

نظرت الى وجه الشيخ ، كان أكثر بياضا مما كان عليه ، وكانت ابتســامته تملأ وجهــه ، تشع بريقا رائعا يعطيــك الاحســاس بالأمان ، له لحية صغيرة قصيرة مدببة ، ابتسمت فى نشوة ، قلت :

***

ــ أود ان أشرب المـاء من يدك

الشارع مظلم ، يربض شبحها المعتم فى أوله ، تتصــاعد منهـا

رائحة الدخان ، هامدة تخلى عنها الجنود ... درت حولها ... لا أحد يلومنى ، لانه لا احد يقدر على تصور فرحتى ، أنا ذلك الملفوف فى سحابة التابع اصبح رجلا يفعل ، ولكنهم لم يتركوا لى هذه اللحظات . التفوا حولى ، راحوا يصرخون فى سعادة ويتصايحون.
جاء الشيخ وقال فى نبرة واضحة :
ـ سيعاودون الهجوم فى الصباح
بدات الضجة تخفت ، صحت فى نشوة :
ـ وماذا يهم ... يا مرحبا
تحسس الرجل ذراعى وقال :
ـ كن على حذر
رفعت صوتى فى ثقة وقلت :
ـ لن أتحرك من هنا ... حيا او ميتا .

عاد الرجل ليتحسس وجهى ، الظلام يحول دون الرؤية ، أراد أن يشعر بجدية كلماتى ، راحت اصابعه تلمس شفتى ، قلت من جديد :
ـ لقد مت من قبل ... ولن أموت مرتين .

ضحك الرجال من حولى ، وعادت الضجة من جديد ، صوت الجماعة يعيد الشجاعة الى قلب الفرد ، انصرف الشيخ وهو يضحك ايضا ، احس انهم يرغبون فى المرح قبل المعركة ، اطلق أحدهم ضحكة عالية وقال :
ـ فى المستشفى متطوعة تسأل عنك
رد الآخر بنفس درجة صوته :
ـ محظوظ ... بطل « الاربجيه » ! !
خفض الرجل الاول صوته ، وقال بجدية :
ـ اتكلم جادا ... هناك متطوعة تسأل عنك فى الحاح
جذبنى الرجل الثانى ، وقال :
ـ وجميلة جدا ... انت محظوظ ! !
صاح ثالث وكان راقدا على ظهره ليرى النجوم التى بدات تبرق فى الظلام ، وقال :
ـ بعد الحرب ... سأتزوج وأعمل فى الميناء .
ضحك الاول فى خشونة ، وقال :

ــ ولمــاذا لا تتزوج الآن ... الليلة ؟ !

كنت اشعر بالجوع ، هــــذا هو اليوم الثالث من غير طعام ، اسعدنى جوعى لانه ذكرنى بوجودى ، لمحت أطياف المــاضى تداعب خيالى ... أيام هربى من عربة السـجن الحربى ، يومهــا جرحت وظللت جائعا ، مريضا ، شاعرا بالمهانة والضآلة ، ولــكن شعورى بالجوع الليلة مختلف ، اشعر بالزهو لانى جـائع ... عاد الرجــل الثانى يقول :

ــ الفتيات مشغولات دائما بالمستشفى ... سأنتظر حتى تهـدأ الحرب . سمعنا صوت أقدام آتية من خلفنا ، وقفت مشـدودا متحفزا ، صحت فى قوة :

ــ من ؟

ردت بضحكتها الرنانة ، ارتاحت عضلات وجهى ، ســرت فى مجموعتنا موجة جارفة من المرح ، جلست بعد أن قررت الاحتفاظ بأعصابى قوية ، تقدمت منا تسبقها ضحكتها وثرثرتها المعتادة :

ــ فى كل مكان قف ... من انت ؟ ... كلمة سر الليل ... ها ... ماذا تريدون ؟ ... هه ؟

ضحكت فى سعادة وهى تجلس وسطنا :

ــ انا أمكم ... أم محمود ... وهــذا يــكفى

عادت أمى ، وقفت بجوار رأسى نادت فى نغم حلو باســمى ، صحوت ونظرت اليها كانت تحمل كوب اللبن الطـازج فى يدها ، وابتسامة تشع الحب من وجهها ، تمددت فى فراشى وتناومت ، اخذت تضربنى بيدها اليسرى ضربا خفيفا ، وهى تقول :

ــ كفى كسلا ... حتى الطعام تريد احدهم أن ياكل بدلا منك !!

ضحكنا جميعا ، هبت نسمة هواء بارد ، محملة برائحة البحر، استيقظ الصفاء فى نفسى ، انتشيت ، قالت أم محمود :

ــ يا بطل

ناولتنى رغيفا طازجا ، حرارته تلسع كفى ، تأوهت وأنا اضحك اخذت فى تشممه ، وضعت فى كفى الاخرى شريحة سمك مسلوق ... فى البــلاد التى هاجرنا اليها لا يعرفون تقاليــد أكل السمك ، ولا يعرفون حساء السمك ، بل لا يعرفون كيف ياكلونه الا مقددا

جافا لا طعم له ... وضعت مدفعى على فخذى ، ووضعت السمك فى رغيف الخبز ، ملأت رائحة السمك المكان وبعثت فى نفسى نشوة الحياة الساحلية التى تعودت عليها ، كان الفجر على وشك الظهور ، قلت وأنا أمضغ لقمة تملأ كل فمى :

ــ شكرا يا أم محمود

خبطتنى على ظهرى وهى تضحك ، قال زميلى :

ــ الم اقل لكم ... محظوظ ... ها هى أم محمود تخصه وحده بعنايتها ! !

الليل يأكل الاحزان ، واحيانا يأكل الصور ، سرى الشبع فى جسدى وجعلنى أشعر بالرغبة فى الارتخاء ، شكرا يا أم محمود... أم محمود بائعة الجرائد ، عندما تهبط سلالم المحطة وانت قادم بقطار السكة الحديد ، يقابلك ميدان المحطة فسيحا ، ولكن اذا انحرفت شمالا فان باعة الفاكهة يشعرونك بالحصار ، كما ان أصواتهم الحادة والغليظة ، على اختلاف طبقتها ، تحيط المكان وتعطى تأثيرا بالحصار أقوى ، ولهذا فانك ستضطر الى الانحراف جهة اليمين قليلا ، حتى تأخذ طريقك الى الخروج من هذا الحصار ، ولكنك ستقع فى شرك عينين مستديرتين تجعلك تقف مشدوها فاغرا فمك كالمعتوه ... وانت تسأل ما هذا الجمال ؟ ! ... انها تقف كالقمر المكتمل فى ليل الربيع ، وتشعر بدبيب الرغبة يسرى فى جسدك فى شرايينك ، يرتفع صدرها فى تحد وكأنه على وشك الوثوب نحوك ليشق صدرك ، تضع يدها فى جيبها تلهو بقروش معدنية مصدرة صوتا لتنبيهك وهى تضحك فى دلال ، ترن ضحكتها فى الميدان ، يشعر بها كل الرجال ... لقد وقفت امامها كثيرا ، افعل شيئا ، تقدم منها لكى تبتاع جريدة ، ناولها القروش ولكن لا تنظر الى وجهها ... بيضاء الوجه ، زرقاء العينين ملفوفة القد وكأنها حورية من حوريات البحر ، تصعد الى اذنيك الدماء حارة ، تحترق فروة رأسك ، تضطرب دقات قلبك... ها هى تخطو فوق أقفاص الجرائد ، ترفع ذيل ثوبها الملون ، تبدو سمانة الرجل بيضاء ، تسألك ... أهرام ؟ ... أخبار ؟ ... لن تمضى حتى تجد الرجل الذى وقف بجوارك يلكزك فى جنبك ...

أم محمود الآن يلقبونها بام الجنود ، لم تفادرهم ، ظلت فى قرية بالقرب من المدينة ، تعيش ليلها فى القرية مع أمها العجوز، ونهارها فى خدمة الجنود فى المدينة ، تجلب لهم المياه ، تطهو لهم الطعام ، ترتق لهم ملابسهم ، تجلب لهم الفاكهة من القرى المجاورة ، حتى خلال حرب الاستنزاف كانوا يرجونها ان تذهب ولـــكنها كانت تضحك ، وتقول :

— ومن يبيع الجرائد فى ميدان المحطة ؟ ! سأنتظر هنا حتى نعود جميعا الى المدينة ، فلا يسبقنى أحدهم ويحتل مكانى ... كنت قد نسيتها فى خلال هجرتى ، وعدت لـكى أجدها اكثر حيوية واكثر مرحا ، وهى تغدو وتروح بين المواقع ، ودانات المدافع تنهال كالمطر من حولها ولـكنها لا تتوقف ، تسقى العطشى ، وتطعم الجوعى ، وتوزع البسمات على الجنود وعلى الرجال الذين يحملون السلاح ، يسألها الرجل الذى يجلس بجوارى :

— تتزوجيننى يا أم محمود ؟

كان وجهها ، رغم الظلام ، يبدو مستديرا ينفـذ نوره خـلال الظلمة ، كنا نراها ونشعر بها ، نظرنا اليها وتوقعنا غضبها ، ولكنها قالت ضاحكة :

— نعم

صاح الرجل فى نشوة :

— الليلة ؟ !

هزت أم محمود رأسها وهى ما زالت تضحك وقالت :

— نعم .

انفجرنا جميعا فى نوبة ضحك ، الرغبة فى الحياة ، الرغبة فى ان تعيش تبهرك وتسعدك ، صحت وانا أرفع مدفعى فوق رأسى :

— لنرقص فى عرس أم محمود

وقفنا فى دائرة ، رحنا نتمايل من حولها ، هى فى الوسط تحجل مثل رقص بنات الشرقية ، ازدادت حمى الرقص ، بدات تدق بكفها صانعة نغما نرقص عليه ، تمنينا أن نظل نرقص طول الليل ، ولـكنها وقفت لاهثة ، وهى تقول :

— أنتم مشاغبون ... امامى عمل كثير

تقدمت منها ، كنت اود ان احملها فوق راسى وادور بها مباهيا ، وانادى . أمى . ذلك ابنك قد كبر ، صار رجلا يضحك من قلبه. وضعت كفها على خدى ، كان الكف خشنا وجافا ولكنه حار ، قالت :

ـ انها تسأل عنك

صحت كالملدوغ :

ـ من ؟

سحبت كفها بسرعة ، وهى تقول :

ـ يامخبول ... تسأل من هى ؟

تركتنى ورأسى يدور ، جذبنى الرجل الذى كان يقف بجوارى بشدة وارتمينا على الارض معا ، ارتفعت سحابة من التراب والرمال بجوارنا ، وتتابعت قذائف المدفعية فى نوبات من السعار ، امتلأ الجو حولنا بالدخان والتراب ، تفرق الرجال فى مجموعات صغيرة ، نور الفجر يزحف على التل الذى زحفت نحوه ... كان بجوارى رجل آخر لا أعرف اسمه ، اشرت اليه أن يقترب ، اقترب الرجل وهو يئن من جراحه ، هبت نسمة باردة ممزوجة برائحة البارود ، تكونت فى شكل اسطوانة هوائية ، وعندما انقشعت رأيته اشلاء مبعثرة ، قطع اللحم الابيض ملوثة بالدماء ، بقع سوداء بجوار الراس المقطوع ... لا تغضب ياعيسوى سيدفعون ثمنك من دمائهم ، دمك لن يذهب دون مقابل ، وسآخذ ثمنك وفقا لتقديرى ، ولكن دون دمع ... وزحفت حتى قمة التل ...

تمددت على عشب جاف ، كان عقلى يعمل فى هدوء وصفاء ، نظرت حولى كان الطريق أمامى منحدرا ، الدبابات ستصعد هذا المنحنى بعد قليل ، تمهيد المدفعية يعنى هذا ، ولكنهم لايعرفون من فى الطريق.. خبازون وبائعو جرائد ، فلاحون وتجاراسماك ، بمبوطية ، نجارون ... وعشرات من الجنود يقفون فى طريقهم الى قلب المدينة ... وتضع مدفعك بهذه الطريقة ... بل ابقه مرفوعا ، ضع عينك على الناشينكان ، اجذب الزناد وانت قابضعلى نفسك فى صدرك ... يثور عليوه على الجندى الذى يدربه : تعلمتم فىسنوات وتريدون أن أتعلم كل هذا فى ساعة ! ! يضحك الجندى :

ـ اليهود لا يفرقون ... يقتلون كل من يقابلهم ... ولهذا يجب ان تتعلم كيف تدافع عن نفسك ... وتقتلهم .

رأيتها تصعد أول منحنى للطريق ، تسير فى هدوء ، مدفعها الامامى مثل لسان الثعبان يهتز بفعل مطبات الطريق ، رمادية اللون، كتلة من الصلب هائلة الحجم تقترب نحوى ، لو انى رأيتها فى الافلام لفزعت ،ولكنى الآن أرقب حركتها فى يقظة ودون خوف ، جنزيرها يتماوج فى الوسط ، يدور ، تشده العجلة الامامية بأسنانها ، يتحرك الى الامام وهو يهتز ، وصلت الدبابة الى قمة المنحنى ، نقطة الضعف الجنزير ، جسدى كله ينبض بالحياة منتشيا ومستعدا للحركة .. للموت .. رفعت مدفعها الى أعلى.. بعد قليل تهبط التل ، افضل الاوضاع الآن ، وهى صاعدة كطفل يحبو ، جذبت الزناد .. فى الوسط تماما ، اهتز جسدى قليلا، وشعرت بألم فى صدرى ، اخترق المقذوف الهواء أمام وجهى ، مضى يشق طريقه الى نفس المكان ، اخترقه ، وقفت الدبابة ، حدثت فرقعة ثم صوت مكتوم ، كانت كالبطة المذبوحة ، وقفت تنظر حولها دون أن ترى شيئا ،ولكنها بدات تميل الى جنبها ، وارتفع من داخلها صراخ بشرى ودخان أبيض ، بدأ فرسانها يتركونها ، نحيت مدفعى جانبا ، كانت النيران تأكل قلبى ، وصورة عيسوى مقتولا ترعبنى... خطفت من زميلى بندقيته ، قفز الجندى الاول يحاول الهرب ... صدره كان واضحا أمام عينى ، عاجلته بطلقة ، شعرت بصدرى يؤلمنى ، البندقية عتيقة تحتاج الى اعادة « التعمير » فى كل مرة ، الجندى الثانى يطلق مدفعه الرشاش ، يقف فى تبجح وكأننا سنتركه يقتلنا ، سقط ... أخذت اطلق النار... كانت الدنيا من حولى هادئة عندما شعرت بألم فى يدى ، وكان الجو باردا ، والصمت يعم المكان ، شعرت بجندى يرقد بجوارى ، صاح وهو يشدنى نحوه :

ـ كفى ... لقد اصبت .

احسست بأهميتى ، زايلنى الخوف والرهبة ، وكأننى تخطيت سن المراهقة ، نظرت الى الجندى فى ثقة ، وقلت :

ـ ليس بعد .

عيسوى أنا قادم اليك ، لماذا لا تضحك ؟ كنت تسخر منى فى

الزمن المـاضى ، كنت تقول : جبان . ما رايك الآن ؟ لماذا تضحك؟

تســـألنى عن كاتى ؟ ... نعم ، سوف أجدها ، وكذلك تيجر سأجده هو ايضا ونجتمع معا مرة أخرى ، سندور معا فى شوارع السويس ننشد مع المنشدين فى ليالى مولد الفريب ، ونحرق الملابس فى ليالى العيـد ، ونغنى مع عمال المصانع ، ونشرب الشاى على رصيف الميناء ، ونسبح فى ميـاه البحر فى الليالى المقمرة ، عيسوى ... أنا قادم اليك بعد ان تطهرت ، غسلت عن روحى ادران الماضى، تركت خلفى احمالى ، لـكى نفرد معا ، ونطير فوق المنازل نوزع بريد الحب ، أنا اليوم قادر على الحب ... والحب عطاء ، والحب عطاء ومدينة ... كاتى ... فقدتك فى الصحراء ، فقدتك من نفسى ولـكنى اليوم وجدت نفسى وسوف أجدك بعد ان وجدتها ، كاتى... انت النبت الاخضر الذى ينمو حيث يوجـد الحب ، مدينتى ... حبى ، أنا اقابلك مفتوح الذراعين ... أهمس فى اذنك بأغنية العام الاول فى اليوم الاول ... لميلادى .

ـ لا تتقلب كثيرا .

رائحة المرض تفزعنى ... تذكرنى بأشياء نسيتها من زمن ...

ـ ارجوك ... لا تتحرك كثيرا .

تلزمنى بعض الراحة ، وبعدها سوف أتحرك لأملأ الدنيا غناء ، فى الفجر سوف تأتى أم محمود .. أشعر بالجوع ، ورأسى يدور فى فراغ ، اهبط فى الظلام ثم أصعد الى النور ...

ـ يادكتور ... هـذا المقـاتل لايريد أن ينام ... ودائم الحركة. شعرت بأنفاسه حول وجهى ، وعيناى تؤلماننى لا اقدر على فتحهما ، راسى مشدود بأحمال ثقيلة ، أشعر بوجودى لحظات ، وبعـدها لا أعرف أين أنا ، الصـوت يعلو أحيانا ويصل الى سمعى ، ولكنى فى أغلب الاحيـــان لا أسمع شيئا ، كاتى ... لو كنت معى الآن لاستطعت من خلالك أن أرى ...

ـ من ؟

لا أحد يرد ، يبدو ان الليل قد عاد سريعا ، أشعر بالبرد ، الظلام يحوطنى... أسقط فى بؤرة ضوء ... الاشجار تتكاثر، تنمو لها انياب ، تقترب منى ... اصرخ ، اصرخ ... لا أحد يرد ... يموت الضوء ، أشعر بالراحة ...

ـ اليوم ... العاشر ، يجب ان تنام .

أحس بأنفاس حارة تقترب من وجهى ، أصوات تتداخل ، أشعر بالجوع ، أحدهم يقف بجوارى ، أرى بعض الظلال ، اسمع صوتا :

ـ هذا أفضل ... لقد عبر بر الامان .

الخضرة تكسو الارض ، وزهرة صفراء ترقص فرحة ، تقفز من مكان الى آخر ، تهمس لى بكلمات جميلة . أرقد فى ظلها .. فى الزمن القادم عندما يأتى القمر الى مدينتنا سوف نغنى له ولا ندعه يتركنا ...

اصحو ، اسمع صوتا اعرفه ...

ـ ما زال مريضا

تقفز يدى منتفضة تتحسس مصدر الصوت ، الصوت حبيب ، الصوت رسول ، تلمس أصابعى شفتيه ، ترتجف الشفتان ، أشعر بالرعشة تسرى فى أوصالى ، العرق البارد يبللنى ... أشعر بدوار ... انا أرقد فوق سرير ، افتح عينى ، أبصر ... ولكن لا ، لقد برئت من الهوس العقلى .. ابصر كاتى تجلس بجوارى ، أنا لا أحلم ... الحق أقول لكم ، الدنيا تضحك معى ، الجند يدقون الارض بقوة ، احذية الجند المنتصرة خفيفة ، تملأ سمعى ، يتقدمون ... يضعون أمامى باقة ورد ، الصوت الخشن يهدهدنى ؟

ـ قم يا بطل ... كفاك نوما .

اليد الخشنة لا تعرف المرض ، تهز كتفى بقسوة ، اسعد بقسوتها ، تلتف وجوه سمراء من حولى ضاحكة باسمة ، اتمدد فوق سريرى ، ينتابنى احساس غامض حول ساقى ، انظر الى عيونهم ، الجند المنتصرة تخلب لبى .. طيبون هم المنتصرون..

ـ غدا يا بطل ... تصلك نجمة النصر

ـ سنقيم حفلا فى الميدان ونزفك ...

يشيرون اليها ...

كاتى ... بيضاء ضئيلة وسط كل هذا اللون الكاكى ، تضحك تمد يدها الصغيرة نحوى ، النور يأتى من خلال عينيها ، أمد يدى تتلقفهما ، تسرى النشوة فى جسدى كالحمى ، أنادى :

ـ كاتى ...

يرتفع الضحك المجنون كالاعصار ، يثور على اللحظة الحالمة ... يحيلها الى واقع ، انادى :

ـ كاتى ... احبك .

يأتى الصوت حبيبا الى سمعى يجذبنى بشدة الى الواقع :

ـ احبك ...

ترفعنى ، تهزنى ، تحرقنى الرغبة فى ان احبها ، يهتز جسدى ، ولكنى أشعر بالالم فى رأسى ، أتحسس رأسى ، اربطة تحيط به ، اتحسس جسدى ، اتعرف عليه ... لا اجد ساقى اليمنى

ترتفع الضحكات من كل جانب ، اسمع رنينها كرنين الاوانى النحاسية الفارغة ، لاهثا احاول ان اهدأ ... يأتى صوتها فى النهاية :

ـ طاهرا عدت الى ، بطلا رجعت .

تدور بى الفرفة ، لعاب صمغى يكبل فمى ... والقمر ياعيسوى له اطوار اربعة . وعيون اربع ، ومواسم اربعة ، تنفلت الظلمة من بين براثنه ، تهرب ، تذهب الى مكان آخر .

ارتفعت الاصوات كلها تتكلم فى وقت واحد ، لا أحد يسمع احدا ، عيسوى يا رجل الحب ، مدينتك عادت موطنا للحب ، غسلت نفسها فى بحر الدم والعرق ، واستيقظت مستقبلة عمرها الجديد فى فرح ، مستبشرة بعامها الاول ، وستظل شوارعها تحكى حكايتك ، وسوف تنبت باسمك شجرة ورد فى نفس المكان الطاهر الذى شهد مصرعك ، وستظل اناشيدك رمز الوجود متحدية العدم

ـ كاتى ... احبك .

ـ احبك ...

ـ ولكن الحب ...

ـ عطاء ...

ـ الحب عطاء ومدينة ...

تمت